بسم الله الرحمن الرحيم

إخراج الأمة المسلمة
وعوامل صحتها ومرضها

الدكتور ماجد عرسان الكيلاني

الطبعة الأولى

حقوق الطبع محفوظة
لرئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية
بدولة قطر

ماينشر في هذه السلسلة يعبر عن رأي مؤلفيها.

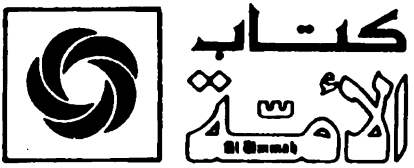

كتاب الأمة

Al Ummah

صدر منه :

- مشكلات في طريق الحياة الإسلامية « طبعة ثالثة »
  الشيخ محمد الغزالي
- الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف « طبعة ثالثة »
  الدكتور يوسف القرضاوي
- العسكرية العربية الإسلامية « طبعة ثالثة »
  اللواء الركن محمود شيت خطاب
- حول إعادة تشكيل العقل المسلم « طبعة ثالثة »
  الدكتور عماد الدين خليل
- الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري « طبعة ثالثة »
  الدكتور محمود حمدي زقزوق
- المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري « طبعة ثالثة »
  الدكتور محسن عبد الحميد
- الحرمان والتخلف في ديار المسلمين « طبعة ثالثة »« طبعة انجليزية »
  الدكتور نبيل صبحي الطويل
- نظرات في مسيرة العمل الإسلامي « طبعة ثانية »
  عمر عبيد حسنة
- أدب الاختلاف في الإسلام « طبعة ثانية »
  الدكتور طه جابر فياض العلواني
- التـــراث والمعاصـــــرة « طبعة ثانية »
  الدكتور أكرم ضياء العمري
- مشكلات الشباب : الحلول المطروحة والحل الإسلامي « طبعة ثانية »
  الدكتور عباس محجوب
- المسلمون في السنغال ـ معالم الحاضر وآفاق المستقبل « طبعة أولى »
  عبد القادر محمد سيلا
- البـــنوك الإســـلاميـــة « طبعة أولى »
  الدكتور جمال الدين عطية
- مدخل إلى الأدب الإسلامي « طبعة أولى »
  الدكتور نجيب الكيلاني
- المخدرات من القلق إلى الاستعباد « طبعة أولى »
  الدكتور محمد محمود الهواري

http://www.almaktabah.com

● **الفكر المنهجي عند المحدثين**

« طبعة أولى » ـ الدكتور همام عبد الرحيم سعيد

● **فقه الدعوة ملامح وآفاق في حوار**

الجزء الأول والثاني « طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الأستاذ عمر عبيد حسنة

● **قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر**

« طبعة أولى » ـ الدكتور زغلول راغب النجار

● **دراسة في البناء الحضاري**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور محمود محمد سفر

● **في فقه التدين فهما وتنزيلا**

الجزء الأول والثاني « الطبعة الأولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور عبد المجيد النجار

● **في الاقتصاد الإسلامي (المرتكزات ـ التوزيع الاستثمار ـ النظام المالي)**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور رفعت السيد العوضي

● **النظرية السياسية الإسلامية في حقوق الإنسان الشرعية دراسة مقارنة**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور محمد احمد مفتي والدكتور سامي صالح الوكيل

● **أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور أحمد محمد كنعان

● **المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور عبد العظيم محمود الديب

● **مقالات في الدعوة والإعلام الإسلامي**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ نخبة من المفكرين والكتاب

● **مقومات الشخصية المسلمة أو الإنسان الصالح**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور ماجد عرسان الكيلاني

إخراج الأمة المسلمة
وعوامل
صحتها ومرضها

صفر ١٤١٢ هـ

قال تعالى :

كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون .

(سورة آل عمران ـ آية ١١٠)

تقديم

بقلم: عمر عبيد حسنه

الحمد لله الذي لم يسلط على الأمة المسلمة عدوها تسليط استئصال وإبادة ، وإنما هي عقوبات ، يوقعها بسبب معاصيها الخلقية والفكرية والسياسية ، ومنبهات حضارية للقضاء على الكيانات الرخوة ، والعناصر الشائخة في جسدها ، تحصنها دون عوامل الموت والفناء ، وتحرك فيها الإمكان الحضاري ، وتوقظ القدرة الكامنة ، وتحرضها على الإقلاع من جديد .

والصلاة والسلام على المرسل بالهدىٰ ودين الحق ، تركنا على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك ، الذي أخرج الأمة المسلمة النموذج ، وناط بها مسؤولية الشهود الحضاري ، بما تمتلك من الرسالة المعيارية ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُم أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة : ١٤٣) .

وإذا صح لنا أن نقول : بأن نهوض الأمم ومعاودة إخراجها واسترداد دورها ، مرهون إلى حدٍ بعيد باستقراء ظروف وشروط ميلادها الأول ، أدركنا أهمية الاهتداء بقيم الكتاب والسنة ، وتطبيقات السيرة ، في عملية البعث الإسلامي ، أو إخراج الأمة المسلمة من جديد .

وبعـــد :

فهذا كتاب الأمة الثلاثون : « إخراج الأمة المسلمة » للدكتور ماجد عرسان الكيلاني ، في سلسلة « كتاب الأمة » التي يصدرها مركز البحوث والمعلومات ، برئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية في دولة قطر ، مساهمة بإعادة تشكيل شخصية المسلم المعاصر الفاعل ، واسترداد دور الأمة المسلمة في الشهود الحضاري ، وذلك بإعادة بناء نسيجها الاجتماعي ، وإحداث التفاعل بينها وبين

http://al-maktabeh.com

الإسلام ، وتخليصها من الرؤية النصفية والجزئية ، التي تستحوذ عليها ، والتي نأت بها عن مقاصد الدين وأهدافه ، وعطلت قدرتها على السيرة في الأرض ، والنظر في سنن الله في الأنفس والآفاق ، واكتشاف القوانين والأقدار التي تنتظم الحياة والأحياء ، وامتلاك الوسائل التي لا بد منها لتحقيق مقاصد الدين ، والقيام بأعباء الاستخلاف الإنساني .

ونحن لا ندعي بتقديمنا لهذا الكتاب : « إخراج الأمة المسلمة » الذي يعتبر مكملاً للكتاب السابق : « مقومات الشخصية المسلمة » ، أو إخراج الفرد المسلم ، أننا بلغنا ما نريد في المسألة التربوية ، سواء منها ما يتعلق بتربية الفرد ، أو ما يخص إخراج الأمة المسلمة ، ذلك أننا نعتقد أن ملف المسألة التربوية ، يجب أن يبقى مفتوحًا ، حيث تتجدد الأساليب والأوعية التربوية بتجدد الحياة ، وتنوع المشكلات والقضايا التي يعرض لها الإنسان مع تطور المكتسبات المعرفية والعلمية ، التي لا بد لها من تطوير مُرافِق لأبنية أخلاق المعرفة ، أو لمناهج إسلامية المعرفة .

ويمكن لنا اعتبار الكتابين مساهمة متقدمة ، في إطار التأصيل المنهجي التربوي ، كما يمكن من وجه آخر ، اعتبارهما خامات ومعادن تربوية ، تحتاج إلى الكثير من التصنيع والصياغة ، والتجسيد العملي في البناء المؤسسي ، في المجالات المتعددة ، في محاولة جريئة لتجاوز (الأبنية الفكرية والمؤسسية المسبقة) ، التي استمدت قداستها من الإلف ، وقوة الاستمرار ، والوراثة ، التي قد يتقبلها العقل ، وتتسرب إلى الثقافة ، بدون فحص واختبار ، كما تورث الأشياء المادية عن الأسلاف والآباء .

وكنت أتمنى أن تتاح فرصة للمساهمة ببعض الملاحظات والمفهومات حول إخراج الأمة المسلمة ، وما تتمتع به من الإمكان الحضاري ، وامتلاك الرسالة المعيارية ، والتواصل الثقافي بين أجيالها ، الأمور التي تقتضيها خاصيتا الخلود ، وختم النبوة ، والتي تعتبر من لوازمها ، وكيف أن الدورات الحضارية ، التي عرض لها علماء التربية والاجتماع والتاريخ ، لم تنطبق بشكل رياضي صارم على الأمة المسلمة ، وأن حسابات أعدائها لم تصدق تماماً عليها ، لأن لهذه الأمة دائمًا مفاجآتها ، التي لا تزال تستعصي على تقديرات خصومها ، وإن لم تنج بعمومها منها ، لأن سنن الله في الكون

وأقداره لا تحابي أحدًا . ذلك أن مواثيق الله لحملة الرسالة الخاتمة ، واستقراء التاريخ ، يؤكدان أن الطائفة القائمة على الحق لا يمكن أن تتوقف ، أو تغيب ، لأن ذلك يعني - فيما يعني - إصابة مهمة البلاغ المبين ، وقضية التكليف نفسها ، إذ كيف يمكن أن تتوقف الأمة القائمة على الحق ، التي تمتلك خطابه ومعياره ، بعد توقف نسخ الشرائع . . الأمة التي تتحمل مسؤولية منهج النقل لتعاليم النبوة . . لذلك ، فالقيم تبقى محفوظة بحفظ الله ، وإن أصيب منهج العقل والاجتهاد ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر ؛ فإن عصمة عموم الأمة (لا تجتمع أمتي على خطأ ، وفي رواية : على ضلالة) ، تعتبر من الضمانات النصية والعملية على امتلاك القدرة على النهوض دائمًا ، والحيلولة دون الإصابات الموصلة إلى الوفاة ، وإن كان ذلك لا يمنع عنها المرض والتوعك . . ومن مظاهر المرض والتوعك : عجز المؤسسات التربوية الحالية عن وضع الأوعية الصحيحة لحركة الأمة ، وعجز المؤسسات التقليدية الموروثة عن الآباء - خاصة في عصور الجمود والتقليد الجماعي - عن تجاوز القراءة النصفية للحياة ، حيث غابت فيها علوم الإنسان ، التي تشكل المدخل الطبيعي والأساسي للتعامل معه ، وتقدير موقعه بدقة ، من البناء الاجتماعي وتقويم سلوكه بمنهج الله ، كما غابت فيها دراسة السنن الاجتماعية في الأنفس والآفاق ، وإدراك قوانين الحركة التاريخية في نهوض وسقوط الأمم ، الأمر الذي لا بد من الإحاطة به في عملية التحويل الثقافي ، وإعادة النسيج الاجتماعي .

إن عدول المؤسسات التربوية عن فقه كتاب الكون والاجتماع البشري ، انعكس على قراءتها للكتاب والسنة ، وحاصر قدرتها على تعدية الرؤية ، والامتداد والخلود لقيم القرآن نفسه ، الأمر الذي جعل العمل والعاملين في الحقل الإسلامي ، خارج سياق الحياة والواقع .

وقضية أخرى كانت ولا تزال جديرة بالبحث أيضاً ، ونحن بصدد تأصيل منهج إخراج الأمة المسلمة ، وهي غياب الأبعاد الحقيقية لمفهوم فروض الكفاية ، وموقعها كواجبات اجتماعية ، تساهم بتماسك نسيج الأمة الاجتماعي ، وتشعرها بالمسؤولية التضامنية ، وتنهي بها إلى مرحلة الاكتفاء الذاتي ، على مختلف الأصعدة .

لقد همّشت فروض الكفاية ، حتى كادت تقتصر على قضايا المصير ، وكل

ما يتعلق بحالات الوفاة ولوازمها من التغسيل والتكفين ، وحمل الجنازة ، ودفنها ، بعيدًا عن إبراز دورها في آفاق الحياة المتعددة ، في كل ما له علاقة بمهمة الاستخلاف الإنساني ، والتعمير الحضاري ، وأهمية تقديمها على الفروض الفردية ، وإدراك دورها في حياة الأمة ، وتأمين حاجاتها من مختلف التخصصات المطلوبة ، والتي تصبح بعد اختيارها فروضًا عينية على أصحابها ، هذا إضافة إلى انكماش مفهومها ، في الذهن المسلم المعاصر ، فالمعروف من مفهوم فرض الكفاية أنه إذا قام به بعضهم ، سقط الإثم عن الباقين ، ومعنى قام به : أداه على الوجه الأكمل إلى درجة الكفاية الاجتماعية ، ولا يعني ذلك بحال من الأحوال مباشرته فقط ، كما هو شائع ، سواء وصل إلى درجة الكفاية وتحقيق الاكتفاء ، أم لا .

ومن الأمور اللافتة للنظر أيضا ـ ونحن بصدد طرح قضية فروض الكفاية وأهمية تحرير القول في أبعادها ، ودورها الهام في تشكيل نسيج الأمة ، والإسهام بحصانتها وعافيتها ـ أن الآلية الفقهية التي تشكل الأوعية الشرعية لحركة الأمة ، ومسالكها بشكل عام ، وخاصة في عصور الجمود ، والعصبية المذهبية ، والتقليد الجماعي ، جعلت للاجتهاد البشري القابل للخطأ ، قدسية النص الديني المعصوم ، الأمر الذي قاد إلى الكثير من الصراعات والتمزقات المذهبية ، كما انتهت إلى تجريدات ذهنية ، وآلية ميكانيكية لإنتاج الأحكام الفرعية ، التي قد تنأى عن مقاصد الدين العامة ، ولا أدل على ذلك من شيوع فقه الحيل الشرعية الذي يمكن اعتباره فقه مخرج ، وليس فقه مقصد ، وصاحبه حامل فقه وحافظ ، وليس بفقيه . . ولذلك قرر بعض الفقهاء أن تطبيق القياس ـ أحد مصادر التشريع ـ على إطلاقه ، قد يفوّت مصلحة شرعية معتمدة ومقصدًا من مقاصد الدين ، لذلك كان لا بد من العدول إلى الاستحسان كمصدر للأحكام لتحقيق المصلحة الشرعية . . ويمكن أن نصنف في هذا الإطار ـ « فقه المقاصد » ـ الكثير من اجتهادات الأئمة : ابن تيمية والشاطبي ، والشوكاني ، والطاهر بن عاشور ، وغيرهم ، من الذين تنبهوا لأهمية البعد الاجتماعي لمقاصد الشريعة ، الذي يجب أن يشكل المحور الذي تدور حوله الأحكام الفقهية .

ومن الإصابات الفكرية والتربوية في نطاق الأمة ، والتي لا بد من تسجيلها هنا :

أن لا يكون في مكتبتنا الفقهية التي تمثل القسم الأعظم من المكتبة الإسلامية والثروة التراثية الكبرى ، إلا بعض الكتب التي لا تتجاوز أصابع اليد في مقاصد الشريعة وأهداف الدين العامة !

ولعل ذلك بسبب الخلل التربوي ، الذي أدىٰ إلى نمو الفقه الفردي ، وانقطاع الفقه عن مجرىٰ الحياة العامة ، وعزلته عن الواقع المعاش ، وإغلاق بابه ، الأمر الذي جعل الحياة تدخل من أبواب أخرىٰ بعيداً عنه . حيث بقيت مؤسسات التربية والتعليم ، تبدى وتعيد في المشكلات التاريخية على الرغم من تطور العصر ، وتغير المشكلات ، وتجدد الحياة .

وقضية أخرى قد تكون جديرة بلفت النظر أيضاً : وهي أن اعتماد أنظمة الحكم والأشكال السياسية فقط ، معياراً للنظر إلى الأمم ، والحكم عليها ، وتقويمها ، فيه الكثير من التجاوز والمجازفة ، والبعد عن الحقيقة والواقع ، ونحن هنا لا نتنكر لمدلول قولة الرسول صلى الله عليه وسلم : « كما تكونوا يولّ عليكم » ، وأن أنظمة الحكم تشكل إلى حدٍ بعيد بعض النوافذ التي يُنظر من خلالها إلى طبيعة تركيب الأمم والحكم عليها ، وإنما نرى جوانب أخرى لمدلول قول الرسول صلى الله عليه وسلم ، تخص الجانب التربوي الذي يلفت النظر إلى أن التغيير والتحويل لواقع الأمة ، لا يبدأ من رأس السلطة ، التي لا تعدو أن تكون ثمرة طبيعية ، لبذرة الواقع ، وشجرته ، وإنما يبدأ التحويل من العكوف على الذات ، والبدء من أغوار النفس بإعادة التربية والصياغة ، وتغيير البذور الفكرية ، لتنتج ثماراً أخرى في رأس السلطة فالله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم ، هذا إضافة إلى أن الواقع يدل على امتداد الأمة المسلمة الثقافي والفكري التاريخي ، على الرغم من الكثير من الإصابات والتمزقات السياسية ، حيث الكثير من الأنظمة السياسية ـ في عالم المسلمين ـ تاريخيًا عاشت معزولة إلى حدٍ بعيد عن ضمير الأمة المسلمة ، ولعل في طلب الرسول صلى الله عليه وسلم للمسلمين ملازمة القرآن ، عندما ينفصل عنه السلطان ، دليل من وجه آخر على امتداد أمة الرسالة والدعوة ، ولو توقفت مؤسسات السياسة والحكم .

ونحن هنا لا ننكر أثر وتأثير النظام السياسي في نسيج الأمة ومؤسساتها التربوية التي

يحولها لتنتج على هواه ، إلا أننا نعتقد أن إعداد الفرد ، وحسن إخراجه طبقًا لتعاليم النبوة ، وتغيير ما بنفسه يبقى اللبنة الأولى ، والأساس في البناء ، وأن الخلل في وسائل ومؤسسات التربية في إخراج الفرد الصالح غير المصلح ، لا يلغي دوره وأهميته ، وإنما لا بد أن يعود بالإلغاء على الوسيلة المخطئة ، علمًا بأن القيم الإسلامية ، والتطبيقات النبوية ، ضبطت النسب بين كل من دور الفرد ، ودور الأمة ، حتى لا تصاب آلية التغيير الاجتماعي بالتصلب والتكلس ، وتنتهي إلى نوع من الحتمية في إنتاج النماذج المطلوبة والعاجزة عن الخروج على قوالب البيئة الاجتماعية .

وبعد : فهذه ملاحظات سريعة فرضتها مساحة الكتاب ، رأيت تسجيلها ، سائلاً الله سبحانه أن يرزقنا الإخلاص ، ويلهمنا الصواب ، إنه نعم المسؤول .

مقـــدمـــة

إخراج الأمة المسلمة هو الهدف الثاني من أهداف التربية الإسلامية . وما لم توجه العناية إلى بلورة هذا الهدف ، وتربية (إنسان التربية الإسلامية) عليه ، فإن الجهود التي تبذل لتحقيق الأول : هدف تربية الفرد المسلم ، لن تكون ذات قيمة ، لأن الأفراد الصالحين هم عنصر واحد من عناصر تتفاعل لتجسد (الأمة المسلمة) في بناء اجتماعي واقعي ، يُلبي الحاجات والتحديات القائمة ، وإلى هذا البناء كانت الإشارة في الحديث النبوي القائل :

« المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا »[1] .

و « المؤمنون في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »[2] .

وكما أن البنيان المرصوص ليس كومة من الحجارة ، وإنما هو جذر متينة من الحجارة المصقولة المشدودة بالإسمنت والحديد ، حسب قوانين هندسة البناء ، وعدد الأعمدة ، والجسور والعقود ، وعمق الأساس ، وسمك الجدار ، ومقدار الارتفاع ، وظروف المناخ المحيط ؛ وكما أن الجسد لايتداعى أعضاؤه بالسهر والحمى للعنصر المصاب ، إلا إذا كان لذي الجسد قلب نابض بالحياة ، ويدبر أموره دماغ سليم ، وأجهزة معافاة للهضم والتنفس ، وشبكة نشطة من الشرايين والأوردة والأعصاب ، ودم نقي متوازن التركيب ، فكذلك الأمة ليست أكواماً بشرية (صالحة أو غير صالحة) ، وإنما هي نسيج اجتماعي ، تحكمه قوانين بناء الأمم ، وصحتها ، ومرضها ، وموتها ، وتتلاحم فيه مكونات الأمة ،

---

(١) البخاري ، الصحيح ، كتاب المظالم .

(٢) مسلم ، الصحيح ، كتاب البر ، جـ ١٦ ، ص ١٤٠ .

http://www.al-maktabeh.com

وتعمل متكاملة بحيث يكون حصيلة هذا كله : (إخراج الأمة المسلمة) ، وقيامها بوظائفها ، طبقاً لحاجات الزمان والمكان .

وتتكامل المرحلتان : مرحلة تربية الفرد المسلم ، ومرحلة (إخراج الأمة المسلمة) ، بحيث تكون الأولى مقدمة للثانية ، ولاتغني واحدة دون الأخرى ، ولذلك كان التركيز في المرحلة المكية على تربية الفرد المسلم ، أو الإنسان الصالح المصلح ، بينما كان (إخراج الأمة المسلمة) ، هو محور العملية التربوية في المرحلة المدنية[1] .

غير أن البحث في المصادر الإسلامية ، يكشف أن لـ « الأمة » في التاريخ الإسلامي مفهومين : مفهوم نظري في القرآن والسنة ؛ وهو مفهوم يقدم النموذج الذي يجب أن تكون عليه الأمة ، وقد اخترت في هذا البحث أن أطلق عليه اسم : « الأمة المسلمة » . . ومفهوم عملي يمثله كيان « الأمة » الذي برز عبر العصور الإسلامية ، ابتداء من عصر الرسول صلى الله عليه وسلم حتى الوقت الحاضر ، وقد اخترت أن أطلق عليه اسم : « الأمة الإسلامية » . وتبين وقائع التاريخ أن المفهوم العملي للأمة قد تطابق مع المفهوم النظري لزمن معين ـ هو عصر الرسول وعصر الخلافة الراشدة ـ ثم أخذ في الابتعاد تدريجياً ، حتى انتهى إلى مخالفته تماماً ، مثبتاً بذلك ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم حين قال :

ـ « تدور رحى الإسلام لخمس وثلاثين ، أو ست وثلاثين ، أو سبع وثلاثين ، وإن يقم لهم دينهم يقم لهم سبعين عاماً »[2] .

ـ « خير أمتي قرني ، ثم الـذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، (قـال عمران راو الحديث : فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة) ، ثم إن بعدكم قومًا يشهدون ولايُستشْهَدون ، ويخونون ولايؤتمنون ، ويَنذرُون ولايوُفون ، ويظهر فيهم السِّمَن »[3] .

---

(١) يرجى من القارىء أن يجمع بين هذا الكتاب ، وكتاب ـ مقومات الشخصية المسلمة ـ الذي نشر في سلسلة ـ كتاب الأمة ـ رقم (٢٩) في قطر . ليكون الأثنان ـ استراتيجية العمل الإسلامي ـ.

(٢) سنن ابي داود ، حـ ٤ ، ص ٩٨ رقم ٤٢٥٤ . مسند أحمد ، حـ ١ ، ص ٢٩٠ ، ٢٩٢ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب فضائل الصحابة .

وهذا يعني ـ بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ أن « الأمة الإسلامية » لم تكن طوال التاريخ « أمة مسلمة » راشدة بشكل كامل ، وإنما أخذت ـ منذ وقت مبكر ـ بالانحراف عن نموذج الأمة في القرآن والسنة : والواقع أن مؤسسات التربية الإسلامية في العصور التي تلت عصر النبوة والخلافة الراشدة تركت ـ أو أجبرت على ترك ـ « فقه » إخراج الأمة المسلمة ، وما يتطلبه هذا الإخراج من نظم وتشريعات ومؤسسات تقي الأمة من التسلط ، وتحميها من عوامل المرض ، وأخطار الوفاة . ثم نسيت هذا الهدف ، ثم انحسرت لتقتصر على تربية الفرد الصالح (غير المصلح) الذي يُهيأ منذ الطفولة للانتقال إلى الآخرة ، دون التدرب على عبور محطة الدنيا . وهذا النموذج في التربية هو الذي ورثته مؤسسات التربية الإسلامية في العصور الحديثة ، حيث مازالت هذه المؤسسات تعمل على أساس أنه « إذا صلح الفرد صلحت الأمة » . وما زالت مؤسسات التربية الإسلامية التقليدية ، والحركات العاملة في ميدان العمل الإسلامي ، تتقبل هذه المقولة وتتعامل معها ، وكأنها آية من آيات الكتاب ، وليس كفرضية من الفرضيات البشرية التي قد تثبت أو لاتثبت بالاختبار والتجريب في مختبر الآفاق والأنفس . فكانت النتيجة العملية لهذه الممارسات التربوية الخاطئة هي تكدس الأفراد المسلمين في أكوام بشرية ليس لديها علوم محددة عن « فقه » بناء الأمم ، وتنسيق القدرات البشرية والمادية . ولذلك أصبحت لعبة سهلة بأيد قوى الاحتلال الخارجي ، التي مازالت تصنع من شظايا الأمة المسلمة المريضة مزقاً من الكيانات المهيضة ، التي تطلق عليها اسم ـ الأمم الإسلامية ـ وتحدد لها « جنسياتها » و « ثقافاتها » ومحاور « الولاء » فيها طبقا لنظريات عصبية متخلفة ، وتصمم لها تطبيقاتها الخاوية الضعيفة في شؤون السياسية والإدارة والاجتماع .

والمحصلة النهائية لجهل المؤسسات التربوية الإسلامية بإخراج الأمة المسلمة هي : أن هذه المؤسسات مازالت تعمل على إعداد أفراد صالحين (غير مصلحين) لتقذف بهم إلى بيئات غير صالحة ، حيث تدخل فضائلهم الفردية في صراع وعلاقات اجتماعية غير فاضلة ، إلى أن ينتهي بهم الأمر إلى الازدواجية في السلوك وإلى التلاوم والتآكل ، ثم الوقوع ضحية الانفعالات والانفجارات التلقائية ، والجهاد المرتجل ، أو المصطنع ، الذي كثيراً ماينتهي بهم إلى الانتحار الاجتماعي ، أو السحق تحت ضغط الإحباطات ، والنكسات ، دون أن ينتبه أحد إلى أن المطلوب هو « فقه » جديد ـ أو علم جديد ـ يتكامل فيه علم (إخراج الأمة المسلمة) وعوامل صحتها ومرضها وموتها وبعثها إلى آخر مايتعلق بها .

من هذه الحاجة ولدت الأفكار التي تضمنها هذا البحث ، مستهدفة الإسهام في استكشاف ـ فقه إخراج الأمة المسلمة ـ وبلورة أصوله ، وتنبيه الباحثين الإسلاميين إلى دخول ميدانه في ضوء الغايات العليا التي ترشد إليها توجيهات القرآن الكريم والسنة الشريفة ، والشؤون المتجددة في الآفاق والأنفس .

والله سبحانه يتولانا بالهداية والتعليم ، فإنه لا علم لنا إلا ما علمنا ، ولا فهم لنا إلا ما فهمنا ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

الدكتور ماجد عرسان الكيلاني

الباب الأول

الأمة المسلمة : مفهومها ونشأتها وأهميتها

الفصل الأول

مفهوم الأمة المسلمة

١ ـ **معنى الأمة** : الأمة مصطلح من المصطلحات التي ولدت بميلاد الرسالة الإسلامية ، مثل مصطلح « الصلاة » و « الزكاة » و « الإيمان » و « الإسلام » و « الكفر » و « النفاق » وهكذا .

والأمة تعني ـ لغوياً ـ الجماعة من الناس التي تؤم جهة معينة[1] . وأما المعنى ـ الاصطلاحي فقد تكررت الإشارة إليه في القرآن والحديث ليدل على معانٍ عديدة أهمها :

المعنى الأول : ورد مصطلح « الأمة » ليدل أن الأمة هي :

إنسان + رسالة

و « الرسالة » هنا هي « مثل أعلى » ، يقدم النموذج الأمثل للجوانب الخيرة في سلوك الفرد والجماعة ، ليأتم به الناس ويسعدوا ، ويقدم الصورة الشاملة للجوانب الشريرة ، ليتجنبها الناس ويسلموا من آثارها . ويشير القرآن الكريم إلى هذه الرسالة في مواضع عديدة باسم ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ .

وأما عن « الإنسان » فقد يكون فرداً واحداً ، مثل الإشارة إلى إبراهيم عليه السلام عند قوله تعالى :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (النحل : ١٢٠) .

ومثل قوله صلى الله عليه وسلم في زيد بن عمرو بن نفيل :

---

(١) القرطبي ، التفسير ، جـ ٢ ، ص ١٢٧ .

http://www.al-maktabeh.com

« يبعث أمة وحده » لأنه لم يشرك في دينه شيئاً[1] .

ومثل قول عبد الله بن مسعود الذي رواه عنه فروة الأشجعي حين قال :

« كنت جالساً مع ابن مسعود فقال : إن معاذاً كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين .

فقلت : ياأبا عبد الرحمن إنما قال الله : إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا . . فأعاد قوله : إن معاذاً . . فلما رأيته أعاد عرفت أنه تعمد الأمر فسكتُّ .

فقال : أتدري ما الأمة وما القانت ؟

قلت : الله أعلم !

قال : الأمة الذي يعلم الخير ، ويؤتم به ويقتدىٰ . والقانت : المطيع لله . وكان معاذ بن جبل رضي الله عنه معلماً للخير مطيعا لله ورسوله »[2] .

وقد يكون ـ الإنسان ـ جماعة من العلماء الدعاة ، الذين يحملون رسالة إصلاحية ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ (الأعراف : ١٥٩) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ (آل عمران : ١٠٤) .

وقد يكون ـ الإنسان ـ طائفة أو قبيلة لها معتقدها ونهجها ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً ﴾ (الأعراف : ١٦٠) .

وقوله أيضا : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَماً مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ ﴾ (الأعراف : ١٦٨) .

وقد يكون ـ الإنسان ـ جيلا له فكر واحد ، ولون حضاري واحد ، مثل قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَاكَسَبَتْ وَلَكُم مَّاكَسَبْتُمْ ﴾ (البقرة : ١٣٤ ، ١٤١) .

وقوله صلى الله عليه وسلم في جيل الصحابة الذي رباه :

« إن لكل أمة أجلاً . وإن لأمتي مائة سنة ، فإذا مرت على أمتي مائة سنة أتاها ماوعدها الله »[3] .

وقد يكون ـ الإنسان ـ مجموعة متميزة بالتزامها مُثُل الرسالة ومبادئها . مثل قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران : ١١٠) .

---

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) الطبري ، التفسير ، حـ ١٤ ، ص ١٩٠ .

(٣) كنز العمال ، حـ ١٤ ، ص ١٩٣ نقلا عن الطبراني في الكبير .

وبسبب هذا التميز قال عمر بن الخطاب عند ذكر هذه الآية : تكون لأولنا ولا تكون لآخرنا ! وفي تفسيرها قال ابن عباس : هم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة !(١) .

وقد يتسع مفهوم ـ الإنسان ـ حتى يشمل الإنسانية كلها ، إذا اجتمعت على فكرة واحدة ، ومنهاج واحد . مثل قوله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ﴾ (يونس : ١٩) .

﴿ وَلَوْلاَ أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ (الزخرف : ٣٣) .

والمعنى الثاني : فقد ورد مصطلح « أمة » ليعني ـ منهاج حياة ـ ومايتضمنه هذا المنهاج من معتقدات وقيم وممارسات وتقاليد مثل قوله تعالى :

﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ (الزخرف : ٢٢) .

والمعنى الثالث : فقد ورد مصطلح « أمة » ليعني ـ فترة زمنية ـ مثل قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ (يوسف : ٤٥) .

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾ (هود : ٨) .

والمعنى الرابع : حيث ورد مصطلح « أمة » ليعني مجموعة من الناس لها مهنة واحدة . مثل قوله تعالى :

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ (القصص : ٢٣) .

والمعنى الخامس : حيث ورد مصطلح « أمة » ليشير إلى المخلوقات الأخرى من الحيوانات والطيور والحشرات التي تنتمي إلى جنس واحد . مثل قوله تعالى :

﴿ وَمَامِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَطَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ (الأنعام : ٣٨) .

ولقد كشف علم الحيوان أن لكل نوع منه لغة تخاطب ، وتقاليد في العمل والقيادة ، ونمط في الاجتماع وأسلوب في الحياة .

ولقد تردد شرح مصطلح « الأمة » عند بعض المفسرين ليشير إلى المعاني التي مرت . فهو عند الطبري : « الجماعة والقرن من الناس »(٢) ، وهو « دين وملة »(٣) ، وهو « الناس

---

(١) الطبري ، التفسير ، حـ ٤ ، ص ٤٣ ـ ٤٤ .

(٢) الطبري ؛ جامع البيان ، حـ ١ ، ط ٣ (القاهرة : مكتبة الحلبي ، بلا تاريخ) ص ٥٦٣ .

(٣) الطبري ؛ نفس المصدر ، حـ ٢٥ ، ص ٦٠ ـ ٦١ .

كانوا على دين واحد فاختلفوا » ، وهو « الإمام يُقتدىٰ به في الخير »[1] ، وهو « الأجل المحدود ، أو مجيء أمة وانقراض أخرى »[2] ، وهو « الطريقة : أي كنتم خير أهل طريقة »[3] .

مما مرّ كله يمكن الخروج بالملاحظات التالية حول مفهوم « الأمة » ومعناه :

الملاحظة الأولى : أن المعنى الاصطلاحي المتكامل لـ « الأمة » يتضمن عناصر أربعة : الأول : العنصر البشري ؛ والثاني : العنصر الفكري ؛ والثالث : العنصر الاجتماعي ؛ والرابع : العنصر الزمني . فالأمة مجموعة من الناس تحمل رسالة حضارية نافعة للإنسانية ، وتعيش طبقاً لمبادىء هذه الرسالة . وتظل تحمل صفة ـ الأمة ـ مادامت تحمل هذه الصفات . أما حين تفقدها فقد يطلق عليها اسم « الأمة » ولكنها لن تكون النموذج الإسلامي الكامل للأمة ، كما يطلق اسم « دين » على أي دين ، ولكن الدين المقبول عند الله هو الإسلام .

والملاحظة الثانية : أن العنصر الرئيس في مفهوم الأمة ، هو عنصر ـ الرسالة ـ أي العطاء الذي تقدمه جماعة من الناس إلى بقية مجموعات الإنسانية ليساعد على بقاء النوع البشري ورقيه .

والملاحظة الثالثة : لايشترط في العنصر البشري ـ أو المكون الأول للأمة ـ الروابط الدموية ، أو الجغرافية ، ولا الكم العددي . فقد يكون هذا العنصر فرداً واحداً ، وقد يكون فئة ، أو جماعة ، أو جيلاً أو أجيالاً ، أو الإنسانية كلها ، مادامت تحمل رسالة ، ويوحدها فقه شامل لهذه الرسالة ، وتطبيقات فاعلة ، تنتج عنها نظم وتطبيقات حضارية ، في ميادين الحياة المختلفة ، تسهم في بقاء النوع البشري ورقيه .

والملاحظة الرابعة : أن الأمة تتدرج في نشأتها ونموها كتدرج نمو الجسد الإنساني . فكما يبدأ الجسد نطفة ثم علقة ثم يولد طفلاً ثم يصبح صبيًّا ، ثم يقوى شاباً ، ثم يبلغ رجلاً ، ثم يعود شيخاً ، وكما أن الإنسان الكامل هو الذي يبلغ النضج الجسدي والنفسي والعقلي ويقوم بوظائفه كاملة . فكذلك الأمة تبدأ فرداً واحداً ثم تصير مجموعة صغيرة ، ثم قوماً ، ثم شعباً ، حتى تنتهي بالدائرة الإنسانية كلها . والأمة الراشدة هي التي تبلغ درجة الرشد

---

(١) الطبري ؛ نفس المصدر ، حـ ٢ ، ص ٣٣٤ ـ ٣٣٦ .
(٢) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ح ٢ ، تفسير آية ١٢٨ من سورة البقرة ، ص ١٢٧ .
(٣) الطبري ، التفسير ، حـ ٤ ، ص ٤٦ .

الحضاري والنوعي ، وأبرز شارات هذا النضج هو حمل رسالة الدعوة للخير ، بمعناه الواسع وإشاعته ، والنهي عن المنكر بمعناه الواسع ومحاربته .

والملاحظة الخامسة : أن الأمة الراشدة لاينال من وحدتها تنوع الشعوب والقبائل فيها ، ولا اختلاف الألوان والمهن والأماكن ، مادامت هذه التنوعات لاتخرج عن وظيفتها في تسهيل التعارف ، ومادامت ولاءاتها تدور في فلك الرسالة وحدها ، ولاتدور في فلك الأشخاص والأشياء ، ومادام يعمل هذا التنوع كما يعمل التنظيم الإداري ، القائم على الوحدة في الغاية ، والتنوع في الاختصاصات والوسائل .

والملاحظة السادسة : أن الأمة كيان صناعي يمكن بناؤه وهدمه . فهي تخرج إخراجاً للقيام بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وهذا الإخراج يقتضي منها بذل الجهد والمقدرات لتطوير المؤسسات التربوية والإدارية ، للقيام بالدراسة والتخطيط المستمر ، لإحكام تطوير الأمة وإخراجها ، بما تتطلبه وظيفتها حسب حاجات الزمان والمكان . وإلى إخراج هذه المؤسسات ، كان التوجيه الإلهي ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران : ١٠٤) .

والملاحظة السابعة : أن استمرار الأمة في الحياة مرهون باستمرار حملها للرسالة ومايتفرع عنها من تطبيقات في مجالات الحياة المختلفة ، فإذا ضعفت عن حمل هذه الرسالة ، أو توقفت فاعليتها ، أو تقلصت تطبيقاتها ، انتهى وجود الأمة ، وحل محلها أمة أخرى ، لاعلاقة لها بسابقتها ، وإن ربطتها بها روابط الدم والأرض واللغة والثقافة . وهذا مافهمه كبار الصحابة الذين عايشوا بدء الرسالة وتطبيقاتها من قوله تعالى :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران : ١١٠) .

ولقد كان الخليفة عمر حريصاً على تأكيد هذا الفهم والتصور عن الأمة المسلمة حين قال في شرح الآية المذكورة :

« لو شاء الله لقال أنتم ، فكنا كلنا ، ولكن قال : (كنتم) في خاصة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن صنع مثل صنيعهم ، كانوا خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » .

وفي مناسبة أخرى قال : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تكون لأولنا ولاتكون لآخرنا » .

وفي حجة حجها قرأ هذه الآية ثم قال : ياأيها الناس من سره أن يكون من تلك الأمة فليؤد

شرط الله فيها .

وعن ابن عباس في تفسير الذين هم خير أمة أخرجت للناس ، قال : هم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة .

وعن أبي هريرة في تفسير الآية المذكورة : كنتم خير الناس للناس ، تجيئون بهم في السلاسل تدخلونهم في الإسلام[1] ، ليدخلوا الجنة .

والملاحظة الثامنة : أن سعة دائرة الأمة يحددها ـ مدى التواصل والاتصال ـ الذي تحدده تكنولوجيا العصر . فحين كان الإنسان يسير على قدميه ، ويتواصل مشافهة مع بني جنسه ، تحددت دائرة الأمة بالحدود الجغرافية التي أمكنه التحرك داخلها . وحين ركب الحمير والخيل اتسعت الدائرة لتشمل أكثر من قريته ، وحين اكتشف العربات التي تجرها الخيول ، ورموز الكلمات والكتابة ازدادت سعة دائرة الأمة ، لتشمل القارة ، حتى إذا وقف على عتبة ركوب الفضاء والتواصل بالتلكس والتلفون والفاكس ، رسمت الرسالة الإسلامية للأمة دائرة تتسع للإنسانية كلها .

ويرتبط بهذا التطور الجغرافي لسعة رقعة الأمة تطور اجتماعي موازٍ يوسع دائرة القيم في كل طور ، فينقلها من القيم الأسرية ، إلى القبلية ، ثم القومية ، ثم العرقية ثم العالمية . وإلى هذا التدرج في الاتساع كانت الإشارة النبوية في أن كل رسول بُعث إلى قومه ، وأنه صلى الله عليه وسلم بُعث إلى الناس كافة .

ولكن المشكلة في التطور المشار إليه ، أن البشرية كانت ـ ومازالت ـ تعجز عن مواكبته فتقع في خطأين اثنين . . الأول : أن فئات كثيرة من البشر كانت ومازالت تمارس الرفض والحران ، فترفض الانتقال من قيم طور انتهى أمده إلى قيم طور حل زمنه . والثاني : أن نوازع الهوى المرتبطة بمصالح بعض أهل المال والسلطان كانت ومازالت تشوه مفهوم الأمة فتنقل ـ الرسالة أو الفكرة ـ من المحور إلى الهامش ، وتحل محلها روابط الدم أو الوطن أو المصالح المادية ، وبذلك يطلق مصطلح « الأمة » على من لا ينطبق عليه مواصفات الأمة كما حددها القرآن والحديث .

لذلك كان من أبرز مسؤوليات المؤسسات التربوية الإسلامية : أن تقوم في كل جيل بمراجعة المفاهيم المنحدرة من الآباء عن معنى ـ الأمة ـ ومكوناتها وروابطها بغية تجديد ـ المفاهيم ـ الصائبة ، وتزكية المفاهيم المتداولة ، مما علق بها من نقص أو تشويه .

---

(١) الطبري ، التفسير ، حـ ٤ ، ص ٤٣ ـ ٤٤ .

الفصل الثاني

بدء ظاهرة « الأمة المسلمة » ونشأتها

بدأ الإعداد لظاهرة « الأمة المسلمة » برسالة إبراهيم عليه السلام الذي وصفه القرآن الكريم : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (النحل : ١٢٠) .

ولقد جاء مفهوم « الأمة المسلمة » كحلقة في سلسلة الرسالات السماوية التي توازت مع تطور المجتمعات البشرية . فحين بدأ الاجتماع البشري بطور الأسرة جاءت الرسالة أسرية ، كرسالة آدم عليه السلام . وحين انتقل الناس إلى طور القبيلة والقرية جاءت الرسالات قبلية وقروية ، كرسالات صالح وهود . وحين انتقلت المجتمعات إلى طور ـ القوم ـ جاءت الرسالات قومية كرسالة نوح عليه السلام .

ومفهوم « القوم » هذا يقابله في اللغة الانكليزية مصطلح People وهو مفهوم دموي ، يستمد محتواه من روابط الدم ، حين بدأ الإنسان ينتقل من حياة التجوال الفردي إلى طور التجوال الأسري والقبلي ، وتكونت نتيجة لذلك ظاهرة « القوم » في الطور الرعوي للبشرية .

أما مفهوم « الشعب » فيقابله في اللغة الانكليزية مصطلح Nation ، وهو مفهوم جغرافي ، يستمد محتواه من الروابط الجغرافية ، حين بدأت القبائل والأقوام تنتقل من طور الرعي إلى طور الزراعة والاستقرار في رقعة الأرض التي تحددها قوة الأقوام المتجمعة .

وانتقال المجتمعات البشرية من طور إلى طور كان يتسم لفترات طويلة جداً بالتناقض والاضطراب والتمزق ، بين قيم ومفاهيم الطور السابق المنحدرة من « الآباء » ، وبين قيم ومفاهيم الطور الجديد الذي يدلف إليه « الأبناء » . ولذلك كان عمل الرسالات هو القضاء على التناقض والاضطراب والتمزق المذكور ، ثم تسهيل الانتقال إلى الطور الجديد وتنظيمه .

ثم جاء طور « الأمة » حينما بدأت الحدود الإقليمية تتهدم وبدأ انسياح الأقوام والشعوب بعضهم على بعض . ولكنه انسياح سلبي مدمر ، اتخذ طابع الغزو والعدوان على الأبدان

http://www.al-maktabeh.com

والنفوس والعقول والممتلكات ، كما تمثل في الفراعنة والأشوريين والكلدانيين وغيرهم ، فجاءت الرسالات الموازية لهذا الطور ابتداء من ـ إبراهيم الكلداني عليه السلام ـ بمفهوم « الأمة » وهو مفهوم فكري ـ نفسي يستمد محتواه من روابط الفكر والعقيدة ، ويتخطى روابط الدم والأرض السابقة .

ولقد سبق اختيار إبراهيم عليه السلام للبدء بالإعداد (لإخراج الأمة المسلمة) ، اختباراً لقدرته على القيام بهذه المهمة ، ومدى استعداده لتقديم تكاليفها ومتطلباتها . وإلى هذا الاختبار يشير القرآن الكريم بقوله تعالى :

﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ، قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً ، قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ، قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة : ١٢٤) .

والكلمات التي ابتلي بها إبراهيم عليه السلام هي الحوادث التي اختبره الله بواسطتها وهي :

أولا : استعداده للتضحية بنفسه .

والثانية : استعداده للهجرة والتخلي عن روابط الأسرة والدم والوطن .

والثالثة : استعداده لمحاربة العقائد القائمة ورموز الثقافة المعاصرة المتخلفة .

الرابعة : استعداده للتضحية بولده وأسرته .

وتشير الآيات القرآنية إلى أن إبراهيم عليه السلام اجتاز هذه الاختبارات بنجاح ، وأنه استحق رتبة الإمامة للناس ، وأنه سألها لذريته من بعده ، فجاءه الجواب بالموافقة مع الاشتراط إلى أن هذه الإمامة عهد ، لاينالـه الظالمون المقصرون من ذريته ، الذين لايقومون بتكاليفها ويفشلون باختباراتها .

ثم مضى إبراهيم مصحوبا بأبنائه وأسرته في التمهيد لإخراج « الأمة المسلمة » ، فابتدأ بتحديد موطنها ومؤسساتها ، حيث اختار لها موطناً منطقة وسطاً ، تقع في ملتقى المواصلات العالمية وتفاعل الحضارات ، وهي منطقة تمتد من بلاد الشام عبر دلتا مصر والحجاز ، كذلك أقام مؤسستين تربويتين . . الأولى : للتربية والتزكية : وهي الكعبة والمسجد الحرام ، والثانية : للدعوة والنشر وهي : المسجد الأقصى ، ثم انقسمت الأسرة إلى جوار المسجدين ليقوم كل فريق بالإشراف على المهمة الموكلة إليه في منطقته ، وإعداد الأجواء لفكرة « الأمة » الجديدة . وإلى هذا الإعداد الإبراهيمي كانت الإشارة القرآنية التالية :

﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ، يَابَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (البقرة : ١٣٢) .

ثم كانت الانطلاقة الأولى لإخراج « أمة الرسالة » ، برسالة موسى التي جرى التمهيد لها برحيل يوسف وأسرة يعقوب إلى مصر ، وإشاعة جو من الثقافة الملائمة للأمة ، التي يراد إخراجها . وكان الخروج ـ أو الهجرة ـ بالمؤمنين بالرسالة الجديدة ، مروراً بشمال منطقة المسجد الحرام ، والتوجه إلى منطقة المسجد الأقصى ، لتطهير أرض « أمة الرسالة » التي رسم حدودها إبراهيم ، ولبدء الدعوة والنشر فيها .

وكانت جماعة المهاجرين هذه تحمل في تشكيلها صفة العالمية وتعدد الأجناس . وليس صحيحاً أنها اقتصرت على جنس واحد هو سلالة إسرائيل الدموية . فالقرآن يشير إلى أن أتباع موسى كان فيهم ﴿ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ﴾ وأنه قال في اجتماع يرأسه فرعون : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ !؟ . . وأن فرعون ردّ على هذا الرجل : ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ (غافر : ٢٨ - ٢٩) .

ويروي القرآن كذلك قصة السحرة ـ أو الإعلاميين عند فرعون ـ الذين ـ حين رأوا الآيات البينات ـ تحدوا فرعون حين هددهم بالصلب وتقطيع الأعضاء وقالوا له : ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ . (طه : ٧٢) .

ويذكر القرآن أيضاً أن دعوة موسى دخلت دوائر القصر الفرعوني ، حتى ضمت زوجة فرعون ، التي ضحت بنعيم القصر ، ودعت الله أن يعوضها قصراً بدله في الجنة .

وفي المقابل يروي القرآن الكريم أن عصابة فرعون ، التي عارضت دعوة موسى ، قد ضمت في قيادتها مترفاً عاتياً من قوم موسىٰ ، ومن سلالة إسرائيل الدموية هو قارون الذي وقف مع فرعون وهامان صفاً واحداً : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ . إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ (غافر : ٢٣ ـ ٢٤) . ويضيف القرآن تفاصيل دقيقة عن قارون هذا فيقول : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ ، وأنه كان لديه ﴿ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِي ٱلْقُوَّةِ ﴾ ، وإن قومه قالوا له حين أظهر البطر والطغيان : ﴿ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ . وَٱبْتَغِ فِيمَآ آتَاكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ . فرد عليهم بصفاقة وصلف : ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ ﴾ أي خبرة بأعمال التجارة والاستثمار ، وأنه استمر في طغيانه حتى نزل به عقاب الله وخسفه ، فدمرت قصوره وهلكت نفسه . (القصص : ٧٦ - ٨٢) .

وإذا كان القرآن يسمي الخارجين مع موسى : بني إسرائيل ، فلأن المدلول القرآني لـ « بنو » و « آل » تعني أتباع المعتقد ، لا سلالة الدم ، كما ذكر ذلك الطبري في تفسيره

نقلا عن الصحابة والتابعين الذين قالوا : إن آل الرجل هم أتباعه ، وقومه هم من على دينه . ونقل الطبري عن ابن عباس أنه قال في الآية : هم المؤمنون من آل إبراهيم وآل عمران وآل ياسين وآل محمد . يقول الله عز وجل ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾[1] (آل عمران : ٦٨) .

ولكن آثار البيئة التي نشأ فيها أتباع موسى ـ بيئة الثقافة الفرعونية ـ فعلت فعلها في هذه الانطلاقة الأولى لأمة الرسالة ، ومن هذه الآثار أن أتباع موسى حين كانوا في طريقهم لأرض أمة الرسالة ، تأثروا بالتراث الديني الفرعوني ، الذي يقوم على عبادة العجل (أبيس)[2] . كذلك تأثروا بأخلاق أهل الزراعة ، فحنوا إلى الراحة ، وإلى تقاليد الطعام المصري ، من البقل والقثاء والبصل والثوم والعدس . وظهرت فيهم أيضاً آثار بيئة الاستبداد الفرعوني ، وماتفرزه في أخلاق المحكومين من ضعف الإرادة ، ونكوص عن التضحية ، وضجر من المسؤولية .

ولكن أخطر هذه الآثار التي ظلوا يعانون منها حتى الوقت الحاضر هي تأثرهم بـ « العنصرية » الفرعونية ، وتطوير « عنصرية » خاصة بهم ، وقفت حائلا بينهم وبين الخروج إلى روابط أخوة الرسالة ، التي يتقضيها الطور الجديد ، ثم أبقتهم حبيسي روابط الدم ، التي تعود إلى الأطوار الماضية ، بعد أن طلوها بطلاء ديني ، تحت اسم جديد هو « شعب الله المختار » . ولقد نتج عن ذلك إغلاق باب الانتماء إلى الأمة الجديدة أمام غير ذرياتهم ، وتعطيل وظيفة المؤسسات التربوية في الأرض المباركة .

ثم جاء عيسى عليه السلام ، لإصلاح ما أصاب نواة الأمة الوليدة ، ولإخراجها من مفهوم « القوم People » إلى مفهوم « عالمية أمة الرسالة » ، فاستخلص نفراً من الحواريين الذين تخلوا عن مفهوم « شعب الله المختار » ومضوا في الدعوة إلى ـ العالمية ـ بشكل أفراد لابشكل « أمة » . أما بقية الجماعات الإسرائيلية ، فقد ظلت حبيسة الأغلال والآصار الاجتماعية والفكرية ، التي ورثتها عن بيئة الفراعنة ، وطورها الأحبار الإسرائيليون بعد أن ألبسوها لباساً توراتياً . ولذلك ناصبت دعوة عيسى عليه السلام العداء ، وتسببوا في مزيد من تمزيق « الأمة » الوليدة ، وانقسامها إلى قسمين رئيسين أطلقوا عليهما اسم « اليهود » ، واسم « النصارى » .

---

(١) الطبري ، التفسير ، حـ ٢ ، ص ٢٣٤ .

(٢) د . أحمد فخري ، مصر الفرعونية ، ط ٣ (القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧١) ، ص ٤٣٣ .

ثم كانت الانطلاقة العملية الثانية التي قادها محمد صلى الله عليه وسلم في الفرع الثاني من أسرة إبراهيم - فرع إسماعيل - ، والمقيمة في منطقة المسجد الحرام ، فبلورت مفهوم « الأمة » وأصبح الشعار المميز لرسالتها ، ولما يزل مصطلحاً متميزاً ، لايقابله في اللغات الأخرى مصطلح موازٍ . كذلك أصبح اسم « الأمة » مصدراً اشتقت منه أسماء مؤسسات الرسالة الجديدة ، والعاملين فيها ، والممارسات الجارية مثل : « الإمامة » و « الإمام » للصلاة أو الحكم ، و « آمّين البيت الحرام » أي الحج . و « آمين » أي مقتدين . لذلك كانت ترجمة هذا المصطلح تشويهاً لمحتواه ، ومن الواجب أن يبقى كما هو في أصله العربي في أية ترجمة كانت .

ولقد كان جوهر هذه الانطلاقة الجديدة تصحيح الاعوجاج الذي لحق بالمنهج الذي مهد له إبراهيم وبدأه موسى وعيسى ، ثم استئناف المسيرة المستقيمة لهذا المنهج ، نحو غاياته العليا . ولذلك ركزت توجيهات الرسالة الجديدة على مايلي :

١ - إصلاح ما انحرف من منهاج إبراهيم عليه السلام ، وذلك بدعوة فرع ذرية إسماعيل من قريش وفروعها إلى التخلص من طابع « أمة السدنة » ونوازع التكسب بالمقدسات ، وما أدخلته حمية العصبيات القبلية من مظاهر الشرك والوثنية . ثم دعوة فرع ذرية إسحق من اليهود والنصارى للتخلص من طابع « شعب الله المختار » ، وما رافقه من تشويهات لأصول العقيدة والرسالة ، لصالح المترفين ، وأرباب الجاه والسلطان والكهانة ، ثم دعوة الفريقين للاجتماع في صفوف « أمة الرسالة » الجديدة ، لاستئناف المهمة الأساسية ، مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله بين الناس كافة .

٢ - القضاء على الانشقاقات التي حدثت في ذرية إبراهيم ، وتسببت في تقسيم نواة « الأمة المسلمة » إلى يهود ونصارى ، وماتلا هذا الانشقاق من انشقاقات أخرى تتنافى مع الغاية الكبرى التي بدأها - إبراهيم - لإخراج « أمة الرسالة » التي تعمل على جمع البشرية كلها على منهاج واحد ، في الفكر والاجتماع ، فتتوثق روابطها ، ويرقى نوعها ، وتعود إلى سابق عهدها : أمة واحدة ، وربّاً واحداً .

ولتحقيق هذا الهدف تكررت الدعوة في القرآن إلى أهل الكتاب للإقبال إلى - كلمة سواء - أي منهج موحد مستقيم أساسه « ملة إبراهيم الحنيف » .

٣ - اتخاذ الخطوات العملية التي تسهل هذه الوحدة المنشودة ، بين الانشقاقات التي أصابت مفهوم الرسالة ، بعد إبراهيم عليه السلام . ومن أجل هذه الوحدة كانت قبلة الصلاة نحو أول بيت بناه إبراهيم ، وكان الحج إليه ، ليكون مؤسسة للتربية العالمية ، وكانت حادثة الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، لإعادة الربط بين رسالة المسجدين ،

http://www.al-maktabeh.com

وتكامل دورهما في التربية والدعوة والتعليم .

ولترسيخ هذه المعاني ، كان الحديث عن تجربة قوم موسى في منطقة المسجد الأقصى ـ في مطلع سورة الإسراء ـ ليكون هذا الحديث تحذيراً لـ « أمة الرسالة » الجديدة لئلا تقترف ما اقترفته سابقتها من ـ أمة موسى ـ التي غفلت عن الوظيفة الأساسية للمقيمين حول المسجد الأقصى ، وانحرفت لاستغلال بركات المنطقة الجغرافية والطبيعية في الترف والشهوات والمفاسد والصراعات ، وبذلك استحقت أن يبعث الله عليها عباداً أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار ، ودمروا مؤسسات اللهو الدنيوي ، التي ألهتهم عن وظيفة الدعوة وتبليغ الرسالة . وهذا ما فهمه أبو بكر الصديق حين حذر جيوش الفتح الإسلامي التي وجهها إلى منطقة ماحول الأقصى من الانحراف عن أهداف الرسالة الإسلامية فقال :

« إنكم تقدمون الشام وهي أرض شبيعة ، وإن الله ممكنكم حتى تتخذوا فيها مساجد فلا يعلم أنكم إنما تأتونها تلهيا ، وإياكم والأشر »[1] .

٤ ـ تقديم التفاصيل الكاملة لما يجب أن يكون عليه تنظيم « أمة الرسالة » ومؤسساتها وقيمها السياسية والاجتماعية والاقتصادية ونشاطاتها المختلفة في الداخل ثم تنظيم علاقاتها بالجماعات البشرية في الخارج .

وكان التحدي الأكبر الذي واجهه الرسول صلى الله عليه وسلم بعد هجرته إلى المدينة ، وشروعه في بناء أمة عالمية ، يتعايش فيها مختلف الأجناس والأعراق ، هو ـ قيم العصبية القبلية الجاهلية ـ ولقد اتخذت جهوده لمجابهة هذا التحدي مظاهر عدة منها :

المظهر الأول : هو تزكية أعضاء الأمة المسلمة الجديدة من قيم العصبية القبلية باعتبارها قيما جاهلية نتنة بالية لاتصلح لهم بحال ، وتنظيم علاقاتهم طبقاً لقيم التقوى الملائمة لطور العالمية الجديد .

والثاني : هو التحذير من الردة إلى قيم العصبية الجاهلية وإدراج هذه الردة في قائمة الكبائر المخلِّدة في النار[2] .

والثالث : التنبيه إلى دور قيم العصبية في فتن المستقبل ، وماستجره على الأمة المسلمة من كوارث ومذابح ودمار ، وهو ماتقدم تفصيلاته الأحاديث النبوية الواردة تحت ـ كتاب الفتن ـ في مصنفات الحديث المختلفة .

---

(١) عبد الله بن المبارك المروزي ؛ كتاب الزهد والرقائق ، تحقيق عبد الرحمن الأعظمي ، (بيروت : مؤسسة الرسالة ، بلا تاريخ) ص ١٤١ .

(٢) صحيح البخاري ، باب الفتن . صحيح مسلم ، باب الإمارة .
مسند أحمد ، حـ ١ ، ص ٤٠٩ ، ٤٣٠ .
سنن النسائي ؛ كتاب البيعة ، وكتاب الزينة .

الفصل الثالث

أهمية إخراج الأمة المسلمة

الإطار العام الذي يحدد أهمية إخراج الأمة المسلمة ويحدد مكوناتها هو قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَّنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَالَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا ، وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَّنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ . وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (الأنفال ـ ٧٢ : ٧٥) .

هكذا يبدو واضحاً من الآية الأولى (رقم ٧٢) أن التربية الإسلامية لاتتوقف عند إعداد « الأفراد المؤمنين » وإنما تتخذ من هذا الإعداد وسيلة لهدف آخر هو إخراج « أمة المؤمنين » التي يتلاحم أفرادها عبر شبكة من الروابط الاجتماعية التي تندرج تحت أسماء : الهجرة ، والجهاد ، والإيواء ، والنصرة ، والتي تكون محصلتها النهائية هي ـ الولاية ـ أي أن يتولى كل عضو رعاية شؤون الأعضاء الآخرين . أما الأفراد المؤمنون الذين يبقون خارج ـ مهجر ـ الأمة المؤمنة ، فهؤلاء لا فاعلية لإيمانهم ، ولا روابط ، ولا ولاية بينهم ، وبين « أمة المؤمنين » .

ومع أن الآيات المذكورة أعلاه تتضمن ـ كما قلنا ـ أهمية (إخراج الأمة الإسلامية) ، وتتضمن المكونات الرئيسة لهذه الأمة ، إلا أن الحديث في هذا الفصل سوف يقتصر على أهمية (إخراج الأمة المسلمة) بينما يؤجل الحديث عن مكوناتها إلى الباب الذي يليه . أما مظاهر هذه الأهمية فهي كما يلي :

الأهمية الأولى : هي ماتنبه إليه الآية الثانية ـ آية ٧٣ من السورة ـ حول الأضرار التي تنجم عن عدم (إخراج الأمة المسلمة) ، وتتمثل هذه الأضرار في ضررين رئيسين هما :

الضرر الأول : هيمنة ـ قيم الكفر ـ في الأرض ، وإخراج « أمة الكفر » ، حيث لايقتصر الكافرون على ممارسة كفرهم كأفراد متناثرين وإنما يتجمعون في أمة يوالي بعضها بعضاً . فإذا لم تقم « أمة الإيمان » فسوف تتولى « أمة الكفر » القيادة في الأرض ، وتهيمن على مقاليد التوجيه والتخطيط والتنفيذ في كل مايتعلق بشؤون السلم والحرب سواء .

والضرر الثاني : إن انتقال القيادة العالمية إلى « أمة الكافرين » سوف يؤدي إلى استغلال خزائن الله من المقدرات البشرية والمادية استغلالاً سيئاً ثم يكون من نتائج هذا الاستغلال السيىء ملء الأرض بالفتن والفساد الكبير : فتن في ميادين السياسة ، وفساد في ميادين الاجتماع ، وتشيع الصراعات والحروب الداخلية أو الإقليمية أو العالمية ، وينتشر الفساد الكبير ، الذي يتمثل في الانهيارات الأخلاقية ، وشيوع التحلل والفواحش ، وانتشار الفلسفات والأفكار الهدامة وغير ذلك .

والأهمية الثانية : لقيام « أمة المؤمنين » ، هي ماتوجه إليه الآية الثالثة ـ آية ٧٤ من السورة ـ حول الفوائد والمنافع التي تترتب على إخراج « الأمة المسلمة » ، وهي ثلاث فوائد :

الفائدة الأولى : تجسيد الإيمان في « جنسية » مميزة و « هوية » خاصة ، وفي حضارة إسلامية ، لها ثقافاتها ونظمها الاجتماعية ، وتطبيقاتها في ميادين السلوك والقيم ، والعادات والتقاليد ، الممتدة عبر الزمان والمكان . ولذلك وصفت الآية بأن أفراد « الأمة المسلمة » المجاهدين المتآوين المتناصرين في مهجر واحد « هم المؤمنون حقاً » . أما الأقليات الإسلامية المبعثرة هنا وهناك فهذه لاتدخل في وصف « المؤمنون حقاً » لأنها لاتتمكن من أن تعيش إيمانها في « جنسية متميزة » وتطبيقات اجتماعية لها ثقافتها ولغتها ونظمها الاجتماعية والاقتصادية والتربوية ، ولها قيمها وعاداتها وتقاليدها وأخلاقها . وبالتالي لاتفرز حضارة متميزة ، تنحدر عبر التاريخ ، وتشد إليها الرحال ، ليتعلم الناس في مؤسساتها التربوية والإدارية كيفية الحفاظ على النوع البشري ورقيه . وإنما تذهب جهود هذه الأقليات هدرًا في روافد « أمة غير مسلمة » ثم تذوب وتختفي بعد جيل أو جيلين . ولذلك لن يكون قبول حياة « الأقلية » إلا ضرورة مؤقتة ، حتى ينجح العمل الإسلامي الصائب في إيجاد مهجر تقوم فيه « أمة المؤمنين » ، فإذا قامت صارت حياة الأقلية رضىً بالاستضعاف في الأرض ، وظلماً للأنفس ، ووضعها في بيئات مرهقة للإيمان ، تهدد بذهابه والانتهاء بأصحابه إلى عقوبة الله .

ولذلك حدد القسم الثاني من الآية الأولى العلاقة بين « الأمة المسلمة » و « الأقليات المسلمة » المتناثرة خارج ـ دار الهجرة ـ بأن أفرغ هذه العلاقة من ـ الولاء والولاية ـ أي عدم

المسؤولية عن الأقليات ، إلا ما كان من نصرتها إذا تعرضت لاضطهاد ديني ، من قبل أمم لاتربطها بالأمة المسلمة مواثيق ولا معاهدات . وإن الباحث ليلمح في هذه العلاقة السلبية بين « الأمة المسلمة » و « الأقليات المسلمة » خلق نوع من الأوضاع القلقة غير المريحة التي تجبر الأقليات المذكورة على الهجرة إلى مهجر « أمة المؤمنين » .

والفائدة الثانية : هي الاستقرار الاجتماعي والاستقرار السياسي المشار إليهما بـ « لهم مغفرة » . فالمغفرة هي تجنيب الأمة المسلمة عقوبات أخطاء الأمم . وعقوبات الأمم في القرآن الكريم متنوعة ، منها ثوران الأحقاد الداخلية ، أو إشاعة الفتن والحروب في الداخل ، أو تسليط الغزاة من خارج :

ـ ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ، انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ (الأنعام : ٦٥) .

ـ ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَارِ ﴾ (الإسراء : ٥) .

والفائدة الثالثة : هي الازدهار الاقتصادي المصحوب بالتماسك الاجتماعي ، والعلاقات الكريمة بين طبقات الأمة وأفرادها ، والمحافظة على كرامة الأمة وعلى قيمها وأخلاقها في الداخل ، وسمعتها التاريخية في الخارج . فـ « الأمة المؤمنة » ، رزقها « رزق كريم » يحفظ كرامات الأفراد رجالاً ونساءً ، فلا تضطرهم لقمة العيش إلى التفريط بكراماتهم وحرماتهم ولا إلى تجارة الفواحش والمنكر . وهو « رزق كريم » يحفظ كرامة الأمة التاريخية فلا يلطخ سمعتها ، ويصمها بعار الغزو والاستعمار والتسلط والاحتلال ، وهو يحفظ كرامتها الحضارية ، فلا يضطرها إلى ممارسة الفضائح ، ونقض المواثيق ، والتآمر على الأصدقاء ، وإيثار المنافع المادية على علاقات الرقي الحضاري . وهو « رزق كريم » يحفظ كرامة الأمة الاجتماعية ، فلا تحتاج إلى تقدمة أعراضها ونسائها كراقصات ومغنيات وغوانٍ في أماكن اللهو والفاحشة لتجلب السائحين وطالبي المتع المحرمة الضارة ! وأخيراً هو « رزق كريم » يحفظ للأمة المسلمة كرامتها عند الله ، ويمنحها كرامة الدرجات العلىٰ في الآخرة ، سواء في المنزلة أو المأوى .

والأهمية الثالثة لقيام « أمة المؤمنين » : هي ماتوجه إليه الآية الرابعة ـ آية ٧٥ من السورة ـ من خلال الإشارة إلى أن ـ الأمة المسلمة ـ هي مجتمع مفتوح غير مغلق . فباب الهجرة إليه مفتوح ، والانضمام إليه ، له شرط واحد فقط هو الإيمان والمشاركة في حمل الرسالة ، مع مراعاة روابط الأرحام بين المهاجرين في جميع الأزمان ، حتى لايؤدي اختلاط المهاجرين بدون ضوابط ، إلى التفكك الاجتماعي . فالله عليم بقوانين الاجتماع السليم

وغير السليم وبالنتائج الحسنة أو السيئة .

وبسبب هذه الأهمية (لإخراج الأمة المسلمة) أدرك رجالات الأمة الإسلامية الأوائل أهمية إخراج « الأمة المسلمة » ومتطلباتها العضوية فيها . من ذلك ماقاله عمر بن الخطاب حين قرأ قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ قال :

« يأأيها الناس من سره أن يكون من تلكم الأمة فليؤد شرط الله فيها »[1] .

---

(١) الطبري ، التفسير ، جـ ٤ ، ص ٤٣ - ٤٤ .

الباب الثاني

مكونات الأمة المسلمة

والإطار العام الذي يحدد المكونات الرئيسة لنموذج الأمة المسلمة هو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ (الأنفال : ٧٢) .

هذه هي مكونات الأمة المسلمة : أفراد مؤمنون ، وهجرة ومهجر ، وجهاد ورسالة ، وإيواء ، ونصرة ، وولاية[1] .

ويمكن أن نمثل هذه المكونات بالمعادلة الرياضية التالية :

أفراد مؤمنون + هجرة وتجمع في مهجر واحد + رسالة وجهاد + إيواء + نصرة = أمة مسلمة ذات ولاء متبادل .

الفصل الرابع

العنصر الأول : الأفراد المؤمنون

لا يهدف البحث هنا إلى استعراض ـ الأفراد المؤمنين ـ كفئة تحمل « معتقدات » معينة عن الخالق والمنشأ والحياة والمصير ، كما هو في مقررات العقيدة في المعاهد والكليات الشرعية . وإنما الهدف هو تقديم الأفراد المؤمنين كعنصر من عناصر الأمة المسلمة الملائمة للطور الحاضر : طور العالمية الذي جاءت الرسالة الإسلامية على أبوابه لتزود أهله بالقيم وشبكة العلاقات الاجتماعية ، التي تساعد على بقاء النوع البشري ورقيه .

---

(١) راجع تفاصيل هذه العناصر الخمسة في كتاب « مقومات الشخصية الإسلامية » سلسلة كتاب الأمة (قطر) رقم (٢٩) ـ للمؤلف .

http://www.al-maktabeh.com

وانطلاقاً من هذا الهدف يركز البحث على ثلاثة موضوعات : الأول : أهمية الأفراد المؤمنين كعنصر من عناصر الأمة . والثاني : أهمية « الهوية » و « الجنسية » و « الثقافة » الإيمانية في العالم المعاصر . والثالث : دور التربية في بلورة محتوى الثقافة الإيمانية وتنشئة إنسان التربية الإسلامية عليها .

أولاً ـ أهمية الأفراد المؤمنين كعنصر من عناصر الأمة :

تبدو أهمية ـ الأفراد المؤمنين ـ في أن هذا النوع من البشر هو الذي يحقق للأمة التوازن الاجتماعي ، والصحة النفسية . ذلك أن طبيعة الإنسان ـ كما يعرضها القرآن الكريم ويثبت ذلك ممارسات الإنسان على الأرض ـ تشير إلى أن تكوينه النفسي شبيه بتكوينه الجسدي ، أي يتكون من عناصر تتحد حسب نسب معينة ، وتفرز تركيبًا معينًا ، يمثل حالة الصحة فإذا اضطربت نسب هذا التركيب ارتفاعاً أو هبوطاً ، دخل حالة المرض . والحالات التي يمر بها التكوين النفسي للإنسان هي حالات : الوسطية ، والطغيان ، والهوان ، وتمثل الحالة الأولى مظهر الصحة الذي يضمن للإنسان السلام ، بينما تمثل الحالتان الثانية والثالثة مظهر المرض الذي يهدد سلامة الإنسان نفسه . وإلى هذه القابلية المرضية يشير قوله تعالى :

﴿ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً ﴾ (النساء : ٢٨) .

والإيمان بالله ـ بمفهومه الإسلامي ـ هو العامل الحاسم في تقرير حالات الصحة أو المرض المشار إليها ، إذ أن إحساسه بالمسؤولية أمام الله يبقيه في منزلة ـ الوسطية ـ فيمنعه من « الطغيان » وتجاوز الحدود والاعتداء على وجود الآخرين إذا كان في حالة القوة والغنى ، ويقيه من « الهوان » والسكوت على استباحة الطاغين لحرماته ، إذا كان في حالة الضعف والفقر .

فإذا غاب ـ الإيمان بالله ـ من وجود الإنسان ، تذبذب بين مرضي الطغيان والهوان ، وتراءى له ـ عند المرض الأول ـ أنه مستغنٍ بنفسه لاحاجة له لغيره ، وأنه قادر على الإمساك بسنن الوجود ، وأحداثه ، وضربه الفرح والفخر والبطر ، وادعى القدرة والعلم . أما في حالة ـ المرض الثاني ـ فإن الإنسان يصاب بالكفر واليأس والهبوط من المنزلة الإنسانية بين المخلوقات .

ولكن الإيمان بالله لايمد الإنسان بعافية « الوسطية » ويقيه من مرضي « الطغيان » و « الهوان » إلا إذا استمد محتواه من الاجتماع البشري ، وتجسدت تطبيقاته في قلب الاجتماع الإنساني . وأبرز هذه التطبيقات هي :

بلورة « هوية » الإنسان الحقيقية ،

ومنحه « جنسية » إيمانية واحدة .

وتزويده بـ « ثقافة » واحدة ذات مؤسسات واحدة .

أما عن بلورة « هوية » الإنسان الأصلية فإن ـ آيات الله في الكتاب ـ تمد العاملين في مجال التربية بإطار عام لهذه الهوية ، يبين أن الإنسان مفطور على الصلاح والخير . ولكن فطرته هذه رقيقة ضعيفة ، يضربها المرض ، فيفسد في الأرض ويسفك الدماء ، ولكن التربية الإيمانية تحصنه من قابليته المرض ومضاعفاته في الإفساد والشر .

ولقد عانى علم النفس الحديث كثيراً حتى استشرف هذه الحقيقة عن طبيعة الإنسان . وهو استشراف مازال في مراحل الحديث النظري ، ولما يأخذ طريقه إلى ميادين التطبيق العملي في التربية والسياسة والاجتماع والاقتصاد . ولقد قام ـ أبراهام ماسلو Abraham Maslow ـ رائد علم النفس الإنساني بأبحاث واسعة في ميدان البحث في الطبيعة الإنسانية ، وخلص إلى تعديلات كبيرة في معارف علم النفس عن الإنسان ، وانتهى إلى الإطار الذي يرسمه القرآن في هذا المجال . ومما قاله في هذا الشأن :

« إن غلطة فرويد Frued الكبيرة ، والتي نحاول تصحيحها الآن ، هي أنه أعتقد أن العقل الباطن مجرد شر غير مرغوب به . ولكن العقل الباطني يحمل معه أيضاً جذور الإبداع ومتع السعادة ، والخير ، وقواعد الأخلاق ، والقيم الإنسانية ، فنحن الآن نعلم أن هناك عقلاً باطنياً صحياً وسليماً ، مثلما هناك عقل باطني سيء وسقيم . وتقوم مدارس علم النفس الحديثة بدراسة هذا بطريقة كاملة ، كما أن المعالجين النفسيين بدأوا يضعون هذا المفهوم موضع التطبيق . . . »[1] .

ويحدد ـ ماسلو ـ الإطار الحديث الذي توصل إليه علم النفس عن الطبيعة الإنسانية في الخطوط العريضة التالية :

ـ في داخل كل فرد طبيعة بيولوجية أساسية هي إلى درجة معينة طبيعية وجوهرية وهي غير قابلة للتغير .

ـ كل طبيعة داخلية هي جزء متميز في كل فرد ، من ناحية ، ومن ناحية أخرى هي مشتركة في الجنس الإنساني كله .

ـ يمكن دراسة هذه الطبيعة علمياً واكتشافها والتعرف عليها .

ـ لاتبدو هذه الطبيعة الإنسانية شريرة بالأصل ، وإنما الحاجات الأساسية لها والعواطف الإنسانية الأساسية ، والطاقات الإنسانية الأساسية ، هي بالأصل محايدة وإيجابية وخيرة .

---

(1) Abraham Maslow, The Farther Reaches of Human Nature, P.167.

أما النزعة للتخريب « والسادية » والقسوة والحقد وأمثال ذلك ، فيبدو أنها ليست أساسية وإنما هي ردود فعل عنيفة ضد الإحباطات والفشل في تحقيق الحاجات الأساسية .

- بما أن هذه الطبيعة الإنسانية الداخلية محايدة وخيرة فمن الأفضل استخراجها وتشجيعها أكثر من كبتها والضغط عليها ، وإذا سمح لها أن توجه حياتنا فسوف نعيش أصحاء ومنتجين وسعداء .

- وإذا تعرض جوهر الإنسان هذا للضغط أو الرفض فسوف يعتريه المرض بطريقة واضحة أحياناً وبطرق ملتوية أحياناً أخرى ، وأحياناً في الحال ، وأحياناً فيما بعد .

- هذه الطبيعة الإنسانية ليست قوية وصلبة وليست معصومة من الخطأ وإنما هي ضعيفة ورقيقة ، ومن السهل أن تتغلب عليها العادة والضغط الثقافي والاتجاهات الخاطئة[1] .

ولقد أثبت تاريخ الإنسان على الأرض أن هذه الطبيعة الخيرة في الإنسان لا يستخرجها إلا الإيمان بالله ، وما يقتضيه هذا الإيمان من أعمال وتطبيقات .

وأما عن « الجنسية » فالقرآن واضح وصريح في اشتقاق جنسية الإنسان من « الأفكار » التي يدور في فلكها . فالذين يدورون في فلك - أفكار - الرسالة الإسلامية أسماهم « المؤمنين » ، والذين يكفرون - أي يحجبون ويخفون - أفكار الرسالة ويقفون عند « أفكار » خاطئة تقتصر على معالجة الرغبات العاجلة في محطة - الحياة الدنيا - يطلق عليهم اسم « الكافرين » ، والذين ينفقون « الأفكار » من أجل تعزيز ولاءاتهم لـ « الأشخاص » و « الأشياء » يطلق عليهم اسم « المنافقين » .

والنموذج الأول - نموذج المؤمنين - هو الذي تشتق « جنسية » الإنسان المسلم منه وتتطلع التربية الإسلامية إلى تنشئته . ويشدد القرآن الكريم على هذه الجنسية ويربط بينها وبين الغاية من (إخراج الأمة المسلمة) والوظيفة التي أخرجت من أجلها . من ذلك قوله تعالى :

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَاجَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ، مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ، وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ (الحج : ٧٨) .

ويلحق بـ « جنسية » الإنسان المؤمن « طبقته » داخل الأمة المسلمة . وتتقرر هذه الطبقة طبقاً لدرجة - اتقائه - من الإصابة بمرض الطغيان أو الهوان . وإلى هذا المقياس يشير

---

(1) Abraham Maslow, Foward a Psychology of Being, PP. 3-4.

قوله تعالى :

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (الحجرات : ١٣) .

وبهذا المقياس تحددت في مجتمع النبوة طبقات الأمة المسلمة ، فظهرت طبقة « المهاجرين » و « طبقة الأنصار » و « طبقة الطلقاء » و « طبقة المنافقين » . وهذا مقياس لا اعتبار فيه لعامل القوة الذي يدور في فلك « الأشخاص » ولا لعامل الثروة الذي يدور في فلك « الأشياء » وإنما يقوم على أساس اتقاء مرضي الطغيان والهوان الذي يدور في فلك « أفكار » الرسالة الإسلامية .

ولقد أثبت تاريخ الحضارة الإسلامية أنه طالما ظلت « جنسية » الإنسان المسلم تستمد من « هوسماكم المسلمين » فإن الأمة المسلمة ظلت تعيش لحمل الرسالة إلى الناس في الخارج ، وظلت « الطبقة العليا » مفتوحة لكل من « اتقى » مرضي الطغيان والهوان مهما كان أصله ولونه وغناه أو فقره . وحين تحولت لتشتق « الجنسية » من الولاء لـ « أشخاص » الحاكمين و « أشيائهم » و « أقاليمهم » توقفت عن حمل الرسالة واشتغلت بغيرها من أشياء الدنيا ومالكي هذه الأشياء وظهر فيها الأشراف والموالي والسادة والمستخدمين والمماليك .

وأما عن « ثقافة » الإنسان المؤمن فهي تعني - هنا - : القيم ونظم الحياة ، والإدارة ، والعادات والتقاليد ، والأخلاق ، والفنون التي تجسد الإيمان في تطبيقات عملية تميز حياة المؤمنين عما سواها ، وتحتل التفصيلات المتعلقة بهذه الثقافة جزءًا كبيراً من القرآن الكريم . من ذلك قوله تعالى :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَـنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً . وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَماً . وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً . وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً . إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَراً وَمُقَاماً . وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً . وَالَّذِينَ لاَيَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلاَيَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَيَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً . يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً . إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً . وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً . وَالَّذِينَ لاَيَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً . وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً . وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً . أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاَماً . خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَراً وَمُقَاماً ﴾ (الفرقان : ٦٣ - ٧٦) .

والحديث النبوي وتطبيقات السنة ، يحددان للثقافة والقيم الإسلامية قوائم سلوكية تصل

http://www.al-maktabeh.com

إلى بضع وستين شعبة ، أو بضع وسبعين ، تتكون منها مجتمعة « ثقافة » إيمانية فعالة توجه النشاطات والممارسات ، وتقيم شبكة علاقات اجتماعية ، تبلغ بالأمة المسلمة مرتبة الجسد الواحد الذي إذا اشتكى منه عضو تداعىٰ له سائر الجسد بالسهر والحمىٰ[1] . كذلك قام لهذه « الثقافة » الإيمانية حدود مميزة منعتها من التداخل مع « الجنسيات » و « الثقافات » المستمدة من الانتماءات العرقية والإقليمية والمصالح المادية . والتوجيهات القرآنية في هذا الشأن كثيرة صارمة منها قوله تعالىٰ :

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ ، وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ، قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا ، وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا ، أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ ، فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، وَاللَّهُ لَايَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (التوبة : ٢٣ - ٢٤) .

ثانيا ـ أهمية « الهوية » و « الجنسية » و « الثقافة » الإيمانية في العالم المعاصر :

في الماضي ، أدت نظريات « هوية » الإنسان مثل « الدارونية الاجتماعية » و « التقسيمات العرقية » و « الأديان القائلة بطبقية الخلق » إلى ظهور سياسات الصراع والبقاء للأقوى ، والغزو ، والاستعمار ، وظهور ممارسات التسلط الطبقي ، وعدم المساواة ، والرق ، والاستئثار بمصادر العيش . وجميع هذه التطبيقات مازالت تهيمن على السلوك البشري والعلاقات بين الأفراد والجماعات والشعوب وتملأ حياتهم بالقلق والاضطراب والشقاء والمآسي .

كذلك أدت صعوبة المواصلات وقصر مسافات السفر ، وضيق دائرة الحركة ـ في الماضي ـ إلى ظهور الحدود الإقليمية والقومية . فكان الإنسان لايتحرك في الغالب إلا داخل حدود الإقليم ، وكان الفرد يجد في المجتمع القائم على انتماءات الدم والعصبيات القبلية والإقليمية والقومية مايشبع حاجته في الانتماء . ولذلك كانت هذه الانتماءات هي المصادر الوحيدة لتحديد « الجنسية » وبلورة « الثقافة » . فكانت الإقامة الدائمة والتواصل الدائم يوفران نوعاً من القيم المحلية التي يمكن أن نسميها « قيم المصانعة » ، وهي قيم تقوم على خجل الناس بعضهم من بعض ، ومراعاة شؤون بعضهم بعضاً ، والتردد عن الإساءة لبعضهم بعضاً ، فإذا اشتدت الخلافات وانفجرت الخصومات كان للقيم المذكورة دورها في

---

(١) للاطلاع على شعب الإيمان راجع كتاب ـ شعب الإيمان ـ للبيهقي . أو كتاب ـ الإيمان ـ لابن مندة .

إصلاح العلاقات وترميمها . وهكذا تطور نوع من الثقافة والعادات والتقاليد التي ساهم في انسجام الأذواق محليا ، وبذر بذور الخلاف عالميا .

ثم جاء العصر الحاضر ـ عصر التكنولوجيا وقرية الكرة الأرضية ـ فأفرز ظاهرتين فريدتين . . الأولى : تزويد الإنسان بأدوات فاعلة يمكن استعمالها للدفاع عن الإنسان وبناء حياته ، أو لفناء الإنسان وتدمير مقومات حياته . والإيمان بالله هو العامل الحاسم في أحد الاستعمالين . والظاهرة الثانية : هي انهيار الحدود بين الأقطار والقوميات والثقافات ، وتفتت القبائل والعائلات ، ووهنت روابط الدم والإقليم إلا في أماكن معزولة ومواقف هشة متسارعة الانهيار والانحسار ، ودخلت المجتمعات البشرية في طور جديد تتميز الحياة فيه بالإقامة الموقوتة والجوار الموقوت ، وانقلب التجانس الثقافي إلى « خلطة » مضطربة من الثقافات والتقاليد والعادات والقيم في المدينة الواحدة ، وأحياناً في البناية الواحدة ، مما ساعد على تمزق الروابط القائمة ، وتنافر الأذواق والتوتر في العلاقات في المواقف المختلفة ، ووجد الإنسان المعاصر نفسه يعيش في تجمعات وأكوام بشرية مجردة من الروابط والانتماءات ، إلا ماكان من روابط المصالح المتذبذبة والشهوات الآنية الموقوتة .

ولقد أفرزت هذه التغيرات المضطربة أزمات ثلاث . . الأولى : عدم ملاءمة « الهوية » الشائعة عن الإنسان . والثانية : عدم ملاءمة « الجنسية » المحلية التقليدية . والثالثة : انهيار نظم « الثقافة والقيم » المحلية القديمة .

أما عن الأزمة الأولى : فإن « الهوية » التي طرحتها ـ ومازالت تطرحها ـ الداروينية الاجتماعية للإنسان والقائمة على أن البقاء للأقوى ، قد بررت عمليات القتل والجريمة سواء بين الأفراد والطبقات داخل كل مجتمع ، أو بين المجتمعات والمجتمعات الأخرى . ولاتقتصر مضاعفات هذه « الهوية » على شعوب العالم الثالث المتخلف تكنولوجيا ، وإنما تشمل العالم المتقدم تكنولوجيا ، ويتفوق في أدوات القتل والدمار . فالأفراد « الأمريكيون والأوربيون » الذين يحاربون « الآسيويين والأفارقة » في جيوش تستولي على مصادر الثروة والطاقة ، هم أنفسهم الذين يعودون إلى بلادهم ليقتل بعضهم بعضاً من أجل مافي جيوبهم من جنيهات ودولارات .

وأما عن الأزمة الثانية : فقد تحولت ـ الجنسية ـ المحلية إلى قيد خانق لحرية الفرد في التعبير والاختيار في الداخل ، وحريته في التنقل والعمل والإقامة في الخارج .

ففي الداخل قامت علاقات « الجنسيات » المستمدة من العصبيات العائلية والإقليمية والقومية على أساس هيمنة عصبية معينة على بقية العصبيات ، والاستئثار بالجاه والتملك ، مما تسبب في ظهور علاقات الريبة ، وعدم الثقة ، والخوف ، والتآمر ، وقيام المؤسسات

البوليسية ، ودوائر التجسس ، والمخابرات ، لتقصي نشاطات خصوم العصبيات الحاكمة ، ومجابهتها .

وفي الخارج اشتعلت الصراعات الدولية ، وقامت علاقات الدول على المخادعة والتجسس والتآمر ، ثم الانتهاء إلى الصراع المكشوف ، والانفجارات العسكرية المدمرة .

وفي المجال الاقتصادي أشاعت « الجنسيات » المستمدة من العصبيات العائلية والإقليمية والقومية ، الاحتكار والترف في ناحية ، والحرمان والفقر في ناحية أخرى . وتسببت بظواهر الاستعمار ، والعدوان ، ونهب ثروات الشعوب ، في الوقت الذي تضع الدول المستعمِرة ـ بكسر الميم ـ الحواجز والعراقيل ، وقوانين السفر والإقامة ، التي تمنع أصحاب « الجنسيات » المستعمَرة ـ بفتح الميم ـ والمغايرة ، من المساواة في فرص الإقامة ، ومصادر العيش الكريم .

لهذا كله صارت المجتمعات المعاصرة بحاجة إلى مفهوم جديد في « الجنسية » ، مفهوم لاتتحكم به عصبيات عرقية أو إقليمية أو مصالح مادية . ومن الإنصاف أن نقول : إن شعوب أوربا وأمريكا قد نزعت عن « الجنسيات » فيها قيود السفر والعمل والإقامة وأحالتها إلى مجرد أدوات لـ « التعارف » ، تماماً كما يوجه إليه قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ (الحجرات : ١٣) ، بينما يستمر « فقهاء السلطة » يسهمون في تعزيز سجون « الجنسيات » العصبية وقيودها ومضاعفاتها التي أدت إلى وفاة الأمة الإسلامية ومزقتها في الأرض كل ممزق .

وأما عن الأزمة الثالثة : أي انهيار نظم « الثقافة والقيم » المحلية القديمة فقد صار الإنسان المعاصر يعاني مما يسميه علماء الاجتماع وعلماء النفس : الإحباط وخيبة الأمل Frustration، والإحساس بالاغتراب Alienation، والشعور بالضعف Powerlessness، والمعاناة من عدم الانسجام ومظاهر الشذوذ في الحياة والسلوك Normlessness .

ولقد حل محل القيم المحلية المنهارة قيم جديدة يمكن أن نسميها ـ قيم المصلحة ـ وهي قيم تشبه مناديل الورق ، التي يستعملها الإنسان للحظات أو دقائق ثم يلقي بها في سلة النفايات وبراميل القاذورات . لذلك أصبح المجتمع المعاصر يعاني من مظاهر التفكك والانحلال واللامبالاة وانهيار الصداقات والعلاقات ، دون أن يحسب الناس لبعضهم بعضاً كبير حساب .

لهذا كله صارت المجتمعات المعاصرة بحاجة إلى مفهوم جديد في « الثقافة والقيم » التي توفر للإنسان حاجاته في الانتماء والتقدير أينما حل وأقام ، وتوفر له الأمن والاستقرار أينما سافر وعمل .

ولكن الحلول التي يطرحها المختصون لأزمة « الثقافة والقيم » مازالت حلولاً متخلفة قاصرة ، بل إن بعضها ليزيد الطين بلّات ، والويل ويلات . ومثال ذلك مايقترحه ـ ألفن توفلر Alvin Toffler أحد مشاهير المفكرين المستقبليين Futurists في كتبه المختلفة ، مثل كتاب : ـ صدمة المستقبل Future Shock ـ الذي طبع في سنة واحدة تسع طبعات بلغ عددها ٢٧ مليون نسخة ، كما ترجم إلى عدة لغات ومازال يطبع ويترجم بنفس الكثافة والانتشار .

لقد عالج ـ توفلر ـ التغيرات الكاسحة التي تحدثها التكنولوجيا في شبكة العلاقات الاجتماعية على المستويات المحلية والعالمية ، واجتهد أن يضع شبكة علاقات جديدة لمجتمعات المستقبل . ولقد كان في تشخيصه دقيقاً عميق الحس ؛ فهو مثلاً يذكر أن التكنولوجيا الحديثة حولت المجتمعات الحديثة إلى من أسماهم ـ البدو الجدد The New Nomads ـ الذين يركبون الطائرات بدل الجمال ، وينزلون في المطارات بدل المضارب ، وينامون في الفنادق بدل الخيام ، ويحملون الحقائب بدل ـ الأخراج والأكياس ـ وكذا . . . وكذا . . .

ولكن معالجاته وحلوله جاءت بالطامات الكبرى . فهو ـ مثلاً ـ يقترح « النسبية المطلقة » في القيم والأخلاق والسلوك ، ويدعو إلى تبرير جميع ألوان الشذوذ والانحراف ، وتدمير الأسر ، والروابط الاجتماعية ، وإلى إيجاد مؤسسات الأمومة ، وتفريخ الأطفال بالجملة ، والزواج المؤقت ، واستئجار الأرحام ، وبيع النطف ، والسماح بالأسر التي يكونها ذوو الشذوذ الجنسي ، وبالصداقات الموقوتة ، على أن يكون المحور الذي تدور في فلكه كل هذه الظواهر المقترحة هو توفير الطاقات العاملة لمراكز الإنتاج والعمل[1] .

ولو تعدينا ـ ألفن توفلر ـ إلى غيره من مشاهير المفكرين من أمثال : ثيودور روزاك ، ودانيال بل ، وفرتز شوماخر ، وديفيد بربل ، ورينه دوبو ، لوجدنا أيضاً أن إبداعاتهم تقف عند تشخيص الأزمة القائمة في « الثقافة والقيم » . أما المعالجة والحلول فلا تتعدى صيحات التحذير ، واستنفار المختصين ، والدعوة إلى تضافر الجهود ، للبحث عن شبكة علاقات اجتماعية جديدة ، مع مراعاة الانفتاح على ثقافات العالم كله ، والاستعداد لتقبل البديل المنقذ المناسب[2] .

وهناك فريق ثالث يحمل اسم ـ الواقعيين ـ ، وهؤلاء يبررون الصراعات الداخلية

---

(١) Alvin Toffler, Futuer Shock, PP. 95-262.

(٢) راجع ـ فلسفة التربية الإسلامية ـ للمؤلف : ص ٥٧ ـ ٦٣ ، ٢٥٨ (طبعة ثانية) .

والحروب الخارجية على أساس أن الحياة تنظمها قوانين البقاء للأقوى أو مايسمى بـ « الدارونية الاجتماعية » . وهذه فلسفات تبرر عمليات الصراع والقتل والتدمير وترك الإنسان المهزوم لمصيره في الهلاك ، إذا نزلت به الكوارث العسكرية والطبيعية والأزمات الاقتصادية[1] .

وحين نمعن النظر في الخارطة الفكرية للعالم المعاصر : عالم قرية الكرة الأرضية الذي استحالت فيه القارات إلى حارات ، والأجناس إلى عائلات ، والأقطار إلى بيوت ، لانجد منقذاً إلا أن تتوجه البشرية إلى عنصر الإيمان بمفهومه الإسلامي لتستمد منه « هويتها » و « جنسيتها » و « ثقافتها » ، وليمدها بقيم التقوى التي تلازم البدو الجدد ـ حسب تسمية ألفن توفلر ـ أينما رحلوا وأينما حلوا ، وتشدهم إلى قوة أعلى هي معهم أينما كانوا ، تراقبهم ويراقبونها ، ويحسبون حسابها أينما كانوا ؛ قوة الله القائل :

﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ ﴾ (الحديد : ٤) .

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ (ق : ١٦) .

ولا بد من التأكيد على دور التربية في إخراج الأفراد المؤمنين وتنمية تطبيقات الإيمان في « الهوية » و « الجنسية » و « الثقافة » .

في ضوء هذا المفهوم المؤصل للإيمان تحتاج التربية الإسلامية إلى إعادة تأصيل إخراج الأفراد المؤمنين من خلال التالي :

١ ـ إعادة تأصيل « هوية » الإنسان ، واستخراج فطرته الخيّرة ، والاستفادة في ذلك من مكتشفات علم النفس في آيات الأنفس كما مر في صفحات سابقة .

٢ ـ إعادة تأصيل أساليب إخراج الفرد المؤمن ، بحيث تتفاعل في نفسه آيات الوحي في الكتاب ، مع آيات الله في الآفاق والأنفس في مختبرات العلم ، ويتضافر القسمان لاستخراج معجزات العصر ، وبذلك يولد اليقين وتتجسد صلاحية القرآن لكل زمان ومكان .

٣ ـ إعادة تأصيل مفهوم الإيمان ليشمل المظهر الاجتماعي للعبادة بدل حصره في المظهر الديني وحده ، ولتتمركز تطبيقاته في قلب الاجتماع البشري على الأرض بدل نفيه في غيبيات خارج خلق الله ، بعيداً عن رحلة الإنسان عبر الحياة والمصير .

٤ ـ بلورة المعادلات العملية في جميع التوجيهات الاجتماعية التي تحتوي عليها « الثقافة » الإيمانية ، مع مراعاة ملاءمة هذه المعادلات لحاجات الزمان والمكان ، لأن التوجيهات الإسلامية هي توجيهات عامة ، تترك المجال مفتوحًا لرؤية نعمة الله في العقل البشري

---

(١) راجع ـ أهداف التربية الإسلامية ـ للمؤلف ، ص ٢٦٩ ـ ٢٧١ .

حين يقوم الإنسان بالاجتهاد ، الذي يفرز معادلات الإيمان العملية ، ويحولها إلى قيم وتطبيقات سياسية وإدارية واقتصادية واجتماعية وثقافية وعسكرية ، مع توفير المؤسسات والأدوات اللازمة لهذه التطبيقات ، شريطة أن يكون على رأسها تحديد « هوية » الإنسان و « جنسيته » و « ثقافته » و « محور ولائه » بما يتفق مع أقدار الله ـ أي قوانينه وسننه ـ في القرآن والسنة ، دون إشراك لعصبيات العائلة أو العرق أو اللون أو الأقليم أو المصالح الاقتصادية .

٥ ـ تربية الناشئة ـ وغير الناشئة ـ على « الهوية » الإيمانية ، و « الجنسية » الإيمانية ، و « الثقافة » الإيمانية ، تربية عملية . وهذا يعني قيام المؤسسات التربوية بتحويل المعادلات العملية للإيمان إلى مناهج وأنشطة ، يعيشها المتعلمون في حياتهم اليومية ، وفي علاقاتهم العامة ، ويرونها ماثلة في التطبيقات الإدارية والسياسية والاجتماعية وغيرها . ولابد للمؤسسات التربوية أن تعمل على ترسيخ الشعور بالمسؤولية إزاء متطلبات « الجنسية » الإيمانية ، وتنمية المهارات العقلية والعملية عند المتعلمين لتساعدهم على التعرف على مظاهر « الجنسية » الإيمانية ، وعلى تحويلها إلى أعمال وممارسات في مواقف الحياة المختلفة .

ولابد هنا من التنبيه إلى خطورة الاقتصار على التربية النظرية التي لاتصحبها تطبيقات عملية . ذلك أن آثار هذه التربية كآثار التعلم الإشراطي عند السلوكيين . إذ من التجارب التي أجراها السلوكيون في هذا المجال ، تجربة الكلب الذي اعتاد على أكل الدجاج الحي . ولمعالجة هذه العادة علقوا بعنق الكلب دجاجة ميتة لايستطيع الوصول إليها ، ولا التخلص من نتنها . فكانت النتيجة أن رائحة النتن انتهت بالكلب إلى كراهية الدجاج كله حياً وميتاً .

وهكذا التربية النظرية التي تصحبها تطبيقات عملية نتنة ، أو مخالفة ، تنتهي بالمتعلم إلى اليأس والإحباط ، وعدم تصديق الدعاوى المنادية بالقيم الخيّرة ، والأعمال الإيمانية الصالحة . وهنا تبدو حكمة الله في تخصيص أكبر مقته للذين يقولون ما لايفعلون .

٦ ـ إبراز أهمية تكامل عناصر ـ الأفراد المؤمنين ـ أي : « الهوية » و « الجنسية » و « الثقافة » والتأكيد على استحالة الفصل بينها أو وجود أحدها دون الآخر . فالأمة التي تتحدد فيها « هوية » الإنسان و « جنسيته » على أساس الإيمان ، هي وحدها التي تكون « ثقافتها » أي : قيمها ونظمها وأخلاقها وعاداتها وتقاليدها وفضائلها ، وفنونها وشبكة العلاقات الاجتماعية فيها ، مستمدة من الإيمان وذات مضامين إيمانية .

أما الأمة التي تتحدد « الجنسية » فيها طبقاً لعصبيات فلا تكون « ثقافتها » إلا مثلها . وهذا يفسر التناقضات القائمة في الأقطار الإسلامية المعاصرة ، والفصام الحاد

العائلة او القبيلة او الاقليم او المؤسسة

http://www.al-maktabeh.com

القائم بين انتماءاتها الإسلامية وممارساتها الاجتماعية والسياسية والإدارية والأخلاقية ، وسائر مظاهر شبكة العلاقات الاجتماعية القائمة فيها . وهو أيضاً سبب العلاقات السلبية المتفجرة بين حكومات هذه الأقطار والجماعات العاملة في الحقل الإسلامي .

٧ ـ تفنيد التطبيقات المخالفة لـ « الهوية » و « الجنسية » و « الثقافة » الإيمانية كالجنسيات والثقافات الإقليمية القائمة في ديار المسلمين وماينتج عنها من ممارسات إدارية وسياسية خاصة في قضايا الحدود وشؤون الهجرة والإقامة والسفر والعمل والتملك ـ والتي تنتهي في أحوال عديدة ـ إلى انفجار الفتن بين « مزق » الأمة الإسلامية .

وخلال تفنيد هذه التطبيقات الخاطئة لابد من التبصير بالتوجيهات النبوية التي تدرج هذه « الجنسيات » و « الثقافات » العصبية في قائمة الكبائر المخلدة في النار[1] ، وتوضيح أشكال التخريب الذي قامت به النظم والمناهج التربوية والمؤسسات الإعلامية ودور النشر والصحافة في العالم الإسلامي منذ قرن أو أكثر من أجل ترسيخ « الجنسيات » و « الثقافات » التي أملاها المستعمِر ـ بكسر الميم ـ غير المسلم على الإنسان المسلم ، واستمدها له من عصبيات القبيلة والإقليم والقومية ، وأحلها محل « جنسية » الإيمان و « ثقافة » الإسلام ، ثم أوقف الإنسان المسلم تحت راياتها ينشد باسمها الأناشيد الوطنية ، ويقاتل في سبيلها أخاه المسلم ، وهو يحسب أنه يقاتل في سبيل الله . ولقد عطلت هذه « الجنسيات » و « الثقافات » العصبية ، فاعلية « جنسية الإيمان » و « ثقافته » ودحرتها من ميدان الحياة الاجتماعية والتطبيقات الإدارية والسياسية والولاءات العملية إلى دائرة الانتماء النظري ، لتستثمر عند الحاجة لها ، من أجل نصرة « جنسيات » و « ثقافات » العصبيات العائلية والقبلية والطائفية والإقليمية والقومية .

---

(١) الطبري ؛ التفسير ، حـ ٥ ، ص ٣٧ ـ ٣٨ .

★ راجع نص الحديث على صفحة ١٧ ، ٤٨ .

الفصل الخامس

العنصر الثاني : الهجرة والمهجر

والعنصر الثاني من عناصر الأمة المسلمة هو ـ الهجرة ـ إلى مهجر يوفر للأفراد المؤمنين أن يعيشوا نموذج ـ المثل الأعلى ـ للحياة الإسلامية ، وأن يتحرروا من كافة الأغلال والآصار الثقافية والاجتماعية والمعنوية والمادية التي تحول دون هذا العيش .

معنى الهجرة :

الهجرة معناها الانتقال . وهي نوعان : انتقال حسي ، وانتقال نفسي . والانتقال الحسي معناه الانتقال من مجتمعات الكفر والشرك إلى مجتمع الإيمان .

أما الانتقال النفسي فهو يعني الانتقال من ثقافة مجتمعات غير المؤمنين بنظمها وعقائدها وأخلاقها وقيمها وعاداتها وتقاليدها وتطبيقاتها المختلفة ، إلى ثقافة الإيمان بمظاهره وتطبيقاته ومؤسساته . وإلى هذا النوع من الهجرة النفسية كانت التوجيهات الإلهية عند قوله تعالى :

﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ (المدثر : ٥) .

﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَايَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً ﴾ (المزمل : ١٠) .

﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي ﴾ (العنكبوت : ٢٦) .

وإلى النوعين مجتمعين من الهجرة كانت الإجابات النبوية عن معنى الهجرة وأشكالها . فلقد سأله أعرابي بقوله : يارسول الله أخبرنا عن الهجرة ؟ إليك أينما كنت ، أو لقوم خاصة ، أم إلى أرض معلومة ، أم إذا مت انقطعت ؟

فسكت عنه يسيراً ثم قال :

ـ « أين السائل » ؟

قال : هاهو ذا يارسول الله !

قال : « الهجرة أن تهجر الفواحش ماظهر منها ومابطن ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة ، ثم أنت مهاجر ، وإن مت بالحضر »[1] .

وفي موقف آخر قال صلى الله عليه وسلم : « المهاجر من هجر السوء فاجتنبه »[2] .

---

(١) مسند أحمد ، حـ ٢ (تحقيق الساعاتي) ، ص ٢٢٤

(٢) نفس المصدر والجزء ، ص ٢٠٦ .

وفي موقف آخر قال صلى الله عليه وسلم : « لاتنقطع الهجرة حتى تطلع الشمس من مغربها »[1] .

وفي موقف آخر سأل رجل فقال : يارسول الله : أي الهجرة أفضل ؟

قال : « أن تهجر ماكره ربُّك ! وهما هجرتان : هجرة البادي ، وهجرة الحاضر ، فهي أشدها وأعظمها بلية »[2] .

وممن ناقش رابطة الهجرة الرازي فقال :

(الهجرة تارة تحصل بالانتقال من دار الكفر إلى دار الإيمان . وأخرى تحصل بالانتقال عن أعمال الكفر إلى أعمال المسلمين . قال صلى الله عليه وسلم : « المهاجر من هجر مانهىٰ الله عنه» . وقال المحققون : الهجرة في سبيل الله عبارة عن الهجرة عن ترك مأموراته وفعل منهياته . . . وذلك يدخل فيه مهاجرة دار الكفر ، ومهاجرة شعار الكفر . ثم لم يقتصر تعالى عن ذكر الهجرة ، بل قيده بكونه في سبيل الله . فإنه ربما كانت الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام . ومن شعار الكفر إلى شعار الإسلام لغرض من أغراض الدنيا . إنما المعتبر وقوع الهجرة لأجل أمر الله)[3] .

والخلاصة أن التعاريف النبوية للهجرة تشير بوضوح تام إلى أن الهجرة تتكون من قسمين : هجرة جسدية ، وهجرة نفسية . وأن الهجرة الجسدية لاتغني عن الهجرة النفسية بل هي مكملة لها ومقدمة لممارستها . فإذا كان المسلم ، أو الفئة المسلمة يعيشان في بيئة غير إسلامية لايستطيعان العيش فيها حسب نماذج ـ المثل الأعلى ـ للحياة الإسلامية ، فإن الأولوية تكون للهجرة الجسدية . حتى إذا تمت هذه الهجرة وانضم المسلم إلى المهجر الإسلامي ، وجبت عليه الهجرة النفسية والتخلص من آثار البيئة الأولى في عقله وشعوره وسلوكه .

ويلاحظ على الهجرة بمفهومها المعنوي أنها تقابل « التزكية » أو ـ تغيير ما بالأنفس ـ الذين يشدد عليهما القرآن الكريم في مواضع كثيرة ، وغاية هذا التغيير هو ـ هجر ـ الأفكار والثقافة والقيم الخاطئة أو الآبائية التي انقضى زمنها . ولقد كان أبرز مظاهر الهجرة المعنوية هو الانتقال من ـ ثقافة العصبية ـ بكل قيمها وتقاليدها الصنمية ، إلى ثقافة الإسلام بكل قيمها وتقاليدها التوحيدية . ولذلك نبه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أن العودة إلى ثقافة الأطوار العصبية ومفاهيمها وقيمها وتقاليدها هو مظهر من مظاهر الردة ، وكبيرة من الكبائر المخلدة في النار . فعن عبد الله قال : آكل الربا وموكله وكاتبه إذا علموا بذلك ، والواشمة

---

(١) نفس المصدر ، حـ ٤ ، ص ٩٩ . سنن الدارمي ، باب السير .

(٢) مسند أحمد ، حـ ٤ ، ص ١٩١ ، النسائي .

(٣) الرازي ، التفسير الكبير حـ ١٠ ، ص ٢٢١ ـ ٢٢٢ .

والمستوشمة للحسن ، ولاوي الصدقة ، والمرتد أعرابياً بعد الهجرة ، ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة[1] .

وفي تفسير الطبري لقوله تعالى :

﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ (آل عمران : ٢١) .

عن محمد بن سهل بن أبي حثمة عن أبيه قال : إني لفي مسجد الكوفة ، وعلي رضي الله عنه يخطب الناس على المنبر ، فقال :

- يا أيها الناس : إن الكبائر سبع !

فأصاخ الناس . فأعادها ثلاث مرات ثم قال :

- ألا تسألوني عنها ؟

قالوا : يا أمير المؤمنين ماهي ؟

قال : الإشراك بالله ، وقتل النفس التي حرم الله ، وقذف المحصنة ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، والفرار يوم الزحف ، والتعرب بعد الهجرة .

فقلت لأبي : يا أبت التعرب بعد الهجرة . . كيف لحق هاهنا ؟

فقال يابني : وما أعظم من أن يهاجر الرجل حتى إذا وقع سهمه في الفيء ووجب عليه الجهاد خلع ذلك من عنقه فرجع إعرابياً كما كان !

وعن عبيدة بن عمير قال : الكبائر سبع ليس منهن كبيرة إلا وفيها آية من كتاب الله . . . . . إلى أن قال : والتعرب بعد الهجرة (إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ماتبين لهم الهدى)[2] .

ولعل الحكمة من اعتبار - العودة إلى العصبية ، أو التعرب بعد الهجرة - ردة وكبيرة من الكبائر هو أن هذه العودة نكسة في نظام القيم الإسلامية حيث تعود (القوة فوق الشريعة) أو فوق القانون ، ويعود (الولاء للإقليميات بدل الأمة) ، أي تعود « قوة » الرئيس وإرادته لتحل محل « الشريعة » وإرادة الله . فهي إذن عودة لجوهر الصنمية ومايرافقها من عودة إلى الارتجال والفردية والفوضى بدل الإعداد وروح الجماعة والنظام . ولذلك وصف الله - المتعربين - بقوله : ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ (التوبة : ٩٧) ولذلك أيضاً قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هجرة

---

(١) مسند أحمد ، (تحقيق أحمد شاكر) حـ ٥ ، رقم ٣٨٨٦ ، ٤٠٩٠ .
- سنن النسائي ، كتاب الزنية ، ٢٥ .
- سنن البيهقي ، حـ ٩ ، ص ١٩ .

(٢) الطبري ، التفسير ، حـ ٥ ، ص ٣٧ - ٣٨ . الطبراني ، المعجم الكبير ، حـ ٦ ، ص ١٢٤ رقم ٥٦٣٦ .

البادي الطاعة[1] أي طاعة الشريعة والانقياد للنظام .

أهمية الهجرة :

الهجرة عنصر أساس من عناصر الأمة المسلمة ولها أهميتها في استراتيجية العمل الإسلامي وتتمثل هذه الأهمية فيما يلي :

الأهمية الأولى : تخليص المؤمنين من العوز ، وعدم الأمن اللذين يضغطان عليهم ويؤثران تأثيراً سلبيًّا على أمنهم الديني والاجتماعي ، وإلى هذين العاملين كانت الإشارة الإلهية عند قوله تعالى :

﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً ﴾ (النساء : ١٠٠) .

والمراغم هو المنعة والقوة ، أو ما يرغم به المؤمنون المهاجرون ظالميهم على مسالمتهم ويردعونهم عن العدوان عليهم . . والسعة هي الغنى وسعة العيش . ويتكرر الحديث عن أهمية الهجرة في توفير المنعة والإنجاز الحضاري في مواضع عديدة من القرآن الكريم ، من ذلك قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِن بَعدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُم فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ (النحل : ٤١) .

ونظراً لأهمية الهجرة في توفير المنعة ، وإطلاق القدرات ، وتوفير الإنجازات ، أدان الله سبحانه وتعالى المتقاعسين عن الهجرة وتوعدهم بالعذاب . من ذلك قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّـٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ؟ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴾ (النساء : ٩٧) .

ويروي المفسرون عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه ، أن ناساً من المسلمين لم يهاجروا فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم ، فأصيب بعضهم ، فقال المسلمون : كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا ، فاستغفروا لهم ، فنزلت الآية [2]

ولقد استمرت الهجرة عاملاً أساسياً في قوة حركات الإصلاح التي نجحت في إخراج العالم الإسلامي من ضعفه ـ في فترات متقطعة وفي أماكن مختلفة ـ مثل الحركة التي أخرجت جيل صلاح الدين ، وحركة المرابطين ، فقد هجرت الأولى « فقه » المذهبية والأبائية الذي عاصرته ، ثم انسحبت من المشكلات المعقدة لمجتمع الخلافة في بغداد إلى

---

(١) الطبري ، المصدر السابق ، نفس الصفحات .

(٢) ابن كثير ؛ التفسير ، نقلا عن صحيح البخاري .

المهجر الذي نما وامتد حتى شمل المنطقة الواقعة ما بين الموصل وشمالي سوريا في الشمال ، وبين مصر والحجاز في الجنوب . كذلك اتخذت الثانية لها مهجراً في غرب أفريقيا ، ثم خرجت قوة ردت العافية للمغرب والأندلس لقرون[1] .

والأهمية الثانية : هي ان الهجرة ـ بمعناها النفسي والحسي ـ تنسجم مع حقيقة من الحقائق الكبرى التي يطرحها الإسلام عن الوجود ، وهذه الحقيقة هي ـ استمرارية الخلق ـ أي أن هذا الكون مازال يخلق : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ (القصص : ٦٨) ، واستمرارية الخلق هذه ترفد الحياة دائما بالجديد من الأفكار والأشخاص والأشياء ، والكائنات الجديدة تفرز ـ علاقات جديدة ـ والعلاقات الجديدة تتطلب ـ ترجمة القيم ـ إلى نظم ومؤسسات وسياسات جديدة : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ (الرحمن : ٢٩) . والذين لايعون استمرارية الخلق ومايتنج عنها من تجديد في الشؤون والعلاقات والتطبيقات ، لايفقهون مضمون الهجرة المطلوبة ، ويقلعون في الاتجاه المعاكس للتاريخ ، فيرتدون إلى الأبائية ، ويسقطون في التخلف ، ويلفهم اللبس والحيرة والاضطراب ، وينتهون إلى البوار : ﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّن خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (ق : ١٥) .

فالهجرة بمعناها الشامل عملية تكيف نفسي وحسي مع حوادث الخلق المستمر ، وهي حركة تجديد مستمر ، ترتكز على انتقاء العناصر الصالحة من كل جيل من البشرية كلها ، ثم إعدادها لما يناسب الطور الجديد ، وحمل رسالة الإسلام ، واستمرار الترقي البشري .

ومن المحزن أن لا يبرز « فقه وفقهاء للجنسية والمواطنة » القائمة على مفهوم الهجرة هذا ، في الوقت الذي نشاهد أثر قوانين الهجرة ـ التي تتبناها الولايات المتحدة الأمريكية ـ في تجميع العناصر ذات الكفاءات العالية من أقطار الأرض كلها ، ثم إطلاق قدراتها وإراداتها لما فيه قوة الولايات المتحدة ، واحتلالها مكان الصدارة في العالم كله .

ومن الموضوعية أن نقول : إنه في الوقت الذي يغيب العقل الإسلامي المعاصر عن شهود ـ العلاقة بين استمرارية الخلق ، والهجرة ، وتجدد عافية الأمم ـ فإن الفكر الغربي المعاصر قد أحس بهذه الحقيقة ، ونظم حياته طبقا لها ، ولكن العلاقات السلبية التي قامت بين المفكرين وبين الكنيسة جعلتهم ـ على المستوى العقائدي ـ يتنكرون لفكرة الخلق ، ويستبدلونها بفكرة « النشوء والارتقاء والتطور » ، أي الاعتقاد بأن الكون ينشأ ويترقى ويتطور من نفسه ، دون اعتبار لقوة الله المسيرة للنشأة والترقي والتطور . وهكذا ظهر عند الغربيين ما يسمى بنظرية التطور *Evelution* ونظرية الخلق *Creationism* .

ولكن من الإنصاف أن نقول : إن العقل الإسلامي في الماضي ، لم يكن غائباً دائماً عن أهمية الهجرة واستمراريتها . فهذا ابن تيمية يعلق على الآية التي قدمناها كإطار لعناصر الأمة

---

(١) للاطلاع على تفاصيل الحركة الأولى راجع كتاب ـ هكذا ظهر جيل صلاح الدين ـ للمؤلف .

المسلمة ، ويذكر أن المؤمنين الذين ذكرتهم الآية صنفان : المهاجرون الذين هاجروا إلى المدينة من بلادهم ، والأنصار الذين استقبلوهم . ومن لم يهاجر من الأعراب لهم حكم آخر ، وآخرون كانوا ممنوعين من الهجرة لمنع أكابرهم لهم . فلكل هذه الأنواع حكمهم باقٍ إلى يوم القيامة في أشباههم ونظائرهم . وأضاف ان معنى قوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم ﴾ هو إشارة إلى من تبع هذا المنهاج إلى يوم القيامة[1] .

ولكن الأبائية التي تستمد جذورها من ثقافة العصبية القبلية ، كانت دائما تطلي حرانها بطلاء إسلامي ، فترفض الهجرة والتجدد ، وتشن إرهابا فكريًا على العقول المجددة ، وتغري الحاكمين بأصحابها ، فتجهز عليهم ، وتحرم الأمة من ثمرات اجتهادهم .

دور التربية في بلورة عنصر الهجرة :

لا يستطيع الأفراد الهجرة ـ خاصة الهجرة النفسية ـ وحدهم . بل لابد من عمل تربوي منظم ، تنهض به مؤسسات تربوية متخصصة تحيط بقوانين التغيير الفكري والإرادى والسلوكى ، ولابد من توفير العوامل المساعدة على نجاح عملية الهجرة المذكورة ، وأبرز هذه العوامل اثنان : **الأول** : توفر العدد المناسب من التربويين الخبراء بتغيير ما في الأنفس ـ من أفكار ومعتقدات ـ ومساعدتها على التخلص من القيم والاتجاهات والممارسات الخاطئة . **والثاني** : توفير البيئة الصالحة لنجاح الهجرة بمظاهرها النفسية والحسية . . والحرية هي التجسيد العملي للبيئة المطلوبة ، لأن الهجرة هي حرية التفكير والاختيار . . والذين كانوا يتصفون بحرية التفكير والاختيار من المهاجرين الأوائل ، هم الذين قدروا على الهجرة . . والذين لم يتصفوا بهذه الحرية ، ظلوا يمارسون الحران والرفس ، جامدين على ما انحدر إليهم من آبائهم من معتقدات ، ونظم ، وثقافة ، وممارسات ، وقيم انتهت بهم إلى الهلاك والبوار .

فالهجرة لا تصل مداها المشار إليه إلا إذا حررت التربية نفوس المتعلمين من داخل ، وهيأت التطبيقات والسياسات الإدارية لتسود الحرية حياة الأمة من خارج ، ذلك أن الحرية عامل أساسي في تحقيق أمرين : **الأول** : نمو القدرات العقلية اللازمة للتمييز بين الصواب والخطأ . **والثاني** : إطلاق الإرادات العازمة المناصرة للحق ، المناهضة للباطل . . وحين تختفي الحرية تتعطل القدرات العقلية ، وتتقلص الإرادات العازمة ، وتتوقف الأمة عن الإبداع ، والإنجاز ، وتسير في طريق الضعف المفضي إلى الاستضعاف في الدنيا ، والعقوبة في الآخرة .

---

(١) ابن تيمية ، الفتاوى ، كتاب التصوف ، حـ ١١ ، ص ٣٩ .

لذلك لابد للتربية الإسلامية أن تعمل على تحقيق أمرين :

الأول : تدريب ـ إنسان التربية الإسلامية ـ على مراجعة الموروثات الثقافية والاجتماعية المتحدرة من كل جيل ، وتنمية القدرة على التفكير ، واكتشاف الجوانب التي عدا عليها الخطأ أو الإفساد في الفهم والتطبيق ، أو تلك التي مضى زمنها ، وبطل مفعولها ، ثم القدرة على التخلص منها ، ومن آثارها ، والهجرة من تطبيقاتها التي تسربت إلى مظاهر الثقافة السائدة في القيم ، والعادات ، والتقاليد ، والأخلاق ، والفنون والنظم ، وشبكة العلاقات الاجتماعية ، وغير ذلك .

فالهجرة ـ هنا ـ مظهر من مظاهر التوبة من الثقافة الخاطئة ، أو التي بطل مفعولها ، وما يتفرع عنها من نظم ، وتطبيقات ، ومؤسسات ، وممارسات ، ووظائف خاطئة ، أو متخلفة . والرسول صلى الله عليه وسلم يربط بصراحة بين الهجرة والتوبة فيقول : « لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها [1] .

فالهجرة توبة ، والتوبة هجرة ، وكلاهما انتقال من الخطأ والجمود والتخلف ، وانتقال من البيئات التي ترعى هذه السلبيات الموقفة للارتقاء ، الخانقة للعيش ، المانعة للحياة .

والثاني : تدريب المتعلمين على « فقه » نموذج ـ المثل الأعلى ء اللازم لزمنهم ، ثم تنشئتهم على استيعاب تفاصيل المثل الأعلى الجديد ، وبذلك تعدهم لزمن غير زمن آبائهم ـ كما يوصي علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ـ وتتكون لديهم القدرات والمؤهلات اللازمة للغد الذى سيعبرونه ، ولن يصابوا بالمفاجآت والصدمات من تطورات المستقبل ، كما يصاب الذين يشير إليهم قوله تعالى : ﴿ بَل هُمْ فِي لَبسٍ مِّن خَلقٍ جَدِيدٍ ﴾ (ق : ١٥) .

---

(١) سنن الدارمي ، حـ ٢ (دار إحياء السنة النبوية) ، ص ٢٤٠ .

الفصل السادس

العنصر الثالث : عنصر الجهاد والرسالة

الجهاد والرسالة ، هما العنصر الثالث من عناصر الأمة المسلمة ، والجمع بينهما في عنصر واحد ، سببه : اقترانهما ـ في القرآن والسنة ـ اقتران الوسيلة بالهدف . فالرسالة بدون جهاد مفضية إلى مقت الله وغضبه ، والجهاد بدون رسالة نصرة للعصبيات ، وخدمة للشهوات ، وموجباً لعقوبة الله وعذابه .

أما عن تفاصيل هذا العنصر فهي كما يلي :

معنى الجهاد :

الجهاد معناه ـ لغويا ـ بذل الجهد . أما اصطلاحاً فهو يعني استفراغ الطاقة لتحقيق الأهداف التي توجه إليها الرسالة الإسلامية في ميادين الحياة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية والعسكرية وغيرها في أوقات السلم والحرب سواء . وهذا ما يوجه إليه القرآن الكريم في مواضع كثيرة جداً ، من ذلك قوله تعالى :

﴿ وَجَاهِدُوا فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ ٱجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (الحج : ٧٨) . أي أن الجهاد الذي اختاركم الله من أجله ، لا ضيق فيه ولا عنت ، وإنما هو يتناسب مع الوسع والطاقة ، التي أودعها في خلقكم وتكوينكم [1]

والرسول صلى الله عليه وسلم يرسم الإطار الواسع للجهاد من خلال أمرين : الأول : طرح معادلات الجهاد العملية في ميدان العمل الإيجابي . والثاني : التحذير مما يخالفه في ميدان العمل ، والتعوذ مما يعيق عن القيام به من العجز والكسل والمرض ، وغلبة الديون وقهر الرجال [2] .

فالجهاد إذن هو ـ تكنولوجيا الإسلام ـ التي توفر العمل والإنتاج في أوقات السلم ، والمنعة في أوقات العدوان . ولكن ليس بقصد توفير الرخاء الاقتصادي ، والمنعة السياسية لجنس معين من البشر ، أو تحقيق تفوق لقوم على بقية الأقوام ، أو توفير امتياز لطائفة دينية

---

(١) الطبري ، التفسير ، حـ ١٧ ، ص ٢٠٥ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الجهاد . صحيح مسلم ، كتاب الذكر ، سنن الترمذي ، كتاب الدعوات .

على بقية الطوائف ، وإنما لغاية أخرى هي تأهيل كتلة بشرية لحمل رسالة الإسلام إلى العالم . ولذلك فالذي تقوم به الأقطار المتقدمة صناعيا وعلميا وإداريا ـ في الحاضر ـ هو جهاد لكنه بدون رسالة . وبذلك تكون أزمة العالم الحديث هي أن هناك مجتمعات تقوم بالمظهر المادي للجهاد لكن بدون رسالة ، بينما ـ ترقد في سبات ـ إلى جانبها مجتمعات تخزن الرسالة في أسفارها ، وتستظهر نصوصها في مؤسساتها التربوية ، ولكن بدون جهاد لحملها ونشرها .

ولابد من الانتباه إلى ـ المعنى الحضاري للجهاد ـ فالجهاد يعكس مفهوم ـ الأمن الإسلامي ـ الذي يركز على إيصال الرسالة وتبليغها إلى الآخرين ، بغية توفير الأمن الفكري والمادي والنفسي لبقاء النوع البشري ورقيه . ذلك أن مصدر الخطر على بقاء النوع البشري ورقيه ـ حسب التصور الإسلامي ـ يكمن في « القيم » التي تكفر ـ أي تحجب وتخفي ـ قوانين الخلق في النشأة والمصير ، وتقتصر على نوازع التمتع بالحياة وشهواتها ، ومن هذا ـ الكفر ـ تنشوه جميع أشكال الاعتقاد والشعور والممارسات في ميادين السلوك والاجتماع والعلاقات حتى إذا ظهر أهل الكفر في الأرض ، أشاعوا الفتن والمظالم السياسية ، والمفاسد الاجتماعية ، وردوا شبكة العلاقات الاجتماعية إلى عهود الغاب والهمجية والتخلف . ولذلك كان طلب بذل النفس لمحاربة قيم الكفر ومؤسساته وممثليه ، وبذل المال لنشر قيم الرسالة الإسلامية وإقامة مؤسساتها والإنفاق على العاملين والدارسين فيها حتى يتحقق التفوق للقيم الإسلامية فيشيع السلام ويكون الدين كله لله .

وهذا المفهوم الإسلامي للأمن والسلام ، يختلف تمام الاختلاف عن مفهوم الأمن القومي الذي ترفع لواءه المجتمعات المعاصرة ، وتتخذه ذريعة لممارسة مختلف أشكال العدوان ضد بعضها بعضاً .

وتعريف ـ الجهاد ـ بالشكل المذكور أعلاه يجعل ترجمة هذا ـ المصطلح ـ إلى اللغات الأخرى أمراً صعباً وضاراً . فهو صعب لأنه لا يوجد ما يقابله في اللغات الأخرى ، وهو ضار لأن الترجمة تشوه معناه ، كما حدث لترجمته إلى اللغة الانكليزية ، التي أطلقت عليه اسم ـ الحرب المقدسة **Holy War** حيث عممت مظهراً واحداً من مظاهر الجهاد ، وطمست بقية المظاهر .

ولابد هنا من الإشارة إلى أثر تراث ما قبل الإسلام في تطبيقات الجهاد عند الشعوب الإسلامية . فالعربي فهم المظهر المرادف لثقافة الغزو الذي كانت القبائل العربية تمارسه قبل الإسلام . والمسلم الباكستاني جذبه المظهر النفسي المشابه لثقافة التقشف الهندوسي ، التي كان عليها في جاهليته . وهذا كله من سوء التأويل الذي تتسبب به الموروثات الثقافية السابقة ، إذ لم تقم التربية بدورها في الجهاد التربوي الذي يستهدف تزكية مناهج الفهم والتطبيق .

http://www.al-maktabeh.com

مظاهر الجهاد :

لا يكون الجهاد أصيلاً شاملاً ما لم تتابع التربية وظيفتها في تأصيل معناه ، وتبيان مظاهره ، وتفصيلها حسب متطلبات الزمان والمكان . والذي يقرر عمل التربية في هذا المجال ثلاثة عوامل : الأول : درجة تطور البشرية . والثاني : نوع التحديات القائمة في الداخل والخارج . والثالث : إيقاف المظهر الجهادي أو إعماله .

وانطلاقا من هذه العوامل الثلاثة تنقسم مظاهر الجهاد إلى ثلاثة مظاهر رئيسة يندرج تحت كل منها تطبيقات عملية لا حصر لها ولا نهاية ، وإنما هي تتجدد بتجدد الخلق وما يتطلبه هذا الخلق الجديد من تجديد في الوسائل والعلاقات والمؤسسات . أما عن هذه المظاهر الرئيسة فهي :

١ ـ **الجهاد التربوي** : يستهدف الجهاد التربوي تزكية الإنسان المسلم من منزلة ـ الخضوع للغرائز والدوافع ـ الآنية الموقوتة التي تبقيه حبيس الشهوات والانفعالات الفردية التلقائية ، والارتقاء به إلى منزلة ـ تحقيق الذات ـ التي يحقق الإنسان عندها إنسانيته ، فيسترشد بتفكيره وعقله وخبراته المنظمة عن الخالق والكون والإنسان والحياة . ويشير القرآن الكريم إلى المنزلة الأولى الدنيا باسم « أسفل سافلين » بينما يشير إلى المنزلة الثانية العليا باسم « أحسن تقويم » .

والجهاد بالشكل المذكور عمل يجب أن يعتمد على التخطيط العلمي ، والإعداد الدقيق ، ويجب أن تكون له مؤسساته وخبراؤه وميادينه وطرقه ووسائله والمربون العاملون في مجالاته . ولذلك رفع الرسول صلى الله عليه وسلم الجهاد التربوي والعلمي إلى منزلة الجهاد في ميدان القتال ، وساوى فيه بين مداد العلماء ودماء الشهداء .[1]

وهنا لابد من الإشارة إلى التشويه الذي أصاب ميدان الجهاد التربوي في فترات التقليد والجمود ، وتجزئة نظرية التربية الإسلامية وميادينها . فقد أدى هذا التشويه إلى تفسير ـ جهاد النفس ـ على اعتبار أنه مسؤولية فردية تقع على الفرد المسلم وحده ، حيث يدخل في عملية صراع عصبي مع دوافعه وشهواته ، كلما دلف إلى موقف من مواقف الحياة ، بحيث انتهى به هذا التصور إلى نماذج الدرويش والمتزهد اللذين يقدمان بؤس الحياة وصرامتها بدل تنظيمها وجمالها .

---

(١) المناوي ، فيض القدير شرح الجامع الصغير ، حـ ٦ (القاهرة : دار الفكر ١٣٩١/١٩٧٢ . ص ٤٦٦ ، رقم ١٠٠٢٦ .

٢ ـ **الجهاد التنظيمي** : وغاية هذا الجهاد تنظيم « وسع » الأمة ـ حسب التعبير القرآني ـ أي طاقاتها وقدراتها المعنوية والمادية والبشرية ، والتنسيق بينها بما يكفل حشدها وتكاملها ـ دون هدر أو نقص ـ لتحقيق أهداف الرسالة . ويوجه القرآن الكريم إلى أن « أمة المؤمنين » حين « تفقه » هذا الجهاد التنظيمي ، وتتقنه ، وتصبر على تكاليفه النفسية والمادية فإن ما تحتاجه من ـ الأفراد المؤمنين ـ في هذا الجهاد ستكون نسبة عددهم ١ ـ ١٠ مقارنة بما تحشده « أمة الكافرين » . والسبب في ذلك هو انسجام « فقه » المؤمنين مع نواميس الخلق ، و « جهل » الكافرين بهذه النواميس واصطدامهم بها ، مما يجعلها تعمل لصالح « معسكر » المؤمنين وهزيمة معسكر الكافرين :

﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مَائَتَيْنِ ، وَإِن يَكُن مِّنكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ ﴾ (الأنفال : ٦٥) .

أي لا يفقهون نظم الحشد والإعداد النفسي والمادي ، وأساليب القتال ، والاستفادة من استراتيجية الموقع والتوجيه المعنوي ، وأهمية الهدف الذي يتم من أجله الحشد والجهاد .

والجهاد التنظيمي بهذا المفهوم لا يكون أيضاً عملاً فرديًّا ، وإنما هو مظهر استراتيجي يقتضي من الأمة أن تقيم له مؤسساته التربوية والعلمية والتطبيقية ومراكز البحث ووسائله ولوازمه ولابد من تجدد علومه ، والارتقاء بمؤهلات العاملين فيه ، وتوفير التكاليف التي يحتاجها والممارسات التي يتطلبها .

٣ ـ **الجهاد العسكري** : وغاية هذا الجهاد هو إزالة العوائق التي تحول دون الحفاظ على بقاء النوع البشري ورقيه ، حين لا تنجح أشكال الجهاد التربوي والتنظيمي في تحقيق هذه الغاية وحدها . ويتجلى اقتران هذا النوع من الجهاد بالرسالة الإسلامية ، من خلال الضوابط العقدية والأخلاقية التي تحكمه ، وتوجهه ، بحيث لا يخرج لحظة واحدة عن غايات الرسالة وأهدافها . وحين يتحقق هدف من أهداف الرسالة دون قتال ، يتوقف الجهاد القتالي ويصير ممنوعاً ، والأمثلة على ذلك واضحة في التطبيقات النبوية . فعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال :

« بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحرقة فصبحنا القوم فهزمناهم ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم ، فلما غشيناه قال : لا إله إلا الله ، فكف الأنصاري ، فطعنته برمحي حتى قتلته ، فلما قدمنا بلغ النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال :

ـ يا أسامة أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله !!

قلت ـ كان متعوذاً . (أي يتظاهر بقولها ليعوذ من القتل) .
فمازال (النبي) يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم » . [1]

وعن المقداد بن عمرو الكندي ، وكان ممن شهد معركة بدر ، قال : قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أرأيت إن لقيت رجلا من الكفار فاقتتلنا ، فضرب إحدىٰ يدي بالسيف ، فقطعها ، ثم لاذمني بشجرة ، فقال : أسلمت لله ، أقتله يارسول الله بعد أن قالها ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تقتله !

قلت : يا رسول الله إنه قطع يدي ثم قال ذلك بعد ما قطعها ؟!

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تقتله فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال . [2]

وتحتاج التربية الإسلامية في مظاهر الجهاد الثلاثة أن تُحكم « فقه » كل مظهر منها .

فالمظهر القتالي للجهاد يُصبح مُبرراً ومعمولا به حين تشيع قيم الكفر ، وتنشر العدوان ، وتهدد بقاء النوع البشري ، ولكن بروز اتجاهات الحوار بين المجتمعات الإنسانية ، « يُوقف » مظهر الجهاد القتالي ، ويفرض على مؤسسات التربية الإسلامية إفراز مؤهلين لهذا الحوار ، لا الشتم والتشنج والانفعال ، القادرين على بذل أقصى ـ جهودهم ـ لبلورة المظهر الفكري للجهاد لـ « يجادلوا » قادة الفكر العالمي بمناهج « أحسن » محتوى ، و « أحسن » إحاطة ورسوخاً بحقائق الوجود والخبرات الإنسانية .

وانتقال البشرية من طور إلى طور ـ كأن تنتقل من طور الوحدات الإقليمية والقومية إلى طور التكتلات القارية العالمية كما هو حاصل الآن ـ يقتضي من المؤسسات التربوية أن تعد متعلميها وعلماءها على بذل أقصى « وسعهم » للجهاد التنظيمي والاستراتيجي ، لبلورة شبكة علاقات جديدة ، تحدد الأطر والاستراتيجيات التي تنظم « وسع » الأمة المسلمة ومقدراتها كلها ، لعبور الطور الجديد ، والانتقال من طور « القبلية » و « الإقليمية » و « القومية » الذي يرتدون إليه حين ينسون سنن الله في الاجتماع البشري ، فينسيهم الله مصالح أنفسهم ، في الانتقال إلى طور العالمية ، الذي يشكل محور التربية الإسلامية لإخراج الأمة المسلمة .

---

(١) البخاري : تجريد الصحيح ، حـ ٢ ، غزوة مؤتة ، ص ٨٣ .
(٢) مسند أحمد ، (شرح الساعاتي) ، حـ ١ ، رقم : ٧٠ ، ص ١٠١ .

والخلاصة : فإن تنزيل الحكم أو إيقافه ، يطبقان على مظاهر الجهاد حسب الظروف والمناسبات . وتحتل المظاهر السلمية للجهاد منزلة الأولية في كل سياق قرآني ، حسب تدرج معين ، يشمل الجهاد بالمال ، فإذا لم يكف ، دعمته مقدرات النفس العقلية والتنظيمية ، ومقدرات العمل والإنتاج ، وأخيراً المقدرات القتالية ، مع بقاء الباب مفتوحاً لأية لحظة يوقف فيها سفك الدماء ويجنح للسلم .

وتتضح أهمية ـ الجهاد القتالي ـ في حياة الإنسانية كلها حين نرى أن الأفكار والمتعقدات التي تسود العالم عند غير المسلمين ـ خاصة الغرب ـ لم تتخلّ بعد ، وقد لا تتخلى حتى قيام الساعة ، عن حب العدوان والسيطرة ، لاستبعاد الآخرين ، ونهب مقدراتهم وإشاعة التخلف في حياتهم تطبيقا لمسلّمة ـ الصراع والبقاء للأقوى ـ التي يتقبلها العقل الغربي دون مناقشة ولا مراجعة وينطلق منها في جميع ممارساته وسياساته : [1] فالغرب يعتبر القتال أداة حيوية من أدوات الصراع وبقاء الأقوى ، وينظر للقتال كضرورة بيولوجية لبتر العناصر الضعيفة لصالح العناصر القوية . ومن هنا اشتدت عناية الغرب بالحياة العسكرية ، وإنتاج الأسلحة وتطويرها . وهذه فلسفة بعيدة الغور في تاريخ الفكر الغربي ، ومازالت تحتل مركز الصدارة . والأفكار التي تناولت قتال الأقوياء لإبادة الضعفاء عديدة وكثيرة شاعت منذ مطلع القرن العشرين ، ومازالت تنمو وتتوسع وتنتشر وتوجه الممارسات السياسية والعسكرية . [2]

وأمام هذه ـ العقلية غير المسلمة ـ التي تعتمد الصراع أساساً في علاقاتها مع بقية المجتمعات البشرية التي تشاركها العيش على الكرة الأرضية ، يبرز الجهاد الإسلامي رادعاً للعقل الغربي ومضاعفاته في الفتنة والفساد الكبير ، ويبرز الجهاد القتالي كإجراء موقوت

---

(١) المسلمون بحاجة ماسة إلى فهم ـ العقل الغربي ـ وقيمه ومسلماته الفكرية وأساليب تفكيره تماماً ، كما خطط الغرب لفهم ـ العقل المسلم ـ وقيمه والمسلمات التي ينطلق منها في تفكيره وعمله مستهدفاً تسخير المسلمين لما يحقق أهداف الغرب في الهيمنة والنفوذ والاستغلال . ومحور المسلمات الفكرية عند العقل الغربي . . هي فكرة ـ الصراع والبقاء للأقوى ـ فهي ـ التوحيد ـ الغربي الذي تنبثق منه جميع الأفكار والأعمال ، وليست الديانات السماوية والأخلاق والمثل الإنسانية العليا إلا ـ روافع كما يسميها علماء السياسة الغربيون ـ لخدمة المسلمة المذكورة . ولذلك احتل علم النفس منزلة ـ الكتاب المقدس ـ في علوم الغرب الحاضر خاصة في أمريكا ، وهو علم لايستعمل للتعرف على « الحقيقة » وإنما لتسخير الأفراد والجماعات والشعوب واستغلال مقدراتها المادية والنفسية وتراثها الثقافي لصالح المترفين في الغرب نفسه .

(٢) راجع تفاصيل هذه الآراء ونماذج من القائلين بها في كتاب ـ فلسفة التربية الاسلامية ـ الطبعة الثانية ، ص ١٥٦ ـ ١٥٩ ، وكتاب ـ أهداف التربية الإسلامية ، ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠ للمؤلف ،

http://www.al-maktabeh.com

هدفه بشر العناصر المترفة الخربة ، من أجل إعادة التوازن والعافية للاجتماع البشري ، كلما اضطربت قيم العدل والمساواة والحرية والإخاء في التملك والعلاقات البشرية . لذلك لا يكون الجهاد إسلامياً إلا إذا اقترن بالرسالة الإسلامية . فالرسول صلى الله عليه وسلم يوضح : أن الرجل يقاتل شجاعة ، والرجل يقاتل غضباً وحمية عصبية ، والرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل ليذكر ، والرجل يقاتل رياء ؛ فمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله . [1] .

وكلمة ـ في سبيل الله ـ هي الرسالة الإسلامية ، وهي العطاء الحضاري الذي يقدمه المسلم للإنسانية ، ليضمن بقاء النوع البشري ورقيه ، وهي بعض تطبيقات المظهر الاجتماعي للعبادة ، ومن هذه الرسالة تكتسب الحضارة الإسلامية طابعها ومميزاتها ، أما تفاصيل هذه الرسالة فهي كما يلي :

معنى الرسالة :

يتكرر ذكر الرسالة والرسول صلى الله عليه وسلم في مئات المواضع من سور القرآن ، أما في الآية التي حددت الإطار العام لعناصر الأمة المسلمة فقد وردت الإشارة إلى الرسالة عند قوله تعالى : « في سبيل الله » . وتقسم محتويات الرسالة إلى ثلاثة أقسام رئيسة هي : ١ ـ الإيمان بالله ، ومحوره الإيمان بقدرته وهيمنته وإنه المالك المتصرف بالوجود كله . وثمرة هذا الإيمان تحرر الإنسان من طغيان الآلهة المدعاة ، وإطلاق قدراته العقلية والنفسية والجسدية لاستعمالها في تسخير الكون دون عائق من رهبة أو رغبة . ٢ ـ الأمر بالمعروف ، ومحوره الدعوة إلى التوافق مع سنن الله وأقداره وقوانينه في الوجود القائم ، لأن في هذا التوافق بقاء الإنسان ورقيه . ٣ ـ النهي عن المنكر ، ومحوره التحذير من الاصطدام بسنن الله وأقداره وقوانينه في الوجود القائم لأن في هذا الاصطدام تدمير لبقاء الإنسان وسقوطه في الدنيا والآخرة .

وهذه العناصر الثلاثة الرئيسة التي تتكون منها الرسالة متضمنة في قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ » (آل عمران ـ ١١٠) .

ولقد شرح الصحابي الجليل أبو هريرة رضي الله عنه هذه الآية فقال :

---

(١) مسلم ، الصحيح (شرح النووي) ، حـ ١٣ ، كتاب الإمارة ، ص ٤٩ ـ ٥٠ .

« كنتم خير الناس للناس تأتون بهم في الأقياد والسلاسل حتى تدخلوهم الجنة . يبذل المسلمون أموالهم وأنفسهم في الجهاد لنفع الناس ، فهم خير الأمم للخلق ، والخلق عيال الله ، فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله »[1]

والمعروف الذي تشير إليه الآية ، اسم جامع لكل ما ينفع الجنس البشري ويرتقي بسلوكهم والعلاقات المتبادلة بينهم . ولذلك حين سأل رجل الرسول صلى الله عليه وسلم عن المعروف ، أجابه :

« لا تحقرن من المعروف شيئاً ، ولو أن تعطي صلة الحبل ، ولو أن تعطي شسع النعل ، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي ، ولو أن تنحي الشيء من طريق الناس يؤذيهم . ولو أن تلقىٰ أخاك ووجهك إليه منطلق . وإن سبك رجل بشيء يعلمه فيك وأنت تعلم نحوه فلا تسبه ، فيكون أجره لك ووزره عليه ، وما سر أذنك أن تسمعه فاعمل به ، وما ساء أذنك أن تسمعه فاجتنبه » .[2]

ومن الواضح أن التعريف النبوي لـ ـ المعروف ـ في الحديث المذكور ، لم يتناول المعروف كله ، وإنما راعىٰ مستوى السائل ، وبيئته ، ووجه انتباهه إلى ما يشيع في تلك البيئة . ولكن البحث الشامل فيما يوجه إليه القرآن والحديث يُظهر أن « المعروف » و « المنكر » يشملان شبكة العلاقات الاجتماعية بين الأفراد والشعوب والأمم ، وأن كل ما ينفع الإنسان ويورث الانسجام مع سنن الله وقوانينه في الخلق ، يندرج في قائمة « المعروف » ، وما يضر البشر ويصطدم مع هذه السنن والقوانين ، يندرج في قائمة « المنكر » .

أهمية الرسالة في وجود الأمة :

للرسالة أهمية رئيسة في نشأة الأمم وتكوينها ومصيرها ، وتبدو هذه الأهمية في الأمور التالية :

الأمر الأول : تتقرر مكانة الأمة بين الأمم على المستوى العالمي ، بمقدار ما تقدمه من عطاء حضاري للآخرين ، وهذا العطاء هو الرسالة التي تحملها الأمة بين الأمم الأخرى ، وتضع في خدمتها كافة إمكاناتها ومصادرها البشرية والمادية والمعنوية ، وهو ما يسميه المؤرخ البريطاني ـ توينبي **Toynbee** ـ الأناقة الحضارية ـ .

---

(١) ابن تيمية ، الفتاوي ، علم السلوك ، حـ ١٠ ، ص ٥٩ .
(٢) مسند أحمد ، حـ ١٩ ، (تصنيف الساعاتي) ، ص ٢٠١ .

والأمر الثاني : إن هذا العطاء الحضاري هو الضامن لبقاء الأمم واستمرارها . ذلك أن الأمة التي تتوقف عن العطاء تبدأ بالأخذ ، والأخذ الذي لا يرافقه عطاء متبادل سبب من أسباب الذوبان وفناء الأمم . ولكنه فناء بطيء ، لا يراه إلا العارفون بقوانين الاجتماع البشري وسنن التاريخ ، ولأنه يتم على مراحل تستغرق كل مرحلة منها جيلين أو ثلاثة .

- ففي المرحلة الأولى ، تأخذ الأمة الأشياء المادية كالمنتجات الصناعية والحربية .
- وفي المرحلة الثانية ، تأخذ الأمة العادات المادية ، كأشكال اللباس والأثاث وأشكال الطعام .
- وفي المرحلة الثالثة ، تأخذ الأمة المظاهر الثقافية ، كاللغات ونظم الإدارة والنظم الدبلوماسية والعلاقات الاجتماعية والفنون وأشكال الترويح .
- وفي المرحلة الرابعة ، تأخذ الأمة القيم والمقاييس الاجتماعية والأخلاقية .
- وفي المرحلة الخامسة ، تأخذ الأمة العقائد ، وعند هذه المرحلة تنهار جميع الحواجز ، ويبدأ الذوبان الكامل .

والأمم التي تعي قوانين هذا الذوبان تحاول أن تتجنبه من خلال تجديد دورها في العطاء الحضاري ، واستئناف العطاء ، ليتوفر لها البقاء والتميز في الداخل ، والاحترام في الخارج . من ذلك ما لجأت إليه اليابان من خلال تصدير فلسفة زن Zen ، ورياضة الجودو والكاراتيه ، وصبغ الصناعة اليابانية بأشكال الفن الياباني ، ومن خلال المحافظة على القيم والتقاليد اليابانية ، بما فيها خروج مجلس الوزراء إلى المعبد الرئيس للبوذية ، لتقديم اليمين الدستورية هناك .

والأمر الثالث الذي يمثل أهمية الرسالة في حياة الأمة هو أن الرسالة حاجة نفسية - اجتماعية ، والأمم التي تحمل رسالة ، تحفظ وحدتها ، وتجنب مجتمعها من الانقسام والتفتت والحزبية والطائفية والتصارع من أجل المصالح والعصبيات المحدودة . وتتناوب الظاهرتان بشكل كامل بحيث إن غياب إحداهما يؤدي إلى بروز الثانية ، ذلك أن الرسالة توحد أفراد الأمة وجماعاتها حول هدف أسمى ، يستهلك طاقاتهم ونشاطاتهم ، فتختفي الانقسامات والفتن . أما حين تغيب الرسالة ، فإن الناس تتقاسمهم أهداف فردية ومصالح عصبية ، وبذلك تبرز الحزبية والعصبيات ، وتشيع الفتن ، وتتفرق الأمة إلى فئات متنابذة متصارعة . وإلى هذا يشير قوله تعالى :

﴿ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ﴾ (التوبة : ٣٩) ، ولقد علق

ابن تيمية على هذه الآية فقال :

« قد يكون العذاب من عنده ، وقد يكون بأيد العباد . فإذا ترك الناس الجهاد في سبيل الله ، فقد يبتليهم بأن يوقع بينهم العداوة ، حتى تقع بينهم الفتنة كما هو في الواقع . فإن الناس إذا اشتغلوا بالجهاد في سبيل الله ، جمع الله قلوبهم وألف بينهم ، وجعل بأسهم على عدوهم وعدو الله . وإذا لم ينفروا في سبيل الله عذبهم بأن يلبسهم شيعاً ، ويذيق بعضهم بأس بعض » . (١)

وفي موضع آخر ، يحذر الله من نتائج التخلي عن حمل الرسالة ، وتكاليفها في الإنفاق والجهاد فيقول :

﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ (البقرة : ١٩٥) .

ولعل مناسبة الآية تلقي ضوءاً ساطعًا على الأثر المنيع للرسالة والجهاد في الحفاظ على وحدة الأمة ونجاتها . فحين كان المسلمون على أبواب القسطنطينية ، واصطفوا للقتال ، حمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيه ، ثم خرج مقبلاً فصاح الناس : سبحان الله ألقى بيديه إلى التهلكة !!

فقام أبو أيوب الأنصاري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

« أيها الناس إنكم تتأولون هذه الآية على غير التأويل ، وإنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار . إنا لما أعز الله تعالى دينه وكثر ناصريه قلنا بعض لبعض سراً من رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أموالنا قد ضاعت ، فلو أننا قمنا فيها ، وأصلحنا ما ضاع منها . فأنزل الله تعالى في كتابه يرد علينا ما هممنا به فقال : ﴿ وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ في الإقامة التي أردنا أن نقيم في أموالنا فنصلحها . فأمر بالغزو » . فمازال أبو أيوب غازيا في سبيل الله حتى قبضه الله عز وجل . (٢)

دور التربيـة في تعـزيز الرسـالة :

تتحمل التربية الإسلامية مسؤولية كبيرة إزاء بلورة هدف الرسالة ، ووسائل حملها ، وغرس الولاء لها . وذلك من خلال بلورة مضمون « رسالة العصر » التي يجب على الأمة

---

(١) ابن تيمية ، الفتاوى ، التفسير ، مجلد ١٥ . ص ٤٤ - ٤٥ .

(٢) الواحدي ، أسباب النزول ، ص ٣٧ - ٣٨ .
السيوطي ، لباب النقول ، ص ٣٧ . نقلا عن الترمذي وأبي داود وابن حبان والحاكم .

حملها . إذ لا يكفي لبلورة الرسالة تلك الصيحات الخطابية التي تتوالى في الكتب ، والمجلات ، والصحف ، والندوات ، وفوق المنابر : عودوا إلى الإسلام ! عودوا إلى الإسلام ! وإنما لا بد من مؤسسات تربوية ، ومعاهد فكرية ، ومراكز بحوث متخصصة وظيفتها بلورة علوم سياسية وإدارية ونفسية إسلامية يكون على رأسها كيفية إخراج الأمة المسلمة ، وصيانتها من الضعف والتفكك ، وتطويرها حسب متطلبات العصور والأجيال .

ولابد للتربية الإسلامية أن تعمق في نفوس ـ المتعلمين ـ الشعور بالمسؤولية إزاء الرسالة ، وأن تسهم في تحديد المهارات الجهادية ، ونوع الجهاد اللازم للزمان والمكان .

الفصل السابع

العنصر الرابع : الإيواء

الإيواء هو العنصر الرابع من العناصر التي تتكون منها الأمة . وللوقوف على تفاصيله ، لابد من النظر في أمرين : الأول : معنى الإيواء في القرآن والحديث . والثاني : التطبيقات العملية للإيواء في مجتمع المدينة المنورة ، زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، باعتبار ذلك المجتمع نموذج التطبيقات المطلوبة في بناء الأمة المسلمة ، وإخراجها .

معنى الإيواء :

أما عن معاني الإيواء في القرآن والحديث فهي كما يلي :

- الإيواء بمعنى الموطن ، ومكان الإقامة الدائمة . مثل قوله تعالى :

﴿ فَلَهُمْ جَنَّاتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (السجدة : ١٩) .

- الإيواء بمعنى حسن الاستقبال والتكريم . مثل قوله تعالى :

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾ (يوسف : ٦٩) .

- الإيواء بمعنى الرعاية والعناية . مثل قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾ (الضحى : ٦) .

﴿ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴾ (المعارج : ١٣) .

﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ (المؤمنون : ٥٠) .

- الإيواء بمعنى الاستقرار النفسي والاجتماعي . مثل قوله تعالى :

﴿ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ (الأحزاب : ٥١) .

وفي الحديث : « ألك امرأة تأوي إليها » مسلم ـ باب الزهد ـ ٣٧ .

- الإيواء بمعنى طلب الأمن والنجاة . مثل قوله تعالى :

http://www.al-maktabeh.com

﴿ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ . (الكهف : ١٠) .

﴿ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَاءِ ﴾ (هود : ٤٣) .

- الإيواء بمعنى السند والدعم والملجأ والحماية . مثل قوله تعالى :

﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ (هود : ٨٠) .

﴿ وَٱذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ ﴾ (سورة الأنفال : ٢٦) .

- الإيواء بمعنى الراحة والاسترخاء ، مثل قوله تعالى :

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ ﴾ (الكهف : ٦٣) .

« إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي » .

(صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، كتاب فضائل القرآن) .

وأما عن التطبيقات العملية للإيواء في مجتمع الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة ، فهي تتألف من أمرين اثنين كذلك ؛ الأول : ما قدمه الأنصار للمهاجرين من استقبال كريم ، وإقامة آمنة مريحة ، ومؤاخاة عملية قامت على المشاركة الكاملة في الحياة والعمل والمؤونة والمصير . والثاني : ما قام به الرسول صلى الله عليه وسلم من تنظيم للعلاقات الاجتماعية بين مختلف الجماعات التي سكنت المدينة في زمنه ، مستهدفاً تجسيد - الإيواء - في واقع عملي ينعم الجميع فيه بمقومات العيش الكريم ، ويكون - مثلاً أعلى - تقتدي به أجيال الأمة المسلمة من بعد .

مظاهر الإيـــواء :

تحتاج التربية الإسلامية إلى تعميق الإحاطة بمظاهر - الإيواء - حسب متطلبات الزمان والمكان ، في ضوء الخطوط العريضة التي يوجه إليها القرآن الكريم ، وأهم هذه الخطـــوط مايلي :

أولا : تقدير قيمة الأرض واستعمارها بالطرق التي وجه الله إليها :

يتكرر التوجيه الإلهي في القرآن الكريم إلى أن الأرض من أعظم نعم الله على الإنسان . والقاعدة الأساسية في الاستفادة من هذه النعمة ، أن يجد كل إنسان فيها - الإيواء - بمعانيه

الشاملة التي مرت ، وأن يعطى الجميع الفرصة لاستعمار الأرض ، والانتفاع بها ، وأن لا يجري احتكارها من قبل فئة ، أو طبقة ، أو شعب ، أو عرق معين . . وكل تنظيم للانتفاع بالأرض ومقدراتها يجب أن ينطلق من هذه القاعدة التي تسعى لتأمين ـ الإيواء ـ في الأرض للإنسانية كلها :

﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾ (الرحمن : ١٠) .

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرضِ وَاستَعمَرَكُم فِيهَا ﴾ (هود : ٦١) .

ولكن لما كان ـ الإيواء ـ بالمفهوم الذي يطرحه القرآن ، لايمكن فرضه على الإنسانية ابتداء وفي آن واحد ، فإن الحكمة الالهية ركزت على وجوب إخراج جماعة من البشر تدرب على تطبيق هذا الإيواء ، ثم تقدمه نموذجاً محسوساً للإنسانية كلها ، وهذه الجماعة المشار إليها هي : الأمة « المسلمة » .

ويتكرر ذكر الأرض في القرآن الكريم في ٤٤٦ موضعاً ، أما في الحديث الشريف فقد احتل ذكرها حيزاً يصعب عدده ، ويمكن تصنيف التوجيهات القرآنية والنبوية المتعلقة بالأرض إلى أربعة : **التوجيه الأول** ، هو حسن الانتفاع بالأرض ، كمكان للإيواء والسكن والاستقرار . . **والثاني** ، هو حسن الانتفاع بالأرض كمصدر للعيش والغذاء . . **والثالث** ، اشتراك الإنسانية كلها للانتفاع بموارد الأرض وخيراتها . . **والرابع** ، حسن الانتفاع بالأرض كمختبر من مختبرات المعرفة الموصلة إلى الله سبحانه وتعالى .

أما تفاصيل هذه التوجيهات ، فهي كما يلي :

١ ـ حسن الانتفاع بالأرض كمكان للإيواء والاستقرار :

الأساس في ـ الإيواء ـ أن يتوفر لكل إنسان ، مهما كان لونه أو جنسه أو عرقه ، حاجاته في الاستقرار المادي والنفسي ، بغية التفرغ لتحقيق حاجة أعلى هي الحاجة لتحقيق الذات المتمثلة في معرفة الخالق ، واستشراف قدرته وطاعته ومحبته ، ثم معرفة الحكمة من النشأة والحياة والمصير ، ولتحقيق هذا الهدف خلق الله الأرض للأنام ، ووضع في تكوينها كل المقومات والصفات ، التي تسهم في الوصول إلى هذا الهدف وتحقيقه .

ولتحقيق أسباب الاستقرار المادي ، أحسن الله خلق تضاريس الأرض ، وجمّلها ، ووفر فيها أسباب الرخاء والراحة ، حتى صارت بسهولها وجبالها ومائها وخضرتها وأجوائها والنباتات والحيوانات والطيور التي تزينها وتجمل الحياة فيها ، فراشاً ومهداً .

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرضَ فِرَاشًا ﴾ (البقرة : ٢٢) .

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرضَ مَهْدًا ﴾ (الزخرف : ١٠) .

﴿ وَٱلْأَرضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴾ (الذاريات : ٤٨) .

ولتحقيق أسباب الاستقرار النفسي ، أرسل الله رسله بالتوجيهات التي ترسخ مقومات هذا الاستقرار وتشيعه . . وتتكون هذه التوجيهات من قسمين : الأول ؛ قيم رئيسة كبرى يتفرع عنها قيم فرعية كثيرة ومتنوعة ، غايتها إشاعة الصلاح والإصلاح المفضي إلى الاستقرار ، وتجسيد « الإيواء » في الأرض ، وهذه القيم الرئيسة الكبرى هي :

١ ـ إشاعة العدل وجعله محور العلاقات البشرية . والآيات التي توجه إلى العدل في القرآن والحديث كثيرة جداً ، وأساسها أمثال قوله تعالى : ﴿ وَلَاتَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَاتَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴾ (هود : ٨٥) .

٢ ـ التواضع في الأرض واتخاذه أساساً للأخلاق ، وأساسه أمثال قوله تعالى : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنًا ﴾ (الفرقان : ٦٣) .

٣ ـ التوسط في « إنتاج » موارد الأرض « واستهلاكها » ، وأساس ذلك أمثال قوله تعالى :

﴿ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَاتُسۡرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَايُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ (الأعراف : ٣١) .

والأصل الذي تنبع منه هذه القيم الثلاث الرئيسة وفروعها الثانوية هو ـ معرفة الله ـ وتوحيده في العبادة والطاعة .

أما عن ـ القسم الثاني ـ من التوجيهات الإلهية ، فهي التحذير من ـ منكرات رئيسة كبرى ـ تقابل ـ القيم الكبرى الفاضلة التي مرّ ذكرها ، ومن هذه المنكرات تنبع جميع أشكال الإفساد في الأرض ، ويهدم استقرار الإنسان ، وهذه المنكرات الرئيسة هي :

١ ـ شيوع الظلم في الأرض وسريانه في العلاقات البشرية . ويتكرر التحذير من الظلم وآثاره المدمرة للاستقرار النفسي والمادي في مواضع كثيرة من القرآن والحديث ، ويتفرع عن الظلم مضاعفات ضارة لاحصر لها .

٢ ـ التكبر والعلو في الأرض ؛ ومايتفرع عن ذلك من مضاعفات العصبية والعدوان والبطش ، ولذلك يتكرر الحديث عن آثار « العلو » في الأرض ، وما جره من دمار على الذين اقترفوه ، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى :

﴿ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعًا ﴾ (القصص : ٤) .

ـ ﴿ ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ . إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمًا عَالِينَ ﴾ (المؤمنون : ٤٥ ـ ٤٦) .

ـ ﴿ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَايُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗا ﴾ (القصص : ٨٣) .

ـ ﴿ وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴾(الإسراء : ٤) .

- ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ (الأعراف : ١٤٦) .

- ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ، إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ (الإسراء : ٣٧) .

- ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ، وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ (لقمان : ١٨) .

٣ - الإسراف في « إنتاج » موارد الأرض و « إستهلاك » خيراتها ، ومايتفرع عن هذا الإسراف من تخريب وإفساد للأرض والبيئة ومصادر نعم الله وإحسانه . ويتكرر التنديد بالإسراف والتبذير ، ويرد مقترناً بالعلو في الأرض ، ويضع أهله في مصاف الشياطين الذين يرتكز فيهم غضب الله ومقته .

والمصدر الرئيس لهذه المنكرات الثلاثة - أو أم المنكر وأشكاله - هو الكفر بالله ، أو الشرك به ، ومعصيته ، والتنكر لهديه .

ويتكرر التحذير في القرآن الكريم من مغبة الإفساد في الأرض ، ومن محاربة رسالات الله التي تهدف إلى إشاعة الصلاح في الأرض ، وتوفير مقومات - الإيواء - فيها ، وحتى لاتكون التوجيهات الإلهية مجرد توجيهات نظرية ، كان « إخراج الأمة المسلمة » كطليعة بشرية تتعهد نشر الإصلاح ومحاربة الإفساد في الأرض ، وتهيئة الأرض كمكان للإيواء ، بمظاهره المختلفة ، وتجسيداً للاستقرار النفسي والمادي ، الموصل إلى الهدف الكبير : هدف معرفة الله ومحبته وطاعته ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ (الأنفال : ٧٣) .

٢ - حسن الانتفاع بالأرض كمصدر للعيش والغذاء :

الأرض أعظم مصادر العيش والحياة بدون منازع ، ويعتمد مستقبل أية أمة إلى حد كبير على الطريقة التي تستعمل بها الأرض . وحين كان الإنسان يحسن التعايش مع الأرض ، كانت الحضارات تقوم ، وحين يسيء هذا التعايش ، تنهار الحضارة ، وترحل إلى مكان آخر يحسن فيه إنسان آخر التعامل مع الأرض ، وهذه قاعدة تنطبق على أكثر من ثلاثين حضارة شاهدتها الأرض[1] .

والأساس في حسن الانتفاع بالأرض كمصدر للعيش ، قاعدتان : **الأولى** : الإقامة في الأرض حيث تتوفر الحرية - خاصة حرية العبادة :

﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (العنكبوت : ٥٦) ، أي هاجروا واستقروا حيث تستطيعون عبادتي عبادة شاملة غير مجزأة . . وعبادة متحررة من الضغوط المادية والنفسية والاجتماعية والفكرية ، **والثانية** : حرية السفر في مناكب الأرض كلها للتجارة والعمل ، وإلى هذه الحرية الثانية يشير القرآن بتعابير : « الضرب في

(1) E.Fritz Schumacher, Small is Beautiful (New York: Harper & Row Inc. 1973) PP. 102-103

http://www.al-maktabeh.com

الأرض » و « السعي في مناكبها » ، وتتكرر هذه الإشارة في كل من سور البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والمزمل .

ولايجوز أن يحول بين الناس وبين الضرب في الأرض والسعي في مناكبها والأكل من رزق الله ، عوائق التقسيمات الجغرافية ، والجنسيات العصبية ، وأيدولوجيات العلو والاستكبار ، وأخلاق الجشع والإسراف :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلأَرضَ ذَلُولاً فَامشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزقِهِ وإليهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ (الملك : ١٥) .

ولايجوز ـ أيضاً ـ أن تقف المعتقدات الدينية حواجز مادية مانعة أمام الانتفاع بمصادر العيش في الأرض ، ولذلك حين دعا إبراهيم عليه السلام ربه أن يخص « المؤمنين » من ساكني البلد الحرام بالأمن والثمرات ـ أي بنعمة الإيواء الأمني والمعيشي ـ جاءه الجواب الإلهي أن هذا « الإيواء » سوف يتمتع به « الكافرون » أيضاً في فترة الحياة الدنيا القليلة ، ثم يجزون على كفرهم في نار الآخرة :

﴿ وَإِذ قَالَ إِبرَ هِيمُ رَبِّ ٱجعَل هَـٰذَا بَلَدًا ءامِنًا وَٱرزُق أَهلَهُ مِنَ ٱلثَّمَرَ تِ مَن ءَامَنَ مِنهُم بِٱللهِ وَٱليَومِ ٱلآخِرِ ، قَالَ : وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئسَ ٱلمَصِيرُ ﴾ (البقرة : ١٢٦) .

ومن هذا المنطلق نزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يأمر أبابكر أن لايوقف نفقته على من قذف ابنته عائشة أم المؤمنين ، ويأمر الأنصار أن لايوقفوا إنفاقهم على القربى والأنسباء من اليهود ، الذين لم يستجيبوا للرسالة ـ كما مر في صفحات سابقة ـ لأن توفير « الإيواء » للكافر ، يهيىء له أن يتفرغ للتأمل في آيات الله ، وبراهين قدرته في الآفاق والأنفس .

وتتكرر التوجيهات الإلهية لأن يقوم الانتفاع بالأرض كمصدر العيش على تسميته ـ أكل الحلال الطيب ـ والتحذير من أساليب الشيطان التي توجه إلى ـ الحرام الخبيث :

ـ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلأَرضِ حَلَـٰلاً طَيِّبًا ، وَلاَتَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ ٱلشَّيطَـٰنِ إِنَّهُ لَكُم عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (البقرة : ١٦٨) .

ـ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَاكَسَبتُم وَمِمَّآ أَخرَجنَا لَكُم مِّنَ ٱلأَرضِ وَلاَ تَيَمَّمُواْ ٱلخَبِيثَ مِنهُ تُنفِقُونَ ﴾ (البقرة : ٢٦٧) .

ـ ﴿ قُل أَرءَيتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللهُ لَكُم مِّن رِّزقٍ فَجَعَلتُم مِّنهُ حَرَامًا وَحَلَـٰلاً ، قُل ءَآللهُ أَذِنَ لَكُم أَم عَلَى ٱللهِ تَفتَرُونَ ﴾ (يونس : ٥٩) .

وللانتفاع بخيرات الأرض منهجان ، لا ثالث لهما : فإما منهج الله في « الحلال الطيب » الذي يفرز مفاهيم في الاقتصاد تهيىء لجميع الناس الانتفاع الجسدي والنفسي والعقلي ، وتشيع التعاون والتكافل بينهم ، وتوفر للجميع التمتع بـ « الطيب » من الغذاء المؤدي إلى

العافية والرخاء ، وإما منهج الشيطان في « الحرام الخبيث » الذي يفرز نظريات في ـ الإنتاج والاستهلاك ـ تصيب البشر كلهم بالضنك النفسي والجسدي والعقلي ، وتشيع الاستغلال والاحتكار والابتزاز ونهب مقدرات الأفراد والشعوب ، لصالح أقليات مترفة ، تاركة للأكثرية الردىء ـ أو الخبيث ـ من الغذاء الجالب للأسقام ، ومضاعفات المجاعات والفتن في الأرض ، والفساد الكبير .

ويوجز الرسول صلى الله عليه وسلم الآثار المتبادلة للمنهجين بقوله :

« ليس بعد الحلال الطيب إلا الحرام الخبيث »[1] .

ويفصل الرسول صلى الله عليه وسلم التوجيهات القرآنية المتفرعة عن منهج « الحلال الطيب » وتطبيقاتها العملية في أحاديث كثيرة جداً يصعب حصرها ، منها مايلي :

ـ « مامن مسلم يغرس غرساً ، أويزرع زرعاً ، فيأكل منه طير ، أوإنسان ، أوبهيمة ، إلا كان له به صدقة »[2].

ـ « مامن رجل يغرس غرساً ، إلا كتب الله له من الأجر قدر مايخرج من ثمر ذلك الغراس»[3] .

ـ « إذا قامت القيامة وبيدك غرسة فاغرسها »[4] .

كذلك يوجه صلى الله عليه وسلم إلى وجوب إزالة المعوقات التي تحول دون استثمار الأرض وزراعتها ، وأهم هذه المعوقات : احتكارها ممن لايزرعون ولايعملون :

ـ « من كانت له أرض فليزرعها ، فإن لم يستطع أن يزرعها وعجز عنها ، فليمنحها أخاه المسلم ولا يؤاجرها إياه »[5] .

ـ « من كانت له أرض فليزرعها ، أو فليحُرثها أخاه ، وإلا فليدعها »[6]

ـ « وعن جابر بن عبد الله قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤخذ للأرض أجر أو حظ »[7] ، وعن نافع أن ابن عمر كان يكري مزارعه ، فبلغه أن رافع بن خديج يحدث أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن ذلك ، فدخل عليه ، وسأله ، فقال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى عن كراء المزارع ، فتركها ابن عمر بعد .[8]

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الأشربة .
(٢) صحيح البخاري : كتاب الحرث . ومثله : صحيح مسلم ، كتاب المساقاة والمزارعة .
(٣) مسند أحمد ، حـ ٥ ، ص ٤١٥ .
(٤) مسند أحمد ، حـ ٣ ، ص ١٨٤ ، ١٩١ .
(٥) صحيح مسلم (شرح النووي) ، حـ ١٠ ، باب كراء الأرض ، ص ١٩٧ .
(٦) نفس المصدر ، ص ١٩٩ .
(٧) صحيح مسلم ، حـ ١٠ ، باب كراء الارض ، ص ١٩٧ .
(٨) مسلم ، الصحيح ، (شرح النووي) ، حـ ١٠ ، باب كراء الارض ، ص ٢٠٢ .

ويلحق بالمعوقات التي تحول دون الانتفاع بالأرض : الاستيلاء عليها ظلمًا ، وعدم تمكين الآخرين من الاستفادة منها . والتحذيرات النبوية في هذا صارمة وحازمة ، منها قوله صلى الله عليه وسلم : « من اقتطع أرضا ظالماً ، لقي الله وهو عليه غضبان »[1] .

- « من أخذ من الأرض شيئاً بغير حقه ، خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين »[2] .

- « من أخذ من الأرض شيئاً ظلماً ، جاء يوم القيامة يحمل ترابها إلى المحشر »[3] .

وأبشع أنواع الظلم المعاصر هو استغلال النفوذ للاستيلاء على الأرض ، وتحويلها إلى سلعة تجارية باهظة الثمن ، لايقدر على دفعه إلا من أفنى عمره بالكد القاسي في أرجاء الأرض كلها ، من أجل الحصول على مأوى لا يتعدى المائة متر مربع .

ويرتبط بهذه التوجيهات ، ضرورة قيام التربية الإسلامية بإعادة النظر في مفاهيم التملك المطلق ، التي أشاعتها عصور الملك العضوض ، وبررت استيلاء أصحاب القوة والسلطان على الأرض رغم أنهم لا يعملون . والتربية - هنا - ملزمة أن تبني أصولها على نصوص القرآن والحديث وتطبيقات السنة وعصر الراشدين ، وكل فهم يستبدل فتاوى « علماء السلاطين والخلفاء » في الماضي ، أو « علماء السلطة » في الحاضر ، بنصوص الوحي والسنة الصريحة في عدلها وإرشادها ، فإنما يندرج تحت قوله تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ (التوبة : ٣١) . وحينما سئل صلى الله عليه وسلم عن معنى ربوبية الأحبار والرهبان أجاب : أنهم أحلوا الحرام وحرموا الحلال [4] .

ولابد للتربية الإسلامية أن تجتهد في تنمية حب العمل ، وجعله من محاور القيم في الأمة ، واعتباره الوسيلة الكريمة للعيش الكريم ، حتى لا يفسح المجال للوسائل غير الكريمة التي تنال من عنصر « الإيواء » وتفسده . ولابد للتربية الإسلامية كذلك أن تنفر من العجز والكسل اللذين عززهما قيم العصبية ، التي تحتقر العمل وتجعله من مهام الخدم والعبيد والمستضعفين . فالعجز مبغوض من الله ، مدان من الرسول صلى الله عليه وسلم . ومن أمثال ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله عز وجل ليلوم على العجز . قابل من نفسك الجهد ، فإن غلبت ، فقل : توكلت على الله وحسبي الله ونعم الوكيل »[5] .

ولابد للتربية الإسلامية أن تزكي القيم من المفاهيم الخاطئة للزهد ، التي عززت الرضى بالفقر ، وجعلته من سمات الصلاح والصالحين . فالمؤمنون مدعوون - في القرآن - للسعي في مناكب الأرض كلها لجمع المال ، فإذا جمعوه بالأساليب المشروعة الكريمة ، زهدوا به ،

---

(١) مسلم ، الصحيح (شرح النووي) حـ ٢ ، كتاب الايمان .
(٢) البخاري ، الصحيح ، كتاب المظالم .
(٣) الطبراني ، المعجم الكبير ، حـ ٢٢ ، ص ٢٦٩ ، رقم ٦٩٠ .
(٤) الطبري ، التفسير ، حـ ١٠ (تفسير آية ٣١ من سورة التوبة) ص ١١٤ - ١١٥ .
(٥) الطبراني ، المصدر السابق ، حـ ٨ ، ص ١١٢ ، رقم ٧٤٧٥ .

فأنفقوه وانتفعوا به ، ونفعوا غيرهم بالأساليب المشروعة ، التي تحفظ الكرامات ، ولا توقع تحت ضغوط الفاقة والحاجة . فهذا هو مفهوم الزهد الذي وجه إليه صلى الله عليه وسلم حين علّم أصحابه أن الزهد ليس بإضاعة المال ، وتحريم الحلال ، وإنما الزهد أن يكون المؤمن أوثق بما في يد الله مما في يده فيعتدل في جمعه ، ويسهل عليه إنفاقه[1] .

وتتكرر التوجيهات النبوية في هذا المجال حتى لا تدع مجالا للغموض أو اللبس ، من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :

- « خيركم من لم يترك آخرته لدنياه ، ولا دنياه لآخرته ، ولم يكن كلا على الناس » .
- « من استطاع منكم أن يقي دينه وعرضه بما له ، فليفعل » .
- « إن الفاقة لأصحابي سعادة ، وإن الغنى للمؤمن في آخر الزمان سعادة » .
- « ياجابر لا عليك أن تمسك مالك ، فإن لهذا الأمر مدة »[2] .
- « يأتي على الناس زمان من لم يكن معه أصفر ولا أبيض ، لم يتهنَّ للعيش » .
- إذا كان آخر الزمان لابد للناس فيها من الدراهم والدنانير ، يقيم الرجل بها دينه ودنياه »[3] .

ولقد وعىٰ فقهاء الصحابه هذه التوجيهات ، وعلموها للشعوب التي خرجت إليها بعوثهم الثقافية ، من ذلك ما وجه إليه معاذ بن جبل معلم الشام واليمن حين قال :

- « يا ابن آدم أنت محتاج إلى نصيبك من الدنيا ، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج . فإن بدأت بنصيبك من الآخرة مر بنصيبك من الدنيا ، فانتظمها انتظاماً . وإن بدأت بنصيبك من الدنيا ، فاتك نصيبك من الآخرة ، وأنت من الدنيا على خطر »[4] .

والواقع أن القعود عن العمل ، وجمع المال ، والسيطرة على موارده من قبل غير المؤمنين ، أضر بالإسلام والمسلمين والناس أجمعين في الداخل والخارج . ففي الداخل أخرس ألسنة العلماء عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعن مواجهة الظالم بظلمه ، بل تحول الكثير منهم إلى أدوات تبرر الظلم وتسوغه . أما في الخارج فإن حاجة الشعوب والأمم إلى المال ، أجبرتها في كثير من المواقف والسياسات ، إلى التنازل عن كراماتها واستقلالها وقيمها في الفضائل الإنسانية .

ولابد للتربية أن تتوسع في تشخيص ـ المشورات المدمرة ـ التي قدمها خبراء التربية الغربيين للأقطار الإسلامية في العصر الحديث . وكان من ثمارها تنظيم المناهج ، وبناء آلاف المدارس والجامعات ، التي تخرج الآلاف من المختصين بتحليل شعر بعر الآرام ، ووصف المواقد ومرابض الجمال ، والغزل والتشبيب ، وتاريخ الغزوات القبلية ،

---

(١) الترمذي ، السنن ، كتاب الزهد . ابن ماجه ، السنن ، كتاب الزهد .
(٢) المتقي الهندي ، كنز العمال ، حـ ٣ ، ص ٢٨٣ ـ ٢٤٠ .
(٣) الطبراني ، المعجم الكبير ، حـ ٢٠ ، ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩ رقم ٦٥٩ ، ٦٦٠ .
(٤) ابن تيمية ، الفتاوى ، كتاب الجهاد ، حـ ٢٨ ، ص ٣٩٦ .

والفتن ، بينما لم يؤسسوا إلا مدرسة زراعية أو صناعية واحدة ، تقام في زاوية معزولة من زوايا القطر النائية ، ثم لايجد خريجوها العمل ، أو الاحترام ، ويكونون عينة مرعبة ، لما سيكون عليه المتخصص في الزراعة أو الصناعة .

٣ ـ اشتراك الأمة كلها للانتفاع بمصادر الثروة العامة ، وعدم احتكارها من قبل فئة أو طبقة . وهو مايوجه إليه قوله تعالى :

ـ ﴿ كَي لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُم ﴾ « الحشر : ٧ » .

وفي تفسير الطبري : أن الحكمة من قوله تعالى :

ـ ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ ﴾ « البقرة : ١٨٨ » .

إشارة إلى أن المال للأمة مجتمعة . فـ « الباطل » هو أن يحتكره البعض دون البعض الآخر ، أو يستأثر بوافره دون الآخرين . لأن الأصل في مفهوم الأمة المسلمة أنها كالجسد الواحد ، وأن الغاية هي توفير أمنها مجتمعة ، فإذا ظهر التفاوت وصار المال دولة بين الأغنياء وحدهم ، انعكست آثار ذلك على الجميع ، ولم ينج من الأمة أحد ، وإنما الأمر يختلف بتوقيت الهلاك ، حيث يهلك المحرومون أولا ، ثم يتبعهم المحتكرون . فالأصل في المال أنه لله ، وأن الأمة كلها مستخلفة عليه ، ولها مجتمعة حق الانتفاع به ، شريطة أن لايخرج مفهوم المال عن كونه « ماعونًا » يعين الناس على إقامة أمور دينهم ودنياهم . وفي تفسير الصحابة لقوله تعالى :

ـ ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ « التوبة : ٣٤ » .

هناك تفاسير متنوعة تتكامل جميعها لتقرر وجوب انتفاع الأمة كلها بمصادر الثروة ، وعدم احتكارها من قبل فئات أو طبقات معينة .

ففريق على رأسه ـ علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ـ يرون أن الكنز هو كل مازاد عن أربعة آلاف درهم ، أديت فيه الزكاة أم لم تؤدَّ .

وفريق على رأسه ـ أبو ذر الغفاري وسالم بن الجعد رضي الله عنهما ـ يرون أن كل مازاد من المال عن حاجة صاحبه فهو كنز .

وفريق على رأسه ـ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ـ يرون أن الكنز هو كل مال وجبت فيه الزكاة ، ولم تؤدَّ زكاته[1] .

ولقد قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم الأشعريين نموذجاً يجسد « الإيواء » ويمثل التطبيق الأمثل لمبدأ المشاركة العامة بالثروة . والأشعريون هم جماعة من المسلمين ينسب إليهم الصحابي أبو موسى الأشعري رضي الله عنه . ولقد كان من « فقههم » لـ « الإيواء »

---

(١) الطبري ، تفسير البيان ، حـ ١٠ ، ص ١١٧ ـ ١٢١ .

والمشاركة العامة في الثروة أنهم لايكنزون شيئاً دون بعضهم . فإذا انتابهم قحط في أيام السلم ، أوحلت بهم ضائقة اقتصادية في أيام الحرب ، جمعوا ماعندهم من المال والغذاء ، ثم اقتسموه بالتساوي .

ولقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم عملهم هذا بقوله :

« إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو ، أوقل طعام عيالهم في المدينة ، جمعوا ماعندهم في ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم ، في إناء واحد بالسوية ، فهم مني وأنا منهم »[1] .

أي هم على سنتي ، وهم النموذج الذي يمثل هذه السنة .

ولاشك أن كلا من الآية والحديث المذكورين يشير إلى أن الأصل في الاقتصاد الإسلامي هو ضمان حاجات الأمة مجتمعة . ولذلك يتوجب على التربية الإسلامية أن تضع في محور القيم الاقتصادية التي تنميها وجوب الاقتداء بأمثال « فقه الأشعريين » ، و« فقه علي بن أبي طالب » ، و « فقه أبي ذر وسالم بن الجعد » من الصحابه بهدف بلورة : علم اقتصاد إسلامي ، ونظم اقتصادية إسلامية قادرة على إعادة التوازن في حاجات الأمة ، كلما نزلت بالأمة أزمات اقتصادية ، أوحدثت في صفوفها فروق طبقية ، وهو الأمر الذي عزم الخليفة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ على فعله حينما قال : عزمت على أخذ فضول أموال أغنيائهم وردها إلى فقرائهم .

والواقع أن تربية الرسول صلى الله عليه وسلم للمجتمع الذي بناه ، قامت على جعل هذا التوازن الاقتصادي محور الحياة الاجتماعية ، لأنه يجسد المظهر الاجتماعي للعبادة . وهذا المظهر هو محور صدق العبادة ، كما تم تفصيل ذلك في كتاب ـ فلسفة التربية الإسلامية ـ والأمثلة لهذه السياسة النبوية كثيرة جداً . ومن أمثلتها قوله صلى الله عليه وسلم :

ـ « المسلمون شركاء في ثلاث : في الماء ، والكلأ ، والنار »[2] .

---

(١) صحيح مسلم (شرح النووي) حـ ١٦ ، كتاب فضائل الصحابة .
صحيح البخاري ، كتاب المغازي .

★ لابد للتربية الإسلامية وهي تعمل على رسوخ القيم الاقتصادية العادلة أن تراعى ظروف الزمان والمكان فيما يخص تطبيق هذه القيم . فاذا كانت وسيلة الأشعريين في التطبيق قد نابت مجتمع المدينة الصغير فان تعقيد العلاقات واتساع المجتمعات يستدعى وسائل مناسبة شريطة الحفاظ على روح المبدأ المشار إليه .

(٢) مسند أحمد (تحقيق الساعاتي) ، حـ ١٥ ، ص ١٣٢ ، رقم ٢٣ .

★ لقد حض الرسول صلى الله عليه وسلم على عدم بيع الماء ونهى عن حجب الزائد منه في عدة أحاديث . ولقد أورد البخاري في كتاب الحرث ، ومسلم في كتاب المساقاة والمزارعة مثل هذه التوجيهات : منها قول جابر : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ضراب الجمل ، وعن بيع الماء ، والأرض لتحرث . أي تؤجر لتزرع . وفي حديث آخر :

« ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم . رجل حلف على سلعة لقد أعطي بها أكثر مما أعطي وهو كاذب . ورجل حلف على يمين كاذبة بعد العصر ليقتطع بها مال رجل مسلم . ورجل منع فضل ماء فيقول الله : اليوم أمنعك فضلي كما منعت ما لم تعمل يداك » .

http://www.al-maktabeh.com

والإشارة إلى الموارد الثلاثة بالأسماء الواردة في الحديث ، إنما هي إشارة إلى مقومات الحياة الرئيسة في تلك البيئة الصحراوية ، في تلك المرحلة من تاريخ المجتمع الإسلامي ، فإذا تبدلت البيئة وتطورت المرحلة انسحبت حكم الشراكة على ـ مقومات الحياة الرئيسة ـ للعيش فيها أيضا . إذ الأساس في « الإيواء » هو توفير الأمن الاقتصادي والاجتماعي ، المفضي إلى الأمن الديني في مهجر الأمة . وكل ملكية فردية تزول وتتحول إلى الأمة ، إذا قامت الحاجة لذلك . ومن توجيهات الرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك :

ـ « كل شيء سوى جلف هذا الطعام ، والماء العذب ، أوبيت يظله ، فضل ليس لابن آدم فيه حق »[1] .

ـ « ما عظمت نعمة الله على عبد إلا اشتد عليه مؤونة الناس . فمن لم يحتمل تلك المؤونة للناس ، فقد عرض تلك النعمة للزوال »[2] .

ـ « إن لله أقواماً يختصهم بالنعم لمنافع العباد ، ويقرها فيهم مابذلوها إلى غيرهم ، فإذا منعوها نزعها منهم ، فحولها إلى غيرهم »[3] .

ـ « إن إبليس يبعث أشد أصحابه ، وأقوى أصحابه إلى من يصنع المعروف في ماله »[4] .

٤ ـ حسن الانتفاع بالأرض كمصدر للمعرفة الموصلة إلى الله تعالى :

إن مظاهر الانتفاع بالأرض التي مرت في البنود (١ ، ٢ ، ٣) ليست أهدافاً نهائية في ذاتها وإنما أهداف خاصة تفضي إلى هدف عام أكبر وهو : حسن الانتفاع بالأرض باعتبارها أحد مختبرات الآفاق والأنفس التي يشاهد الإنسان فيها معجزات الله في خلقه ، وشواهد ربوبيته ، وبراهين توحيده في الطاعة والمحبة والولاية . وإلى هذا الهدف العام الكبير يوجه أمثال قوله تعالى :

ـ ﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ « الجاثية : ٣ » .

ـ ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ « الذاريات : ٢٠ » .

وتتنوع مظاهر المعرفة التي يوجه القرآن إلى ميادينها في الأرض :

فهناك توجيهات إلى علوم « أصل الأنواع » ونشأة المخلوقات . والطريقة التي يرشد إليها القرآن في هذا الميدان ، هي السير في الأرض ، ودراسة ماعلى سطحها من كائنات ومخلوقات :

---

(١) كنز العمال ، حـ ٣ ، ص ٣٩٨ نقلا عن الطبراني في الكبير .

(٢) كنز العمال ، حـ ٦ ، ص ٣٤٧ نقلا عن البيهقي في شعب الايمان .

(٣) المتقى الهندي ، كنز العمال ، حـ ٦ ، ص ٣٥٠ نقلا عن الطبراني في الكبير ، والحلية لأبي نعيم .

(٤) المصدر نفسه : ص ٣٤٩ نقلا عن الطبراني في الكبير .

﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾ « العنكبوت : ٢٠ » .

وهذا المنهج طبّقه « دارون » حين سار في الأرض مبتدأ من جنوب أمريكا الجنوبية ، ولكنه - بسبب منهج المعرفة الذي يفصل بين الوحي والعقل والحواس - ضل الفهم ، وأخطأ تفسير ظواهر الخلق التي درسها . واليوم يكتشف العلماء الكثير من أخطاء « دارون » ومنهجه في البحث ، ولكن يبدو أنه اكتشاف متأخر لأن آثار أخطاء « دارون » قد ترسخت في تطبيقات أفكاره في السياسة والاجتماع والاقتصاد والتربية والأخلاق والقيم ، وأفرزت آثاراً مدمرة في حياة الفرد وعلاقات الجماعات .

وهناك توجيهات إلى مختلف العلوم الطبيعية المتعلقة بالأرض والكواكب ، وما على الأرض من كائنات حية وجامدة ، ومن أمثال هذه التوجيهات :

- ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ﴾ « فاطر : ٤١ » .

ولقد اكتشفت البشرية بعض أدوات هذا الإمساك المتمثلة في الجاذبية وقوانينها ، ولكن افتقارها لتوجيهات الوحي أعماها عن - الحق - في هذا الاكتشاف .

- ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ ﴾ « الزمر : ٥ » .

- ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ « البقرة : ١٦٤ » .

وهناك توجيهات إلى علوم الاجتماع البشري الذي جرى على الأرض ، ودعوة للتنقيب في آثار المجتمعات السابقة ، واكتشاف الأسباب التي أدت إلى انهيارها ، وعمل سنن الله فيها :

- ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ « الروم : ٩ » .

وخلال هذا التوجيه ، يلفت القرآن الكريم الانتباه إلى أن كثيراً من الأجيال السابقة ، قد عمرت الأرض وجعلت العلوم التي ساعدتها على التمكين في الأرض غاية بذاتها ، وفرحت بها ، وتكبرت ، وبطرت ، وانصرفت عن الغاية الكبرى ، وهي طاعة الله ، وتجسيد هذه الطاعة في - الإصلاح في الأرض - فكان مصيرها أن نزل بها ما كانت تستهزىء بالآخرين منه ، من ضعف وتخلف وانهيار . وهذا هو الخطر الذي يتهدد الحضارة الحديثة التي فتنها التقدم العلمي والتكنولوجي ، فراحت تحارب الله ورسله في كل الميادين ، وترتكب نفس الخطأ في الفرح بالعلم ، والوقوف عند ثمراته المادية ، دون الانتقال إلى غاياته الإيمانية .

- ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ . فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ « غافر : ٨٢ - ٨٣ » .

وتتكرر الدعوة إلى السير في الأرض ، شريطة أن تكون غايات هذا السير استعمال أدوات المعرفة من العقل والسمع والبصر للبحث عن مظاهر الحق في خلق الأرض ، لا سير الغافلين عما يرون ويسمعون ، الباحثين عن المتع الدنسة والشهوات الهابطة :

- ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ، أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ « الحج : ٤٦ » .

والنتيجة النهائية لهذا السير في الأرض والبحث في خلقها ، وما عليها ، والأحداث التي جرت فوقها ، هي تخريج نوع من البشر يظلون في - قراءة - دائمة لآيات الآفاق والأنفس ، وذكر دائم ، جوهره : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ، وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ « آل عمران : ١٩١ » .

ثانيا - والمظهر الثاني لعنصر « الإيواء » ، هو تنمية قيم الاستقرار والزواج ، وتكوين الأسر ، وما يتفرع عن ذلك من توفير للسكن ووسائل المواصلات ، واعتبار الموجود منها في عداد الملكية العامة إذا اقتضت الظروف ذلك .

وتقدم التوجيهات النبوية أصولا عقدية لمثل هذه القيم ، من ذلك مارواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه ، عن الرسول صلى الله عليه وسلم :

« من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له . ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له » . قال : فذكر من أصناف المال ماذكر ، حتى رأينا أنه لاحق لأحد منا في فضل[1] .

وفي مواقف أخرى يحذر الرسول صلى الله عليه وسلم من مستقبل الاحتكار في وسائل النقل ، وفي المسكن . فعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« تكون إبل للشيطان ، وبيوت للشياطين . فأما إبل الشياطين فقد رأيتها ؛ يخرج أحدكم بجنيبات معه قد أسمنها ، فلا يعلو بعيراً منها ، ويمر بأخيه قد انقطع به فلا يحمله . وأما بيوت الشياطين فلم أرها »[2] .

والإشارة إلى الإبل ، رمز لوسائل المواصلات ، وهي تتغير بتغير العصر وتقدم

---

(١) مسلم ، الصحيح (شرح النووي) ، حـ ١٢ ، ص ٣٣ .
(٢) ابو داود ، السنن ، حـ ٣ ، باب الجهاد ، ص ٣٩ .

التكنولوجيا ، ومثلها الإشارة إلى البيوت . ومعنى ـ لم أرها ـ أي لم توجد زمن الرسول ، وإنما ستأتي في أزمان بعده ، حين يحتكر المأوى ، ويمتلك أناس عشرات المنازل الفارغة ، والمباني الشاهقة ، بينما ملايين المسلمين ، يأوون إلى الخرائب ، ويفترشون الطرقات الأرضية ، وتكون مهجراتهم في الأرض في سبيل المأوى والغذاء .

غير أن بناء المساكن وإقامة المباني في القيم الإسلامية محدودة بحدود الغايات الكبرى من ـ الإيواء ـ . فالبناء يكون في قمة الأعمال الصالحة ، إذا كان الهدف منه إيواء المحتاجين للمأوى ، وجمع قلوب الأمة على الصلاح والعدل والتعاون .

ومن هذا المنطلق كان الترغيب في بناء المساجد ، والبنايات التي يأوي إليها المحتاجون . والتوجيهات النبوية في ذلك كثيرة ومتنوعة . من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :

- « من بنى مسجداً يبتغي به وجه الله ، بنى الله له بيتا في الجنة »[1] .
- « إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علما ينشره ، وولداً صالحا تركه ، ومصحفا ورّثه ، أو مسجداً بناه ، أو بيتا لابن السبيل ، أو نهراً أجراه ، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته ، يلحق من بعد موته »[2] .

أما أن تكون المساكن والأبنية إظهاراً للعلو في الأرض ، وتجسيداً للطبقية والترف ، وتمييزاً للأغنياء عن الفقراء ، وتعطيلاً لمساحات واسعة من الأرض عن الزراعة والغرس ، فذلك عبث ، ولهو طائش ، من يقترفه خارج عن تقوى الله وطاعته .

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ . وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ « الشعراء : ١٢٨ ـ ١٣١ » .

ولقد فسر ابن عباس وتلميذه مجاهد : الريع ، بأنه كل مكان مشرف من الأرض مرتفع . . والآية : البنيان . . والعبث ، البناء لمجرد التفاخر . . والمصانع : القصور المشيدة[3] .

والرسول صلى الله عليه وسلم يجرد من الأجر كل إنفاق على البناء الذي لاحاجة له أو يستهدف الزينة والمباهاة . من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :

- « النفقة كلها في سبيل الله ، إلا البناء فلا خير فيه »[4] .

وعن قيس بن أبي حازم قال : إنهم دخلوا على الصحابي ـ خباب ـ وهو يبني حائطاً فقال : إن المسلم يؤجر في كل شيء ينفقه ، إلا في شيء يجعله في هذا التراب[5] .

---

(١) صحيح مسلم ، فضل بناء المساجد ، باب الزهد .
(٢) صحيح البخاري ، باب الصلاة ، باب التطوع .
سنن ابن ماجه ، المقدمة .
(٣) الطبري ، التفسير ، حـ ١٩ ، ص ٩٤ ـ ٩٥ . تفسير ابن كثير . تفسير سورة الشعراء .
(٤) الترمذي ؛ السنن ، باب القيامة .
(٥) صحيح مسلم ، كتاب الايمان ، الترمذي ؛ السنن ، كتاب القيامة .

http://www.al-maktabeh.com

ولذلك ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم أنه حين يذهب العلم ، ويفشو الجهل ، فإن الناس يتنافسون في تشييد البناء ، تفاخراً ولهواً ، حتى إن سكان الخيام في البادية يشاركون في هذه المنافسة . من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :

- « من أشراط الساعة إذا تطاول رعاء البهم في البنيان »[1] .
- « وإذا رأيت الحفاة العراة ، الصم البكم ، ملوك الأرض ، فذاك من أشراطها ، وإذا رأيت رعاء البهم يتطاولون في البنيان ، فذاك من أشراطها »[2] .

ثالثا ـ والمظهر الثالث لـ « الإيواء » هو حرمة إقامة الإنسان ، وعدم طرده أو نفيه من مكان ـ إيوائه ـ :

فالقرآن الكريم يشدد على ـ حرمة الإيواء ـ وعدم إخراج الإنسان من سكنه وموضع استقراره ، بسبب الخصومات التي تثيرها اختلافات الرأي ، أو الولاءات العصبية ، والانتماءات الحزبية ، أو المصالح المختلفة . من ذلك قوله تعالى :

- ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَاتَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَاتُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ . ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ « البقرة : ٨٤ ـ ٨٥ » .

ولقد استعرض الطبري تفاسير الصحابة وتلاميذهم لهذه الآية ، فذكر أن قتل الرجل رجلا آخر ، مثل قتل الرجل نفسه . وإن إخراج الرجل رجلا آخر من مكان إيوائه ، كإخراجه لنفسه ، لأن الأمة بمنزلة رجل واحد ، كما قال عليه الصلاة والسلام ، وإنهم في تراحمهم وتعاطفهم بمنزلة الجسد ، إذا اشتكى بعضه تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر .

ويضيف الطبري ، نقلاً عن قتادة قوله في الآية : أي لايقتل بعضكم بعضا ، و (لاتخرجون أنفسكم من دياركم) . ونفسك ياابن آدم أهل ملتك ـ أي أمتك ـ . وعن أبي العالية في قوله تعالى : « وإذ أخذنا ميثاقكم لاتسفكون دماءكم » ، أي لايقتل بعضكم بعضا ، (ولا تخرجون أنفسكم من دياركم) يقول : لايخرج بعضكم بعضا من الديار[3] .

وتتضاعف خطورة نفي الإنسان وإخراجه من مكان إيوائه ، إذا كان المنفيون من الرسل والدعاة ، ورجال الفكر ، والعلم ، الذين يكرسون جهودهم لإصلاح ما أفسد الناس . وإلى هذه الخطورة كانت الإشارة في قوله تعالى :

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الاستئذان . وكرره في كتاب الفتن ، وكتاب الايمان .
(٢) صحيح مسلم ، كتاب الايمان .
(٣) الطبري ، التفسير ، حـ ١ ، ص ٣٩٤ .

- ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ، وَإِذاً لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلاً ، سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ، وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾ « الإسراء : ٧٦ - ٧٧ » .

هذه هي سنة الله التي مضت في جميع الرسالات من قبل ، وهي سنة ماضية مستمرة ، فحين تخرج الأمم رسلها ودعاتها ، وتنفيهم ، ينزل بها العذاب المدمر ، ولن تجد لسنة الله هذه تحويلا . وعن ابن عباس رضي الله عنهما : إنها نزلت في أهل مكة حين أخرجوا الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه ، فعذبهم الله بعد قليل من إخراجه بقتلهم يوم بدر[1] .

رابعا - والمظهر الرابع لـ « الإيواء » هو الربط بين الأمن المعيشي والأمن الديني :

يقترن الأمن المعيشي بالأمن الديني ، اقتران الوسيلة بالهدف . فإذا انهدمت الوسيلة وتعطلت فاعليتها ، صعب تحقيق الهدف . ولذلك يوجه القرآن الكريم - في دعاء إبراهيم عليه السلام - إلى أن توفر الأمن المعيشي ، والأمن الاجتماعي ، سبب في عبادة الله وشكره :

- ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ، رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ « إبراهيم : ٣٧ » .

وتتكرر توجيهات الرسول صلى الله عليه وسلم إلى العلاقة بين العبادة والأمن المعيشي ، من ذلك مايرويه الصحابي أبو واقد الليثي - رضي الله عنه - حيث قال :

- « كنا نأتي النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزل علينا ، فيحدثنا . فقال لنا ذات يوم : إن الله عز وجل قال : إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة . ولو كان لابن آدم واد لأحب أن يكون إليه ثان . ولو كان له واديان لأحب أن يكون إليهما ثالث . ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب . ثم يتوب الله على من تاب »[2] .

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ ، قال ابن زيد : افترضت الصلاة والزكاة جميعا ، لم يفرق بينهما - وقرأ الآية - وأبى الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة . وقال : رحم الله أبا بكر ما كان أفقهه !

وعن عبد الله بن مسعود قال : أمرتم بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، ومن لم يزك فلا صلاة له ![3] .

---

(١) الطبري ، التفسير ، تفسير سورة الاسراء (آية ٧٦ - ٧٧) ، حـ ١٥ ، ص ١٣٣ .

(٢) مسند أحمد (شرح الساعاتي) ، حـ ٥ ، ص ٢١٩ . الاتحافات السنية بالأحاديث القدسية . نقلا عن أحمد والطبراني في الكبير .

(٣) الطبري ؛ التفسير ، حـ ١٠ ، ص ٨٧ .

فالصلاة ـ إذن ـ لاتقوم معانيها في واقع الحياة ، إلا إذا اقترنت بإيتاء الزكاة .

والرسول يربط ـ أيضا ـ بين الأمن المعيشي ، وبين شفاء الإنسان من الجريمة ، والشح ، والانحراف . وكأن الأمة المسلمة مسؤولة عن توفير الوسائل والمأوى اللذين يوفران للمجرمين والمنحرفين الشفاء من أمراضهم وانحرافاتهم ، من خلال تلبية حاجاتهم ، التي أدت بهم إلى الإنحراف . فعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قال رجل لأتصدقنّ بصدقة . فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق . فأصبحوا يتحدثون : تصدق على سارق . قال : اللهم لك الحمد ، لأتصدقنّ بصدقة ! فخرج بصدقته ، فوضعها في يد زانية . فأصبحوا يتحدثون : تصدق على زانية . فقال : اللهم لك الحمد على زانية ! لأتصدقن بصدقة . فخرج بصدقة فوضعها في يد غني . فأصبحوا يتحدثون : تصدق على غني . فأتي فقيل له : أما صدقتك على سارق ، فلعله أن يستعف عن سرقته ، وأما الزانية فلعلها أن تستعف عن زناها ، وأما الغني فلعله يعتبر فينفق مما أعطاه الله »[1] .

خامسا ـ والمظهر الخامس لـ « الإيواء » هو الربط بين الإيواء والفاعلية السياسية والإدارية :

وحتى يصبح « الإيواء » حقيقة قائمة في الحياة الاجتماعية ، لابد من توفير الضمانات الكافية له ، وعلى رأسها الوسائل الإدارية والسياسية التي تضمن للإيواء تحققه واستمراره .

ولقد اعتمد تنفيذه في صدر الإسلام على تقوى الحاكم ، ورسوخه في علمه . من ذلك ماقام به أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ من رفض حازم لعرض المرتدين لأداء الصلاة دون الزكاة ، حتى لاتتعطل فاعلية الصلاة في حياة الناس ، وتتحول تحت ضغط الحاجات المادية إلى طقوس وحركات شكلية .

ومثله عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ الذي حرص على أن لايتميز الخلفاء والولاة عن غيرهم في مظاهر العيش . من ذلك كتابه إلى أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ الذي جاء فيه :

« إنما أنت رجل منهم (أي من المسلمين) ، غير أن الله جعلك أثقلهم حملا . وقد بلغني أنه نشأ لك ولأهل بيتك هيئة في لباسك ، ومطعمك ، ومركبك ، ليس للمسلمين مثلها . فإياك ياعبد الله أن تكون بمنزلة البهيمة مرت بواد خصب ، فلم يكن لها هم إلا التسمن ، وإنما حتفها في السمن ، واعلم أن العامل إذا زاغ زاغت رعيته ، وأشقى الناس من شقيت به رعيته »[2] .

---

(١) صحيح البخاري ، باب الزكاة .

(٢) كنز العمال ، حـ ٥ ، ص ٦٩٦ نقلا عن الدينوري .

وحين كتب إليه عمرو بن العاص من مصر : « إنا قد خططنا لك داراً عند المسجد الجامع ! » .

رد عليه الخليفة عمر قائلا :

« أنى لرجل من الحجاز تكون له دار بمصر ؟ » ، وأمره أن يجعلها سوقاً للمسلمين[1] .

ثم حدد صلاحية الحاكم بالنسبة لمال الأمة بقوله :

« إني أنزلت مال الله تعالى مني بمنزلة اليتيم : إن استغنيت استعففت ، وإن افتقرت أكلت بالمعروف ، فإذا أيسرت قضيت »[2] .

وفي رواية أخرى :

« يحل لولي الأمر مايحل لولي اليتيم ، من كان غنيا فليستعفف ، ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف »[3] .

ومثله مافقهه علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ حين قال :

« إن الله فرض على الأغنياء في أموالهم بقدر مايكفي فقراءهم ، وإن جاعوا وعروا وجهدوا ، فبمنع الأغنياء ، وحق على الله أن يحاسبهم يوم القيامة ويعذبهم عليه »[4] .

ولكن التاريخ أثبت أن هذا الحرص الذي التزمه أبو بكر ، والاستعفاف الذي تحلى به الخليفة عمر ، والحس الاجتماعي العادل المرهف الذي أوتيه علي رضي الله عنهم ، لم يتصف به إلا أبو بكر ، وعمر ، وعلي ، ونفر لم يتعد أصابع اليد . لذلك لايجوز أن يترك مصير « الإيواء » المعيشي والاجتماعي لتقوى الحاكمين ومشيئتهم ، وإنما لابد أن توجه التربية إلى صون هذا الإيواء وحمايته ، بالتشريعات والمؤسسات ، التي تقيد القائم عليه ، وتجعله عرضة للاستجواب ، والاستفسار ، والمحاكمه إن أتى مايخرق هذا الحرص ، والاستعفاف ، والتشريع .

كذلك لايجوز أن تترك صدقات الفقراء لمشيئة الأغنياء ، ليبذلوا الفضلات ، والفتات ، والدارهم ، والقروش ، التي لاتسد حاجة ، ولا توقف عوزاً ، وإنما لابد من التشريعات وضرائب الضمان الاجتماعي ، التي توفر حاجة الأمة في « الإيواء » بالأساليب الكريمة التي لاتنال من كرامات الناس ، ولاتعرضهم للمن والأذى ، إذا لم تكف الزكاة لذلك .

---

(١) كنز العمال ، حـ ٥ ، ص ٦٨٧ نقلا عن تاريخ مصر لابن عبد الحكم .

(٢) الطبري ، التفسير ، حـ ٤ ، ص ٢٥٥ .

(٣) الطبري ، نفس المصدر والجزء ، ص ٢٥٨ .

(٤) كنز العمال ، حـ ٦ ، ص ٥٢٨ نقلا عن سنن البيهقي .

أهمية الإيواء :

واستناداً إلى معاني « الإيواء » ومظاهره ، يتضح دور الإيواء ، وأهميته في الأمة التي يوجهها روح هذا العنصر . وتتجلى هذه الأهمية فيما يلي :

أولا : الأمة التي يوجه الحياة فيها عنصر « الإيواء » ، أمة مفتوحة الأبواب للمؤمنين من جميع الأجناس ، فليس هناك حواجز مادية ، ولا عوائق قانونية ، مما تفرزه روابط الدم والإقليم . بل تكون جنسية المسلم هي عقيدته . وبها ـ فقط ـ تتحدد مكانته الاجتماعية ، وتتيسر إقامته ، ونشاطاته .

ثانيا : حين يوجه « الإيواء » ممارسات الأمة ، يرتاح الناس من أسباب الصراع الطبقي والعنصري ، ولاتظهر مظاهر هذا الصراع ومضاعفاته . ويتوفر لكل إنسان فرص الاستقرار الاجتماعي والفكري والنفسي ، ويتوفر له الزواج وتكوين الأسرة والمأوى الذي يقيه من غوائل البرد والحر والتشرد ، ويمنحه الستر والراحة .

ثالثا : والأمة التي يوجه علاقاتها « الإيواء » تتمحور قيمها الاجتماعية حول ـ المظهر الاجتماعي ـ للعبادة . وتتوفر فيها الضمانات والخدمات العامة كالتعليم والصحة وفرص العمل ، وغير ذلك مما يحمي الإنسان من الجهل والمرض والفقر وآثار الحوادث والشيخوخة والنوازل المختلفة .

رابعا : حين تسود قيم « الإيواء » في الأمة ، تتمحور قيمها الإدارية حول « الإعداد والتخطيط » بدل « الارتجال والتفريط » ، وتعد للمستقبل عدته ، وبذلك تحفظ مجتمعها من الأزمات ، وحضارتها من الانحطاط والانهيارات .

خامسا : حين يشكل « الإيواء » بعض مكونات الأمة ويغذي دعائمها ، لاتسمح بارتفاع الأسعار ارتفاعاً ينسف مفهوم الإيواء ، ويطرد الأفراد في هجرات معاكسة إلى الخارج . فلا سماح أبداً بزيادة النفقات عن الدخول ، ولاتترك للاحتكار والاستغلال منفذاً ليهز أركان الأمة ويضعف تماسكها وروابطها .

مسؤولية التربية إزاء عنصر ـ الإيواء ـ :

تتجلى مسؤولية التربية الإسلامية إزاء عنصر ـ الإيواء ـ في الأمور التالية :

الأول : بلورة مضامين مظاهر الإيواء التي مرت في البحث ، حسب مقتضيات التطور الاجتماعي الذي تمر به الأمة ، زمانا ومكانا ، وترجمتها إلى تطبيقات عملية حسب الحاجات والتحديات .

والثاني : إفراز المؤسسات العلمية التي تطور مضامين ـ الإيواء ـ إلى علوم متخصصة ، تنمو وتتشكل حسب حاجات الزمان والمكان .

والثالث : اقتراح المؤسسات الإدارية والتنفيذية التي تضمن تجسيد عنصر ـ الإيواء ـ في شبكة علاقات اجتماعية تهتدي بالأصول الإسلامية ، مع مراعاة الاستفادة من مظاهر الحكمة عند الآخرين ، والتجاوب مع الشؤون المتجددة .

والرابع : تعميق الولاء لعنصر ـ الإيواء ـ ومؤسساته وتطبيقاته ، والغيرة عليها كلها من عدوان المتسلطين أو المحتكرين ، إلى درجة الغيرة على الأعراض والحرمات ، لأن في غياب الإيواء ومؤسساته وتطبيقاته ، تعريض الأعراض للامتهان ، والحرمات للتدنيس .

والخامس : تطوير علم اقتصاد إسلامي يبدأ بنصيب الآخرة ، ويمر بنصيب الدنيا ـ كما قال معاذ بن جبل ـ وبذلك تبرز نظريات وتطبيقات اقتصادية تتطابق مع أصول الإيواء في القرآن والسنة ، وتفنيد النظريات الاقتصادية ـ التي تبدأ بنصيب الدنيا وتضر بنصيب الآخرة ـ وتشيع الاحتكار والرأسمالية ومضاعفاتها في الطبقية ، والترف والفقر والتلاعب بالأسعار والمضاربات ، وغير ذلك من تطبيقات الداروينية الاجتماعية التي يتصف بها الاقتصاد الحديث .

والسادس : تطوير مفهوم إسلامي للعمل ، يحتقر العجز والكسل ، ويحارب الاحتيال والجشع ، ويثمر السعادة بالعيش ، والاستمتاع بالعلاقات والمعاملات .

http://www.al-maktabeh.com

الفصل الثامن

العنصر الخامس: النصرة

النصرة هي العنصر الخامس من العناصر المكونة للأمة المسلمة . وللوقوف على مضمون هذا العنصر لابد من النظر في أمرين : الأول : معنى النصرة في القرآن والحديث ، والثاني : المناسبات التي اقترنت بالتوجيهات التي عالجت هذا العنصر ، والتطبيقات التي جسدته في مجتمع النبوة والخلفاء الراشدين .

معنى النصرة :

يتردد ذكر مصطلح ـ النصرة ـ ومشتقاته في القرآن والحديث لتعني مايلي :

- النصرة : بمعنى اتباع دين الله ، والجهاد في سبيله ، وطاعة أوامره ، واجتناب معاصيه . مثل قوله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ « محمد : ٧ » .

- النصرة بمعنى التأييد والمساعدة على التفوق والغلبة . مثل قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ « آل عمران : ١٢٣ »

﴿ لَّقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا ﴾ « التوبة : ٢٥ » .

- النصرة بمعنى المؤازرة . مثل قوله تعالى :

﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ « الأعراف : ١٥٧ » .

وفي الحديث : « النساء ينصر بعضهن بعضاً » ، البخاري ، كتاب اللباس .

« من نصر قومه على غير حق فهو كالبعير » ، أبو داود ، السنن ، كتاب الأدب ، ١١٢ .

- النصرة بمعنى الحماية . مثل قوله تعالى :

﴿ وَيَـٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ﴾ « هود : ٣٠ » .

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ

لِصَـٰحِبِهِ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ « التوبة : ٤٠ » .

- النصرة بمعنى مساندة الحق وإشاعة العدل . مثل قوله تعالى :

﴿ مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾ « الصافات : ٢٥ » .

- النصرة بمعنى الثأر ودفع العدوان مثل قوله تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ﴾ « الشورى : ٣٩ » .

وفي الحديث : « دونك فانتصري »[1] .

« من دعا على من ظلمه فقد انتصر »[2] .

- النصرة بمعنى منع الظلم ودفعه إذا وقع . مثل قوله صلى الله عليه وسلم :

« أمرنا بعيادة المريض ونصرة المظلوم »[3] .

« من أذل عنده مؤمن ، فلم ينصره وهو يقدر على نصره ، أذله الله على رؤوس الأشهاد يوم القيامة »[4] .

« يقول الله عز وجل : وعزتي وجلالي لأنتقمن من الظالم في عاجله وآجله ، ولأنتقمن ممن رأى مظلوماً فقدر على أن ينصره فلم ينصره »[5] .

أما عن المناسبات التي اقترنت بالتوجيهات القرآنية والنبوية التي عالجت عنصر النصرة ، وأدرجته في العناصر المكونة للأمة الإسلامية فهي : أولا ذلك الالتزام الكامل الذي قام به الأنصار قولاً وعملاً لنصرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ونصرة المهاجرين معه ، ومن أجل ذلك أطلق عليهم اسم (الأنصار) . . وهي ثانيا : تلك التضحية الكاملة التي قدمها المهاجرون حين اقتلعوا أنفسهم من المجتمع الجاهلي وثقافته اقتلاعاً كاملاً ، ثم أوقفوا هذه الأنفس لنصرة دين الله سبحانه وتعالى : وهي ثالثاً : إقامة الفريقين مجتمعين لمعاني الإسلام في واقع حياتهم ، في المجتمع النبوي والراشدي ، ثم الخروج إلى العالم كله لإقامة هذه المعاني في حياة الآخرين .

مظاهر النصرة :

يتحقق عنصر ـ النصرة ـ في حياة الأمة المسلمة من خلال المظاهر التالية :

١ ـ نصرة « أفكار » الرسالة الإسلامية في مواجهة طغيان « الأشخاص » وزخرف « الأشياء » ، وتفصيل ذلك كالتالي :

---

(١) مسند أحمد ، وسنن ابن ماجه ، باب النكاح .

(٢) سنن الترمذي ، كتاب الدعوات .

(٣) سنن النسائي ، كتاب الجنائز .

(٤) مسند أحمد (شرح الساعاتي) ، حـ ١٩ ، ص ٦٩ ، رقم ١٢٠ .

(٥) المتقي الهندي ، كنز العمال ، حـ ٣ ، ص ٥٠٥ نقلا عن الطبراني في المعجم الكبير .

يتكون كل مجتمع من ثلاثة عناصر رئيسة هي : الأفكار ، والأشخاص ، والأشياء . وتكون الأمة في أعلى درجات الصحة ، حين تكون « نصرة » الأفكار هي المحور الذي يدور في فلكه « الأشخاص والأشياء » . ففي هذه الحالة يخلف « أشخاص » المؤمنين الرسول في نصرة أفكار الرسالة ، فتظهر (الخلافة) وتتحدد مواقع الأفراد ووظائفهم طبقا لمقياسين : الأول : مدى القدرة على حمل الرسالة ، أي فقهها وتطبيقها . والثاني : مدى الإخلاص في هذا الحمل . والقرآن يطلق على كل من القدرة والإخلاص ، اصطلاحي : القوة ، والأمانة . وذلك عند قوله تعالى : ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ « القصص : ٢٦ » . وفي آية أخرى يسميها : التمكين ، والأمانة . وذلك عند قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ « يوسف : ٥٤ » . والقوة هنا تعني (الجدارة) وهي شاملة ذات مظاهر عديدة . فهي في ميدان الحكم تدور حول الحكم بالعدل ، كما دل عليه القرآن والسنة ، وحول القدرة على تنفيذ الأحكام . والقوة في ميدان العسكرية تدور حول شجاعة القلب ، والخبرة العسكرية . وهكذا في بقية ميادين الحياة كالتربية والإدارة ، والاقتصاد ، والصناعة وغيرها .

أما ـ الأمانة ـ فتدور حول الولاء الذي من أجله تبذل القدرة : أهو لـ « أفكار » الرسالة ، أم لـ « الأشخاص » ، أم لـ « الأشياء » !! ؟

ويتسرب الخلل إلى عنصر ـ النصرة ـ حين تطغى نصرة « الأشخاص » على نصرة « الأفكار » . والتطبيقات العملية لهذا الطغيان تتمثل في ـ امتلاك ـ أصحاب العصبيات الأسرية ، أو القبلية ، أو الطائفية ، أو العرقية ، أو الإقليمية ، لـ « الأفكار والأشياء » ، ثم توظيفها معا لدعم مكانة « أشخاص » العصبيات ونفوذهم . وتتحدد مراكز الأفراد ووظائفهم طبقًا لمدى استعمالهم لصفتي : القوة ، والأمانة ، في خدمة هذه العصبيات . وهذا ماحذر أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ، منه يزيد بن أبي سفيان ـ رضي الله عنهما ، كما روى ذلك يزيد نفسه فقال :

« قال أبو بكر لما بعثني إلى الشام : يايزيد إن لك قرابة عسى أن تؤثرهم بالإمارة ، وذلك أكبر ما أخاف عليك . فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من ولي من أمور المسلمين شيئاً فأمرَّ عليهم أحداً ، محاباة له بغير حق ، فعليه لعنة الله ، لايقبل الله منه صرفاً ولا عدلا حتى يدخله جهنم ، ومن أعطى أحداً من مال محاباة فعليه لعنة الله . أو قال : برئت منه ذمة الله . إن الله دعا الناس أن يؤمنوا فيكونوا حمى الله . فمن انتهك في حمى الله شيئاً بغير حق ، فعليه لعنة الله . أو قال : برئت منه ذمة الله عز وجل »[1] .

---

(١) المتقي الهندي ، كنز العمال ، جـ ٥ ، ص ٦٦٥ نقلا عن مسند أحمد ، وعن ابن شعبة البغدادي .

ومن هذا الهدي النبوي ـ الراشدي ، استوحى ابن تيمية آراءه في هذا الشأن فقال : « فان عدل عن الأحق الأصلح إلى غيره ، لأجل قرابة بينهما ، أوولاء عتاقة ، أوصداقة ، أومرافقة في بلد ، أومذهب ، أوطريقة أوجنس ، كالعربية ، والفارسية ، والتركية ، والرومية ، أولرشوة يأخذها من مال ، أومنفعة ، أوغيرذلك من الأسباب ، فيما نهى الله عنه في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لاتخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾ ، ثم قال : ﴿ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم ﴾ ، فإن الرجل لحبه لولده أولعتيقه ، قد يؤثره في بعض الولايات ، أو يعطيه مالا يستحقه ، أو محاباة من يداهنه في بعض الولايات ، فيكون قد خان الله ورسوله ، وخان أمانته »[1] .

ولما كانت « الأشياء » ، ومانجسده من مال وزخارف الحياة المادية ، هي الوسيلة الرئيسة التي يستعملها « أشخاص » العصبيات للحصول على النصرة ، فإنه سرعان ماتصبح نصرة « الأشياء » هي المحور الذي تدور في فلكه « الأفكار والأشخاص » ، وتصبح الهيمنة في الأمة لأرباب المال ، والتجارات ، وصانعي الشهوات ، وتسود ثقافة الاستهلاك والترف ، وتتمزق شبكة العلاقات الاجتماعية ، وتصبح الأفكار والقيم بعض سلع التجارة ، ومواد الاستهلاك والدعايات السياسية والاقتصادية ، ويتوقف التفكير الموضوعي ، ويحل محله الهوى ، وتتحدد ميادين التربية بحدود هذه الثقافة الاستهلاكية ، وينشغل الناس بأشيائهم وحاجاتهم اليومية ، ويعودون كالجاهلية همّة أحدهم لاتتعدى بطنه وفرجه ، لايعرف معروفاً ، ولا ينكر منكراً . وتكون المحصلة النهائية لهذا التحول هو السعي ـ لامتلاك ـ « الأشياء » ، فتظهر ظاهرة ـ الملك القسري ـ أي الذي يُتوصل إليه بالقسر والعنف ، والانقلابات الدموية ، والفتن .

ويلخص الحديث النبوي هذا التطور السلبي من ـ نصرة ـ « أفكار » الرسالة حتى « نصرة الأشياء » ، عند قوله صلى الله عليه وسلم :

« إن هذا الأمر بدأ رحمة ونبوة ، ثم يكون رحمة وخلافة ، ثم كائن ملكاً عضوضاً ، ثم كائن عتواً وجبرية وفساداً في الأرض ، يستحلون الحرير والفروج ، ويرزقون على ذلك وينصرون »[2] .

والمجتمعات التي تدور في فلك الأفكار الصحيحة ، تتفوق على تلك التي تدور في فلك الأفكار الخاطئة ، كما كانت حال الأمة المسلمة في صدر الإسلام ، وتفوقها على مجتمعات الرومان وفارس وغيرها . ولكن المجتمعات التي تدور في فلك الأفكار الخاطئة ، أو التي

---

(١) ابن تيمية ؛ الفتاوى ، كتاب الجهاد ، جـ ٢٨ ، ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩ .

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ٨ ، ص ٢٠ نقلا عن الطبراني باسناد جيد . ومثله عند ابن تيمية ، الفتاوى ، جـ ٣٥ ، ص ١٩ نقلا عن مسلم . ومسند أحمد ، جـ ٤ ، ص ٢٧٣ .

يختلط فيها الصحيح والخاطىء ، فهذه تتفوق على المجتمعات التي تدور في فلك الأشخاص والأشياء ، وتهزمها كما هو الحال ـ الآن ـ في تفوق المجتمعات الغربية على مجتمعات العالم الثالث ـ ومنه العالم العربي والإسلامي الحديث .

والشكل الذي تنتظم طبقا له عناصر الأفكار والأشخاص والأشياء ، يحدد نوع التربية وتطبيقاتها ، في الثقافة والعلوم ، ونظم الحياة المختلفة . فعندما تكون « الأفكار » هي المحور الذي يدور في فلكه « الأشخاص والأشياء » ، فإن التربية تتخذ مثلها الأعلى ـ وخبراتها التي تضمنها مناهجها وتطبيقاتها من ميدان الأفكار ، ودرجة التزام الأشخاص بها ، وتجسيد الأشياء لها ، في الماضي والحاضر والمستقبل . ويكون من ثمار التربية بناء حضارة تدور حول تطبيقات الأفكار ، وتجسيدها في مسيرة الاجتماع البشري .

أما حين يحتل « الأشخاص » مركز المحور الذي تدور في فلكه « الأفكار والأشياء » ، فإن التربية تتخذ ـ مثلها الأعلى ـ وخبراتها التي تضمنها مناهجها وتطبيقاتها ، من ميدان « الأشخاص » ، ومدى فاعلية قوتهم في الماضي والحاضر والمستقبل ، واستعمال الأشياء لتنفيذ إرادتهم .

وأما حين تكون « الأشياء » هي المحور الذي تدور في فلكه « الأفكار والأشخاص » ، فإن التربية تتخذ ـ مثلها الأعلى ـ وتنتقي خبراتها المنهجية ، وتطبيقاتها العملية ، من ميدان الأشياء وتاريخها وحاضرها ومستقبلها ، ومدى تأثيرها في عالم الأفكار والأشخاص على المستوى المحلي والعالمي . ويكون من ثمار التربية ، بناء حضارة مادية تدور حول تطبيقات الأشياء وتجسيدها في مسيرة الاجتماع البشري . وهذه هي حال التربية الحديثة التي يدور محور « النصرة » فيها حول « الأشياء » ، كما أن العلوم والثقافات والآداب والفنون التي أفرزتها ـ وتفرزها ـ هي أيضا تتخذ مثلها الأعلى (وتنتقي) خبراتها من الدوران في فلك « الأشياء » ، في حين يدور كل من « الأفكار » و« الأشخاص » في فلك « الأشياء » ويستثمران من أجل توفير الأشياء وتحسينها . والتجسيد العملي لهذا كله هو حضارة « الإنتاج والاستهلاك » التي يقودها الغرب المعاصر ، وتؤثر في العالم كله .

٢ ـ نصرة العدل في مجابهة الطغيان والتسلط :

ويمثل هذا المظهر محور عنصر النصرة ، بل هو جوهره وغايته ، لأن العدل في حقيقته تجسيد لـ « أفكار » الرسالة ، ومثلها ، وقيمها ، وبقائها المحور الذي يدور في فلكه « الأشخاص والأشياء » . أما الظلم فحقيقته أن تندحر الأفكار والمثل والقيم ، من محور الاجتماع البشري إلى هوامشه ، لتدور في فلك أهواء « الأشخاص » الأقوياء ، الذين يهيمنون على محور الاجتماع البشري ، ويديرون « الأفكار والأشياء » في فلكهم ، لبقاء سلطانهم ، ودوام تملكهم . فالعدل ـ إذن ـ هو روح شبكة العلاقات الاجتماعية الذي يمنحها الحياة والبقاء . وغياب العدل يلغي مبرر وجود الأمم (ومنها الأمة الإسلامية) ولذلك

قال أبو الحسن الخزرجي : الملك مع العدل والكفر يدوم ، ولكن الملك مع الإسلام والظلم لايدوم . وجيوش الفتح الإسلامي حين خرجت إلى العالم ، إنما خرجت لرفع الظلم عن الشعوب ، أما اعتناق الإسلام ، فقد تركته لاختيار الشعوب المحررة ، لتتبين وحدها الرشد من الغي ، دون إكراه في الدين ، ولتختار واحداً من اثنين : إما الإسلام ، وإما الجزية ، التي تسوي غير المسلم بالمسلم الذي يدفع الزكاة ويخدم في الجيش لحماية الجميع من الظلم .

لذلك تضافرت مصادر التربية الإسلامية على إدانة الظلم ، وتنفير المسلم منه في جميع مظاهره وأشكاله .

فالقرآن يسوي بين مصير المظلومين الذين يسكتون على الظلم ، وبين الظالمين الذين يمارسون الظلم :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ، قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ « النساء : ٩٧ » .

وفي المقابل يشيد القرآن بالذين يرفضون الظلم ، ويتناصرون لمقاومته ، ويستنهض هممهم لمنازلته :

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ . وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ، فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ . وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ . إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ « الشورى : ٣٩ ـ ٤٢ » .

والرسول صلى الله عليه وسلم يجعل خنوع الأمة ، وعدم تناصرها لمقاومة الظلم ، من العلامات الدالة على موتها ، وانتهاء مبررات وجودها :

« إذا رأيت أمتي لايقولون للظالم منهم أنت الظالم ، فقد تُوُدِّعَ منها »[1] .

ويقول أيضا :

« إن الله لايعذب العامة بعمل الخاصة حتى تكون العامة تستطيع تغيّر على الخاصة . فإذا لم تغير العامة على الخاصة ، عذب الله العامة والخاصة »[2] .

وكان من ثمار هذه التربية في عصر النبوة أن قامت روابط النصرة في مجتمع الراشدين على تعشق العدل والتضحية في سبيله ، وصارت طاعة الحاكم مرهونة بمدى تقيده بالعدل واحترام الحريات . كان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ في مجلس ، وحوله المهاجرون

---

(١) مسند أحمد ، (تصنيف الساعاتي) ، حـ ١٩ ، ص ١٧٥ .

(٢) مسند أحمد ، حـ ٤ ، ص ١٩٣ .

والأنصار ، فقال : « أرأيتم لو ترخصت في بعض الأمور ماكنتم فاعلين ؟ فسكتوا ، فقال ذلك مرتين أو ثلاثاً .

فقال بشر بن سعد : لو فعلت ذلك قومناك تقويم القداح ـ أي السهم ـ !

فقال عمر : أنتم إذاً ! أنتم إذاً[1] .

(أي أنتم إذن الرجال الممثلون للأمة المسلمة الحقة) .

ولم يكن هذا موقفا نادراً أو موقوتاً في سياسة عمر رضى الله عنه ، بل إن جميع مواقف عمر كانت من جنس هذا الموقف ، لأن عمر لم يكن حاكماً فقط ، وإنما كان مربياً يرسي تقاليد ثقافة جديدة ، في السياسة والاجتماع والاقتصاد ، ويريد لهذه الثقافة أن تتحدر في تاريخ الأمة ، وفي أعرافها ، وقيمها ، ونظمها ، وتقاليدها ، وأن يصبح العدل والحرية محور هذه الثقافة . وحقا إنه كان في ذلك عبقرياً لم يفر فريه عبقري آخر في الإسلام .

٣ ـ نصرة الحرية في مجابهة الاستعباد :

وهذا المظهر من مظاهر النصرة ، يمثل محور عقيدة التوحيد ، ويجسدها في واقع اجتماعي ، يصهر الفروق بين الأفراد والجماعات ، ويقضي على الفروق الطبقية التي يمكن أن تتحول إليها ـ درجية المسؤولية الاجتماعية ـ . ولذلك كان غياب الحرية في حقيقته ، هو غياب التوحيد ، لأن حقيقة التوحيد أن لا يخشىٰ الإنسان الموحد إلا الله ، وغياب الحرية معناه خشية غير الله . ولقد فسر الطبري قوله تعالى : ﴿ يَعْبُدُونَنِي لَايُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً ﴾ إن معنى لايشركون بي شيئاً هو : أنهم لايخافون غيري من جبابرة السلاطين والأشخاص[2] .

وهذا يضع على التربية الإسلامية مسؤولية كبيرة في تنمية تعشق ـ الحرية ـ ونصرتها ، والغيرة عليها ، والدفاع عنها ، إذا انتهكت ، كالغيرة على الأعراض والحرمات . ويتفرع عن ذلك تنمية الوعي بقيمة التعبير عن الرأي ، لأن الأمة التي يوجهها عنصر ـ النصرة ـ أمة تدرك قيمة النقد الذاتي ، ـ أو التوبة حسب التعبير الإسلامي ـ وأثره في دوام صحتها وعافيتها ، فلا تتراكم آثار الممارسات الخاطئة ، حتى تنفجر في فتن مدمرة ، تأتي على كيان الأمة دفعة واحدة . ولابد للتربية الإسلامية أن تدرب متعلميها على ممارسة كلا من حرية الرأي ، والنقد الذاتي ، بحيث تنطبق عليهما المواصفات التي توجه إليها أمثال قوله تعالى : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً ﴾ (البقر : ٨٣) و ﴿ جَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل ١٢٥) و ﴿ وَقُل لَّهُم فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً ﴾[3] (النساء : ٦٣) وبذلك لايتحول النقد أو التعبير إلى

---

(١) كنز العمال ، حـ ٥ ، ص ٦٨٧ ـ ٦٨٨ .

(٢) الطبري ، التفسير ، حـ ١٨ ، ص ١٥٨ ـ ١٥٩ ، سورة النور ـ آية ٥٥ .

(٣) سورة البقرة ، ٨٣ ، سورة النحل ـ ١٢٥ ، سورة النساء ـ ٦٣ .

سباب ومهاترات ، تزرع الأحقاد ، وتبذر الفتن ، وإنما يقوم على تشخيص الظواهر الاجتماعية ، وتحليل مقدماتها ونتائجها بغية التعرف على الممارسات والمسارات الخاطئة للتوبة منها ، واكتشاف الصحيحة للرجوع إليها .

ونحن نلمح في طريقة نزول الوحي ، مايشجع على ظاهرة ـ التعبير عن الرأي الرفيع ـ والتساؤل البناء ، فحينما تساءلت نسيبة بنت كعب ، المشهورة بأم عمارة ، وصاحبة المواقف البطولية في أحد وحروب الردة : فقالت : يانبي الله ! مالي أسمع الرجال يذكرون في القرآن ، والنساء لايذكرن ؟ فأنزل الله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَاتِ ، وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ ، وَٱلْقَانِتِينَ وَٱلْقَانِتَاتِ ، وَٱلصَّادِقِينَ وَٱلصَّادِقَاتِ ، وَٱلصَّابِرِينَ وَٱلصَّابِرَاتِ ، وَٱلْخَاشِعِينَ وَٱلْخَاشِعَاتِ ، وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَاتِ ، وَٱلصَّائِمِينَ وَٱلصَّائِمَاتِ ، وَٱلْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَافِظَاتِ ، وَٱلذَّاكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيراً وَٱلذَّاكِرَاتِ ، أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ (الأحزاب : ٣٥) .

ومع اعتقادنا الراسخ بكمال العلم الإلهي ، إلا أننا نرى في مناسبة الآية واستجابة الوحي لطلب ـ نسيبة ـ وأخواتها ، بعض مظاهره الحكمة الإلهية ، التي شكلت الأحداث ، لتعلم جيل الصحابة ـ والأمة المسلمة ـ درساً في التعبير عن الرأي ، وأهميته ، ولو كان الذي يعبر عن رأيه امرأة ، ولو كان الموضوع الذي يدور حوله التساؤل هو أسلوب الوحي !! فإذا كان الأمر كذلك ، فليس هناك من بني البشر من هو فوق التساؤل والنقد الإيجابيين !!

وعلى هذا النهج ، سارت الحياة في المجتمع النبوي والعهد الراشدي . فحين تولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخلافة ـ مثلا ـ كتب إليه أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل رضي الله عنهم ، من الشام رسالة مشتركة يذكرانه بالمسؤولية التي عهدت إليه ، ويحذرانه مغبة القصور عنها . ومما جاء فيها : « أصبحت وقد وليت أمر هذه الأمة ، أحمرها وأسودها ، يجلس بين يديك الشريف والوضيع ، والعدو والصديق ، ولكل حصته من العدل . فأنت كيف أنت عند ذلك ياعمر ! فإنا نحذرك يوماً تعي فيه الوجوه ، وتجف فيه القلوب ، وتقطع فيه الحجج بملك قهرهم بجبروته ، والخلق داخرون له : يرجون رحمته ويخافون عقابه » .

وتلقى عمر الكتاب فلم تأخذه عزة السلطان ، وإنما شكر لهما النصيحة والتواصي ، وكتب يطمئنهما إلى ما أوصيا به ، ثم أضاف :

« كتبتما به نصيحة تعظاني بالله أن أنزل كتابكما سوى المنزل الذي نزل من قلوبكما . فإنكما تكتبان به وقد صدقتما ، فلا تدعا الكتاب لي ، فإني لاغنى بي عنكما ، والسلام عليكما »[1] .

---

(١) الطبراني ؛ المعجم الكبير ، حـ ٢٠ ، ص ٣٢ ـ ٣٣ رقم ٤٥ .
على المتقى الهندي ؛ كنز العمال ، حـ ١٦ ، ص ١٦٠ ـ ١٦١ نقلا عن ابن ابي شيبة .

وكما أسلفنا ، فإن أمثال عمر لم يتعدوا أصابع اليد في تاريخ المسلمين . لذلك فإن من ضمانات مبادىء الحرية والعدل التي أراد عمر إرساءها واستمرار « نصرتها » ، أن لاتترك هذه المبادىء إلى ورع الحاكم وأخلاقه ، بل تحرس بالتشريع وبالمؤسسات ، وأن لايكون هناك سلطة فردية مطلقة ، وفردية التصرف معناها : العصمة من الخطأ ، والعصمة معناها : عدم النقد ، بل تحريمه وتجريمه ، وعدم النقد معناه تشجيع الحاكم على الطغيان ، وبقاء الطغيان والظلم مدى الحياة ، معناه : أن لاتجد الأمة سبيلاً للتلخص من الطاغية إلا بالانقلابات ، والثورات الدموية ، والفتن المدمرة !! التي تنتهي إلى مرض الأمة ، وموتها .

ولتجنب هذه السلسلة من السلبيات والمضاعفات المهلكة ، لابد للتربية الإسلامية من التشريعات وبناء المؤسسات ، وتقنين القيم السياسية ، وأن ترفع انتخاب الحاكم وتقنين القيم السياسية وجماعية القيادة إلى مرتبة فروض الدين لأن هذا ما توجه إليه روح الشورى ، التي يوجه إليها القرآن الكريم وتطبيقات السنة ، وهذا ما فهمه عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قال : « لاخلافة إلا عن مشورة »[1] .

٤ ـ « نصرة » مؤسسات الإدارة والأمن والجيش لـ « الإنسان المسلم » في مواجهة « أشخاص » المتسلطين و « أشياء » المترفين .

وحتى تتجسد أفكار « النصرة » في واقع اجتماعي يعيشه الناس ، لابد أن يتركز عمل مؤسسات الإدارة والأمن والجيش حول الحفاظ على « إنسانية الإنسان المسلم » ، وصيانة حرماته ، وتحقيق ذاته في الداخل ، ثم تمكينه من حمل رسالة الإسلام إلى الخارج .

ولتحقيق هذه الغاية ، يؤكد القرآن الكريم بصراحة وقوة على عدم النيل من إنسانية الإنسان أو التجسس عليه ، أو اضطهاده ، أو نفيه ، أو غيبته ، أو امتهان كرامته ، وتهديد من يرتكب مثل هذه الجرائم بأشد أنواع العذاب في الدنيا والآخرة .

والرسول صلى الله عليه وسلم يؤكد ذلك بنفس الحجم والكم تقريباً . فهو يجعل التجسس على الناس سبباً في إفسادهم :

« ﴿ إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم »[2] .

وعن معاوية رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له :

« إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم ؛ أو كدت تفسدهم » .

---

(١) المتقي الهندي ، كنز العمال ، حـ ٦ ، ص ٦٤٨ رقم ١٤١٣٦ .

(٢) سنن ابي داود ، حـ ٤ ، باب الأدب ، ص ٢٧٢ .

فقال أبو الدرداء رضي الله عنه : كلمة سمعها معاوية من رسول الله صلى الله عليه وسلم نفعه الله بها[1] .

والعقوبة يجب ألاّ أن يكون باعثها الحقد الشخصي ، ولا القسوة على الإنسان في حالة مخالفاته ، وإنزال القصاص به ؛ والأمثلة على ذلك كثيرة ، منها :

قال صلى الله عليه وسلم : « لايجلد أحد فوق عشرة أسواط إلا في حد من حدود الله »[2] .

: « إن الله تعالى يعذب يوم القيامة الذين يعذبون الناس في الدنيا »[3] .

ويقول أيضاً : « صنفان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس . . . »[4] .

: « أول من يدخل من هذه الأمة النار ، السواطون »[5] .

والسواطون هم رجال الأمن ، الذين يحملون الأسواط يضربون بها الناس .

ويقول أيضاً :

ـ « إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة أشدهم عذاباً للناس في الدنيا »[6] .

ـ « يوشك إن طالت بك مدة أن ترى قوماً في أيديهم مثل أذناب البقر يغدون في غضب الله ويروحون في سخط الله »[7] .

ـ « يكون في آخر الزمان شرط ، يغدون في غضب الله ، ويروحون في سخط الله ، فإياك أن تكون منهم »[8] .

والسجن الإسلامي يختلف عن السجن غير الإسلامي ، بحيث يتطابق مع احترام الإسلام لإنسانية الإنسان ، ويحافظ على كرامته ، وفي ذلك يقول ابن تيمية :

« الحبس الشرعي ليس السجن في مكان ضيق ، وإنما هو تعويق الشخص ، ومنعه من التصرف بنفسه ، سواء كان في بيت أو مسجد ، أو بتوكيل نفس الخصم ، أو وكيل الخصم عليه ، ولذلك سماه الرسول صلى الله عليه وسلم أسيراً »[9] .

---

(١) الطبراني ، المعجم الكبير ، حـ ١٩ ، ص ٣٧٩ رقم ٨٩٠ .

(٢) البخاري ومسلم وأحمد والترمذي وأبو داود .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب البر . مسند أحمد ، حـ ٣ ، ص ٤٠٣ .

(٤) صحيح مسلم (شرح النووي) حـ ١٧ ، كتاب الجنة ، ص ١٩٠ .

(٥) المتقي علي الهندي ، كنز العمال ، حـ ٥ ، ص ٧٩٨ نقلا عن ابن ابي شيبة .

(٦) مسند أحمد ، حـ ٣ ، ص ٤٠٣ ، حـ ٤ ، ص ٩٠ .

(٧) صحيح مسلم ، (شرح النووي) ، حـ ١٧ ، كتاب الجنة ، ص ١٩٠ .

(٨) مسند أحمد (تصنيف الساعاتي) ، حـ ١٩ ، ص ٣٢٤ .

(٩) ابن تيمية ، الفتاوى ، كتاب قتال أهل البغي ، حـ ٣٥ ، ص ٣٩٨ .

http://www.al-maktabeh.com

ولقد برزت آثار التوجيهات التي عمقتها التربية النبوية في جيل الصحابة والراشدين ، فاتخذوها دستوراً في مؤسسات الإدارة والشرطة والجيش ، الموكلة بالحفاظ على « النصرة » في الداخل والخارج . فقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا بعث عماله شرط عليهم أن يعيشوا معيشة الناس ، وأن يركبوا مايركبه عامة الناس ، وأن يلبسوا مايلبسه عامة الناس ، ثم يشيعهم ، فإذا أراد أن يرجع قال :

« إني لم أسلطكم على دماء المسلمين ، ولا على أعراضهم ، ولا على أموالهم . ولكني بعثتكم لتقيموا الصلاة ، وتقسموا فيهم فيئهم ، وتحكموا بالعدل . فإذا أشكل عليكم شيء فارفعوه إليّ . ألا فلا تضربوا العرب فتذلوها ، لاتجمروها فتفتنوها ، ولاتعتلوا عليها فتحرموها ، جردوا القرآن »[1] .

ولقد خطب عمر رضي الله عنه يوماً في الناس فقال :

« ألا إني والله ما أرسل عمالي إليكم ليضربوا أبشاركم ، ولا ليأخذوا أموالكم . ولكن أرسلهم ليعلموكم دينكم وسنتكم ، فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إليّ ، فوالذي نفسي بيده إذاً لأقصنه منه !

فوثب عمرو بن العاص رضي الله عنه فقال :

« يا أمير المؤمنين : أورأيت إن كان رجل من المسلمين على رعية ، فأدب بعض رعيته ، أئنك لمقتصه منه ؟

قال : أي والذي نفس عمر بيده ، إذاً لأقصنّه منه ، وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه ، ألا لاتضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولاتجمروهم فتفتنوهم ، ولاتمنعوا حقوقهم فتكفروهم ، ولاتنزلوا الغياض فتضيعوهم »[2] .

واعتماد هذه المبادىء الإسلامية في تشكيل عمل مؤسسات النصرة التي مرّ ذكرها ، يتطلب أموراً ثلاثة :

الأول : أن تنفرد التربية الإسلامية في إعداد العاملين في هذه المؤسسات ، وعدم تركهم للإعداد في المؤسسات الإدارية والبوليسية والعسكرية القائمة في ديار الغرب ، لتكون محصلة إعدادهم في تلك المؤسسات رهقاً وإرهاباً لأممهم ومجتمعاتهم في الداخل ، وعجزاً مذلاً أمام العدوان النازل بها من الخارج .

---

(١) المتقي الهندي ؛ كنز العمال ، حـ ٥ ، ص ٦٦٨ نقلا عن البيهقي في شعب الايمان . تجمروها : تجمير الجيش جمعه في الثغور وحبسهم عن العود إلى أهلهم . جردوا القرآن : لا تقرنوا به شيئاً ليكون وحده منفرداً .

(٢) مسند أحمد ، (تصنيف الساعاتي) ، حـ ٣ ، ص ٨٧ .

والثاني : أن تختلف الإجراءات التي تمارسها هذه المؤسسات ، والعقوبات التي تطبقها لإمضاء قوانين النصرة ، وتشريعاتها ، عن نظائرها من المؤسسات غير المسلمة . إذ لا يجوز أبداً تقليد المؤسسات الأخرى ، واستيراد أساليبها ، أو التدرب في معاهدها على نظم البوليس وأساليب المخابرات ، وإجراءات التحقيق والعقوبات ، لأن المؤسسات غير الإسلامية تتعامل مع الإنسان انطلاقاً من فلسفة « الدارونية الاجتماعية » التي تقرر أن البقاء للأقوى ، واستناداً إلى نظريات علم النفس المشتقة من التجارب على الحيوان ، كنظرية « بافلوف » ونظريات التعلم الإشراطي « لسكنر » ، التي تستعملها الكثير من دوائر الشرطة والمخابرات في غسل الأدمغة وانتزاع الاعترافات .

والثالث : أن يتم تأسيس التربية العسكرية على الأصول الإسلامية التي تعد العسكري المسلم ليدور حول « أفكار الرسالة » ، لا في فلك « أشخاص » الحاكمين ، و « أشياء » المترفين .

وأهمية هذه التربية لا يمكن ـ هنا ـ الخوض في تفاصيلها ، وإنما يمكن تصورها من المثل الذي لم يحدث له نظير في تاريخ الجندية ، حينما أنزلت رتبة عسكري كخالد بن الوليد رضي الله عنه ، من « قائد عام للجيش » إلى « جندي نفر » ، ثم استمر في أداء واجبه قائلاً : أنا لا أقاتل من أجل عمر !!

ويرتبط بهذا المظهر للنصرة ، تنمية الوعي بـ « سيادة الشريعة فوق القوة » ، وإقامة المؤسسات المتخصصة بمراقبة الحاكمين والإداريين ، بحيث لا يكون أحد ، كائناً من كان ، فوق الشريعة أو القانون . بهما يُضبط سلوكهم ، وتوجه إداراتهم . وحين يحاول أحد أن يرتفع ـ فوق القانون ـ يُقوّم تقويم القداح ـ حسب قول بشر بن سعد للخليفة عمر ـ ، وإذا لم يُقوم فإن ذلك يعني أن الصنمية عادت برموز جديدة ، والرضى بها من مظاهر الشرك ، والخضوع لغير الله .

وتحتاج التربية الإسلامية ـ من أجل تعميق الولاء لاتجاهات النصرة ـ إلى نقد الممارسات التاريخية التي أطلقت أيدي بعض الخلفاء والسلاطين والولاة ـ بعد عصر الراشدين ـ في شؤون الحكم والمال والإدارة ، فصاروا يعزون من يشاءون في أعلى المناصب ، ويذلون من يشاءون بالعزل والاضطهاد . ويحيون من يشاءون بالعفو المزاجي ، ويميتون من يشاءون بالإرادات الطاغية ، وبذلك شاركوا الله في صفاته وأفعاله ، وجسدوا صنمية الأنداد !

وتحتاج التربية الإسلامية كذلك إلى نقد قيم العصبيات وثقافاتها ، التي تصطدم بـ « النصرة » ، فتجعل « القوة فوق القانون » ، وتحيل « حقوق » الناس الممنوحة لهم من الله « مكرمات » يمن بها عليهم أصحاب السلطان الأنداد ، وتطلق أيد المنفذين ليستعبدوا الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ، وليتحكموا بمصائرهم وأرزاقهم ، ومقدراتهم ، دون رقابة من مؤسسة ، أو مسؤولية أمام تشريع .

ولاشك أن نقد التربية لهذه الثقافة العصبية المتخلفة ، هو واجب ديني ، والتخلي عن هذا الواجب أو القصور فيه والسماح لهذه الثقافة أن تشيع في مناهج التربية وبرامج الإعلام ، هو كبيرة من الكبائر المخلدة في النار ، كما ذكر ذلك صراحة في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أورد الكبائر السبع ، وذكر أن سابعتها : « وأن يرتد أعرابياً بعد الهجرة »[1] .

٥ ـ نصرة الأمة المسلمة في مواجهة طغيان الفرد أو الأقلية :

وأساس هذا المظهر أن الأمة التي توجهها روح النصرة ، لاتسمح للفرد أو الأقلية أن تغلّب مصالحها الخاصة على الصالح العام . ولتحقيق هذا المظهر لابد للتربية الإسلامية أن تركز على رسوخ ثلاثة اتجاهات رئيسة هي :

الأول : تنمية الوعي بقيمة وحدة الأمة المسلمة والمحافظة عليها بكل الوسائل . ويتفرع عن وحدة الأمة : وحدة القيادة ، ومحاربة نزاعات السلطة المستمدة من الولاء الفردي ، والعصبيات العائلية ، والقبلية ، والإقليمية ، والمذهبية ، والقومية ، وكل مايعرض كيان الأمة للفتن والانقسامات . وهذا مافهمه أبو بكر الصديق رضي الله عنه حين قال :

« وإنه لايحل أن يكون للمسلمين أميران . فإنه مهما يكون ذلك يختلف أمرهم وأحكامهم ، وتتفرق كلمتهم وجماعتهم ، ويتنازعون فيما بينهم . هناك تترك السنة وتظهر البدعة ، وتعظم الفتنة ، وليس لأحد على ذلك صلاح »[2] .

وحين اقترح أحد الأنصار في سقيفة بني ساعدة أن يكون للمسلمين خليفتان في آن واحد ، وقال للمهاجرين : منا رجل ومنكم رجل ، أجابه عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « سيفان في غمد واحد إذاً لايصلحان »[3] .

والثاني : تنمية الوعي بأهمية العمل الجماعي ، وسيادة مبدأ الشورى ، لأن في الشورى تجسيداً لإرادة الأمة ، وإشراكاً لجميع أفرادها وهيئاتها في حمل المسؤولية . وهو ماطبقه الرسول صلى الله عليه وسلم وسار عليه الخلفاء الراشدون . فقد كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما إذا ماورد على أحدهما أمر ، نظر في الكتاب والسنة ، ثم شاور العلماء وأولي الرأي[4] .

والثالث : تكافؤ الفرص ، وعدم محاباة الأقارب والأصدقاء ، وتوزيع الوظائف والأعمال طبقاً لمقاييس الإخلاص والكفاءة . وهذا ماوجه إليه أبو بكر الصديق رضي الله

---

(١) الطبري ، التفسير ، حـ ١٨ ، ص ١٥٨ ـ ١٥٩ . تفسير سورة النور ـ آية ٥٥ .
(٢) البيهقي ؛ السنن الكبرى ، حـ ٨ (بيروت : دار صادر ، ١٣٥٤) ص ١٤٥ .
(٣) البيهقي ، نفس المصدر والصفحة .
(٤) الدارمي ، السنن ، حـ ١ (باب الفيتا) (دار إحياء السنة النبوية) ص ٥٨ .

عنه . فعن يزيد بن أبي سفيان رضي الله عنه : قال أبو بكر لما بعثني إلى الشام ؛ يايزيد إن لك قرابة عسى أن تؤثرهم بالإمارة ، وذلك أكبر ما أخاف عليك . فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من ولي من أمور المسلمين شيئاً فأمَّر عليهم أحداً محاباة له بغير حق ، فعليه لعنة الله ، لايقبل الله منه صرفاً ولاعدلاً ، حتى يدخله جهنم . ومن أعطى أحداً من مال أخيه محاباة له فعليه لعنة الله ، أو قال برئت منه ذمة الله . إن الله دعا الناس أن يؤمنوا فيكونوا حمى الله ! فمن انتهك في حمى الله شيئاً بغير حق ، فعليه لعنة الله . أو قال برئت منه ذمة الله عز وجل[1] .

٦ ـ نصرة رجال الفكر وجمهور الأمة في مواجهة رجال القوة والتسلط :

يرتبط هذا المظهر بنصرة « أفكار » الرسالة ، ارتباطاً وثيقاً . وهو من أهم ميزات الأصول السياسية للتربية الإسلامية . فالقرآن الكريم يحدد دور رجال الفكر ، ورجال القوة ، في أكثر من موضع ، من ذلك قوله تعالى :

﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ (النساء : ٥٩) .

ولقد قدم الرازي وابن تيمية عرضاً مطولاً لتفاسير علماء الصحابة وتلامذتهم لمعنى « أولي الأمر » وخلصا إلى أن هذه التفاسير تنقسم إلى قسمين : قسم جعل « أولي الأمر » هم العلماء والأمراء ، وهو رأي الأقلية ، وقسم جعلهم العلماء وحدهم ، وهو رأي الأكثرية[2] .

وعلى كل حال فالعلماء ، أو رجال الفكر ، موجودون في تعريف كلا الطرفين ، ولهم الصدارة والأولوية ، وهذا هو الذي ينسجم مع « نصرة الرسالة » ، وضرورة دوران « الأشخاص والأشياء » في فلك « الأفكار » ، كما مر .

كذلك يقدم القرآن الكريم أمثلة لما يجب أن تكون عليه مكانة رجال الفكر وجمهور الأمة ، ولقد ناقش ابن تيمية هذه المكانة ، وذكر أنها مما يوجه إليه قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (المائدة : ٥٥) .

﴿ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (المائدة : ٥٦) .

﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (المنافقون : ٨) .

وفي التشهد :

---

(١) المتقي الهندي ، كنز العمال ، حـ ٥ ، ص ٦٦٥ نقلا عن مسند أحمد ، وابن ابي شيبة .

(٢) ابن تيمية ، الفتاوى ، كتاب السلوك ، حـ ١٠ ، ص ٣٥٤ .
الرازي ، التفسير الكبير ، حـ ١٠ ، ص ١٤٤ ـ ١٥٠ .

http://www.al-maktabeh.com

« التحيات لله والصلوات الطيبات ، السلام عليك أيها النبي ، ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » .

فالإشارة هنا ـ لله ورسوله ـ إشارة إلى القائمين على فقه الكتاب والسنة والتربية عليهما ، والإشارة إلى ـ الذين آمنوا ـ إشارة إلى جمهور الأمة المسلمة .

ويضيف ابن تيمية أن هذه الأصول هي التي أمر بها عمر بن الخطاب شريح رضي الله عنهما حيث قال : « اقضِ بما في كتاب الله ، فإن لم يكن فيما في سنة رسول الله ، فإن لم يكن فيما اجتمع عليه الناس ، وفي رواية فيما قضى به الصالحون » .

وكذلك يقول ابن مسعود رضي الله عنه :

« من سئل عن شيء فليفتِ بما في كتاب الله ، فإن لم يكن فيما في سنة رسول الله ، فإن لم يكن فيما اجتمع عليه الناس .

وكذلك روى نحوه ابن عباس رضي الله عنهما وغيره ، ولذلك قال العلماء : الكتاب والسنة والإجماع[1] .

كذلك يقدم القرآن الكريم أمثلة لما يجب أن تكون عليه معادلة العلاقة بين رجال الفكر وجماهير الأمة ورجال القوة ، وتحديد أدوار كل فريق منهم . من ذلك قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ (النساء : ٨٣) .

هكذا تتوزع الأدوار إذا واجهت الأمة قضية من قضايا الأمن أو الخوف ، أو شأناً من شؤون الحرب أو السلم . فالحس الجماهيري هو الأداة القادرة على استشعار القضايا ، أو المشكلات ، لأن الجماهير هي التي تتفاعل على مسرح الحياة الاجتماعية ، ولها حق التعبير والإعلان عنها ، ولكن ليس باللغو وإذاعة الإشاعات ، وإنما بأداء دورها في دائرة فاعلة ، دائمة الجريان ، حيث تبدأ الجماهير برد القضايا والمشكلات إلى أولي الأمر من العلماء ـ الأمراء (وهم هنا خلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم) ليردوها بدورهم إلى المتخصصين القادرين على علمها واستنباط وسائل معالجتها . ويمكن أن نمثل لهذه الدائرة الفاعلة في معالجة المشكلات والقضايا بالشكل التالي :

(١)		(٢)		(٣)
جمهور الأمة	←	أولو الأمر من	←	المستنبطون الحكماء
(مسرح الحياة الاجتماعية)	→	العلماء ـ الأمراء	→	فـــــي
(٥)		(٤)		مراكز العلم والبحوث

---

(١) ابن تيمية ، الفتاوى ، أصول الفقه ، حـ ٢٠ ، ص ٤٩٨ .

ولقد أدرك ابن تيمية هذه العلاقة التي تنظم أدوار رجال الفكر ، ورجال القوة ، وأسهب في وصف تطبيقاتها وتطوراتها في الأمة الإسلامية . ومما قاله في هذا الشأن :

« قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحديد : ٢٥)[1] . . فقوام الدين بكتاب يهدي ، وسيف ينصر ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً ﴾ (الفرقان : ٣١) .

ودين الإسلام : أن يكون السيف تابعاً للكتاب ؛ فإذا ظهر العلم بالكتاب والسنة ، وكان السيف تابعاً لذلك ، كان أمر الإسلام قائماً . . وأما إذا كان العلم بالكتاب ، فيه تقصير ، وكان السيف تارة يوافق الكتاب ، وتارة يخالفه ، كان دين من هو كذلك بحسب ذلك »[2] .

فابن تيمية ، يرمز لرجال القوة بـ « السيف » ، تمشياً مع وسائل تكنولوجيا القوة في عصره ، بينما يشير القرآن لها بـ « الحديد » ، المادة الأساسية لتكنولوجيا القوة في كل عصر .

ولقد كان عصر النبوة والخلافة الراشدة تطبيقاً للمعادلة القرآنية بين رجال الفكر ، وجمهور الأمة ، ورجال القوة . فقد كان « فقهاء الرسالة » يتصدرون مواقع الإمامة في الأمة ، ابتداء من إمامة الصلاة ، حتى إمامة المجتمع كله . ومن المعروف جيداً أن الخلفاء الراشدين كانوا أعظم فقهاء الرسالة ، بعد الرسول صلى الله عليه وسلم وأنهم لولا انشغالهم بشؤون السياسية وتسيير جيوش الفتح الإسلامي ، لتركوا مجلدات مبتكرة في أصول الفكر الإسلامي بميادينه المختلفة .

ولقد كان صلى الله عليه وسلم دائم التحذير من اختلال المعادلة التي أرساها بين رجال العلم ، وجمهور الأمة ، ورجال القوة ، ومن خطورة هذا الاختلال على مستقبل الأمة المسلمة ، من ذلك قوله :

« خذوا العطاء مادام عطاء ، فإذا صار رشوة في الدين فلا تأخذوه ، ولستم بتاركيه ، يمنعكم الفقر والحاجة . ألا إن رحى الإسلام دائرة ، فدوروا مع الكتاب حيث دار ، ألا إن الكتاب والسلطان سيفترقان فلا تفارقوا الكتاب ، ألا إنه سيكون عليكم أمراء يقضون لأنفسهم ما لايقضون لكم ، إن عصيتموهم قتلوكم ، وإن أطعتموهم أضلوكم . قالوا يارسول الله : كيف نصنع ؟ قال : كما صنع أصحاب عيسى بن مريم ؛ نشروا بالمناشير ،

---

(١) سورة الحديد ـ آية ٢٥ .

(٢) ابن تيمية ، الفتاوى ، اصول الفقه ، حـ ٢٠ ، ص ٣٩٣ .

وحملوا على الخشب . موت في طاعة الله ، خير من حياة في معصية الله »[1] .

ومن الموضوعية أن نقول : إنه بعد مجتمع الخلفاء الراشدين ، اضطربت معادلة العلاقة بين رجال الفكر والتربية ، وبين رجال القوة ، ودخل الطرفان في صراع طويل انتهى بتغلب رجال القوة والسلطان . ولكن الحديث في تفاصيل هذا الموضوع يقع في دائرة البحث في تاريخ التربية الإسلامية ، وهو موضوع خارج عن نطاق هذا البحث .

وفي العصر الحديث ، تدرّب مؤسسات التربية في العالم الإسلامي الحديث على أن شخصاً واحداً هو شخص المعلم ـ الذي يتقمص فيما بعد شخص الحاكم من أولي القوة ـ هو القادر على استشعار المشكلات ، والقضايا كلها ، وعلى إصدار الحلول الفاصلة القاطعة ، التي لامراء فيها . فالدائرة الاجتماعية ـ هنا ـ مقطوعة ممنوعة ، والتنسيق بين رجال الفكر ، وجمهور الأمة ، ورجال القوة ، غير قائم ، وحملة الشهادات ، وذوي الاختصاص ، ودور العلم ، والجامعات ، مجرد زينة و (ديكور) وطني ، يتباهى به رجال القوة ذوي الهيمنة المطلقة أمام الأقطار الأخرى ، تماماً كالمكتبات في بيوت العالم الإسلامي ، تزين بها البيوت ، كقطع الأثاث وأدوات الزينة ، دون أن يقرأ منها صاحبها صفحة واحدة[2] .

وفي المقابل نجد أن نظم التربية في الغرب ـ غير المسلم ـ قد نسقت أدوار كل من رجال الفكر ، ورجال القوة ، وهيئات المجتمع ، بما يتطابق مع التوجيهات القرآنية التي مرت . فالمشكلات وقضايا الأمن أو الخوف تبدأ في الساحة الجماهيرية ، ولكنها لاتترك للغو والإشاعات ، وإنما تنقل لأولي الأمر بالاستفتاءات ، وجمع المعلومات ، والبيانات ، والمقابلات ، ثم ترد إلى مراكز البحوث المتخصصة ، حيث ينكب عليها المؤهلون القادرون على تحليلها واستنباط الحلول لها ، ثم يردونها إلى أولي الأمر من صانعي القرار ، ثم إلى

---

(١) الطبراني ؛ المعجم الكبير ، حـ٢٠ (بغداد : وزارة الأوقاف والشؤون الدينية ، ١٩٨٢) .

(٢) لايقتصر اضطراب المعادلة بين رجال الفكر ورجال القوة في العالم الإسلامي على الدول وإنما يشمل حركات الإصلاح كالأحزاب والجماعات . فهذه أيضا تفترض العلم والحكمة والقدرة على التنفيذ والقيادة في أصحاب القوة والثروة والمكانة الاجتماعية من أعضائها ، في الوقت الذي تفتقر إلى المؤسسات المتخصصة بالفكر والبحث العلمي ، فالفكر في أوساطها قضية فردية حيث يظهر المفكر الفرد بينها بشكل عشوائي ثم يكافح وينمو بجهوده ونفقاته الخاصة ، حتى إذا نضج فكره وشاع ، استثمرت أفكاره لكسب مزيد من التأييد والانتشار . وحين ينتهي أمر المفكر ويتوقف إنتاجه ولايظهر غيره ترتد الأحزاب والجماعات إلى التراث تجتره وتشيد به أن كانت إسلامية الاتجاه ، أو تتوجه إلى الفكر الأجنبي إن كانت علمانية الاتجاه . أما في الغرب فإن الأحزاب والمنظمات ـ كالصهيونية مثلا ـ تمتلك مؤسسات البحث العلمي والإنتاج الفكري وتضم من المتخصصين عدداً وكفاءة يتناسب مع الأهداف التي تعمل من أجلها والتحديات التي تواجهها .

أجهزة التنفيذ ، ثم تقوم بمتابعتها أجهزة القياس ، والتقويم ، لجمع ثمرات التطبيق ، وتقويم النتائج ، وتبدأ الدائرة من جديد .

٧ ـ نصرة الأمة المسلمة في مواجهة العدوان الخارجي :

وأساس هذا المظهر : أن الأمة التي يوجهها روح النصرة لاتسمح للعدو الخارجي أن ينال منها أو من أفرادها ومقدراتها . ولتحقيق هذا المظهر ، لابد للتربية الإسلامية أن تركز على خمسة اتجاهات رئيسة هي :

الأول : تربية الأمة على الروح العسكرية ، وتعشق الجهاد . والتوجيهات النبوية حازمة وراسخة في هذا الاتجاه . فهي تحث على تدريب الناشئة مبكراً مع الحاملات الحربية وأدوات القتال التي رمزت لها بأدوات عصر النبوة المتمثلة في ركوب الخيل ، ورمي النبال ، واستعمالات السيف ، وفنون الفروسية ، مع مراعاة الاستمرار في هذه الأهلية وتعشق الجهاد .

والثاني : إقامة الصناعات الحربية ، وتطوير العلوم العسكرية ، بما يكفل للأمة الإسلامية التفوق الرادع للأعداء ، والرهبة والهيبة أمام الخصوم ، وتحقيق النصرة أمام التحديات والأخطار . وهذا مما يوجه إليه ـ بصراحة ـ قوله تعالى :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَاتَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ، وَمَاتُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَاتُظْلَمُونَ ﴾ (الأنفال : ٦٠) .

والثالث : إقامة مراكز شهود العالم المتخصصة ، في البحث ودراسة مايجري في العالم من تيارات وأحداث في صالح الأمة المسلمة أو ضدها . وذلك لتحديد سياسات التعامل مع هذا العالم وإيصال الرسالة إليه . وهذا مما يوجه إليه قوله تعالى :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً . لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ (الفتح : ٨ ـ ٩) .

وهو أيضاً مايرشد إليه قوله صلى الله عليه وسلم :

« رحم الله من حفظ لسانه ، وعرف زمانه ، فاستقامت طريقته »[1] .

والرسول صلى الله عليه وسلم كان يشهد الأحداث الجارية بوسائل المعرفة الثلاثة : الوحي ، والعقل ، والحس . أما وقد انقطع الوحي فإن على ـ مراكز البحوث والدراسات ـ أن تضاعف من عمل أداتي العقل والحس في شهود مايجري في العالم ، وبدون ذلك لاتكون هناك استراتيجيات صائبة ولاسياسات حكيمة .

---

(١) المناوي ، فيض القدير شرح الجامع الصغير ، حـ ٤ ، (القاهرة : دار الفكر ، ١٣٩٨/١٩٧٨) ، ص ٢٩ ، رقم ٤٤٤٠ .

والرابع : إقامة ـ مراكز الدراسات الاستراتيجية ـ المتخصصة بتشخيص الشؤون المتجددة ، ثم النظر في وسائل التكيف مع متطلبات هذه الشؤون ومجابهة التحديات التي ترافقها .

والخامس : إقامة ـ مراكز ـ لدراسة مجتمعات غير المسلمين ، وذلك لتحقيق أمرين :

الأول : التعرف على أصول هذه المجتمعات الثقافية والاجتماعية الموجِّهة لسياساتها وعلاقاتها وسلوكها ، وتحديد أساليب التعامل معها ، ويقدم القرآن توجيهات واسعة لـ « قراءة عقول غير المؤمنين » و « إراداتهم » و « دوافعهم » ، مما يشكل أصولاً لتطوير علوم سياسية إسلامية ، وعلم اجتماع إسلامي ، وعلم إنسان إسلامي (انثروبولوجيا) ، وعلوم تتطلب الحاجات المتجددة ابتكارها وبلورة ميادينها . إذ بدون العلم ومناهجه لا يمكن تحقيق أي مظهر من مظاهر ـ النصرة ـ التي قدمنا نماذج لها .

والأمر الثاني : هو بلورة أصول العلاقات الخارجية مع المجتمعات غير الإسلامية ، وتحديد الميادين التي يباح فيها التعاون والصداقة مع هذه المجتمعات ، والمدى الذي يصل إليه هذا التعاون ، والمدى الذي ينتهي عنده .

الفصل التاسع

العنصر السادس: الولاية والولاء

الولاية هي المحصلة النهائية لتفاعل العناصر المكونة للأمة المسلمة : أي عناصر الإيمان والهجرة ، والرسالة ، والإيواء ، والنصرة . كما أن وجود الولاية في واقع الأمة وسريانها في جميع ممارساتها وعلاقاتها ، شاهد على أن عناصرها المشار إليها ، هي حية فاعلة في سلوك الأفراد ونشاط الجماعات ، كما دل على ذلك أسلوب الإشارة إلى الولاية في آخر الآية التي وجهت إلى عناصر الأمة الخمسة :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ آوَوْا وَّنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ (الأنفال : ٧٢) .

معنى الولاية :

و « الولاية » مصطلح قرآني ، تردد في مئات المواضيع من القرآن والحديث ، ومعناه : القيام بأمور الآخرين كلها . و « الولي » هو القائم بأمور غيره من الأمة المسلمة في الميادين المتفرعة عن عناصر : الإيمان ، والهجرة ، والجهاد ، والرسالة ، والإيواء ، والنصرة بالطريقة التي أمر الله . أي أن « الولاية » مصطلح اجتماعي يعني : ولاء الفرد المسلم للأفكار التي جاءت بها الرسالة الإسلامية ، أكثر من ولائه لنفسه ، وهو يجسد هذا الولاء من خلال الإسهام ـ مع المسلمين الآخرين ـ في تحويل الأفكار المذكورة إلى تطبيقات عملية ، تتمثل في عناصر الإيمان ، والهجرة ، والجهاد ، والرسالة ، والإيواء ، والنصرة ، بين الأفراد الذين يشتركون في الإيمان بالأفكار الإسلامية المشار إليها . فالولاية ـ إذن ـ هي هيمنة روح الشعور بالمسؤولية في السلوك والعلاقات والحاجات ، وقيام الأفراد والمؤسسات والجماعات برعاية شؤون بعضهم بعضاً ، في ميادين الاجتماع ، والسياسة ، والاقتصاد ، والزراعة ، والصناعة ، والفكر ، والثقافة ، والتوجيه ، والتعليم ، والحرب ، والسلام ، والأمن ، والخطر ، وغير ذلك .

ومن هذه الولاية والرعاية اشتقت مصطلحات : « أولي الأمر » ، و « الولاة » . والذين يحسنون هذه الولاية والرعاية ـ كل في ميدانه ـ ويلتزمون في ولايتهم ورعايتهم

http://www.al-maktabeh.com

لشؤون غيرهم أوامر الله وتوجيهاته حق الالتزام ، دون أن تفتنهم المغريات ، هم (أولياء الله) . وبذلك يكون (ولي الله) هو من يلتزم أوامر الله حق الالتزام في ميادين الاجتماع ، والسياسة ، والإدارة ، والعسكرية ، والاقتصاد ، والتربية ، والفكر ، والثقافة ، والتوجيه ، والجهاد ، والأمن ، وغير ذلك . وبهذا المعنى كان أبو بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما وليين لله في ميدان الحكم والسياسة ، وكان خالد بن الوليد ولي الله في ميدان العسكرية ، وكان معاذ بن جبل ولي الله في ميدان التربية والتعليم ، وكان عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وليين لله في ميدان التجارة والأعمال ، وكان هناك ولي الله الزارع ، وولي الله الصانع ، وولي الله الشرطي ، وولي الله الإداري ، وهكذا مادام الكل يعملون حسب أوامر الله ونواهيه ، ويتقونه حق تقاته .

ولعله من الواجب هنا ـ أن نشير إلى أمرين . . **الأول** : التشويه الخطير الذي أصاب مصطلح (الولاية) في التربية الإسلامية حين أخرجت (الولاية) من محتواها الاجتماعي وصار (ولي الله) هو الدرويش الأهبل المنسحب من الحياة ، الفاقد للإحساس بها ، العاجز عن العمل ، الخانع أمام الأعداء ، القانع بالذل والفاقة والعجز والقذارة ، وإذا أهلكه الجوع والمرض والجهل ، أقيمت له النصب والأضرحة ، وصار صنماً تذبح عنده القرابين ، وتلوذ به الجماهير ، التي تعاني من الظلم والفاقة والقهر والاستغلال . وفي الأصل كان وراء هذا التشويه لمعنى الولاية عقليات ماكرة من سلالات المترفين ، الذين سلبهم الإسلام نفوذهم على الناس ، وتحكمهم بمقدرات الحياة ، فعملوا على استرجاع مافقدوه من امتيازات بوسائل التشويه الثقافي والتربوي ، وتشويه المصطلحات والمبادىء ، وأنماط المعتقدات والسلوك ، بعد أن عجزوا عن استرجاع امتيازاتهم بالوسائل العسكرية ، ثم استحسن هذه السياسة الظلمة من السلاطين والحكام ، لصرف الأنظار عن احتكاراتهم وسياساتهم الجائرة . ولعل ماكتبه المقريزي في ـ الخطط ـ عن سياسة سلاطين المماليك في بناء الأضرحة ، وتشجيع طريق الدروشة ، ومواقف ابن تيمية وكتاباته ضد هذه السياسات ، مثلاً واضحاً وشواهد لهذه السياسات الجائرة المشار إليها . ولقد حذت حذو هذه السياسة واستثمرت التراث السلبي الممثل لها ، دوائر الاحتلال الاستعماري في المغرب العربي ، وأفريقيا ، والهند ، وغيرها .

والثاني : موقع الولاية ـ حسب المفهوم الإسلامي ـ في سلم محاور الولاء وضرورتها في المجتمعات المعاصرة .

لقد تطور مفهوم الولاية (أو الولاء) بتطور المجتمعات البشرية . فحين كان المجتمع الإنساني يتمثل في العائلة ، تحدد إطار (الولاء) بالعائلة ، وحينما أصبح المجتمع البشري هو (القبيلة) ، تحدد إطار الولاء بحدود القبيلة ، وحينما أصبح المجتمع البشري هو

القوم ، تحدد إطار الولاء بحدود القومية . وحينما تهدمت الحدود الجغرافية والثقافية بين المجتمعات البشرية ، جاءت الرسالة الإسلامية برباط (الولاية) الواسع الذي يفتح الباب لكل عضو في الإنسانية الانضواء في عقده .

ولعل مما تفرضه مبادىء النقد الذاتي أن نقول : إن جيل الصحابة قد جسد (رباط الولاية) بأوسع دوائر الولاء ؛ فضحوا بأنفسهم وأموالهم لإخراج الناس إلى عدل الإسلام ، وسعة الدنيا والآخرة ، ثم تلتهم أجيال ارتد بعضها إلى محاور ـ الولاء ـ القومي ، أو الشعوبي ، ثم إلى محاور الولاء الإقليمي ، ثم إلى محاور الولاء القبلي . فالإنسان الحاضر في بلاد الإسلام يتحدد محور ولائه بحدوده الإقليمية ، وليس لديه مفهوم واضح عما يعنيه (الولاء) للأمة المسلمة الواحدة .

درجات الولاية الإيمانية :

والولاية في القرآن والحديث درجات متسلسلة كما يلي :

الدرجة الأولى ؛ ولاية الله للمؤمنين : وإلى هذه (الولاية) كانت الإشارة بأمثال قوله تعالى :

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (البقرة : ٢٥٧) .

فالله يتولى شؤون المؤمنين بإخراجهم من ظلمات الجهل ، ومزالق الانحراف ، إلى مناهج الحياة الصائبة ، والمؤمنون يتولون القيام بعبادته تعالى ، ونشر دعوته ، والجهاد في سبيلها بالمال والنفس . . وولاية الله هي الأصل الذي تتفرع عنه بقية درجات الولاية . فمن لم يحقق هذه الولاية بينه وبين الله ، لاتنفعه موالاة سواه .

﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾ (الرعد : ١١) .

ولذلك يجري التأكيد وتكرار التذكير بتحقيق هذه الولاية ، وتتكرر الإشادة والبشارة للذين حققوها في عشرات المواضع من القرآن الكريم والسنة الشريفة .

والدرجة الثانية ؛ ولاية الرسل والمؤمنين : وإلى هذه الدرجة من الولاية كانت الإشارة بأمثال قوله تعالى :

﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (آل عمران : ٦٨) .

﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ (الأحزاب : ٦) .

فالرسل يتولون المؤمنين بالتربية والتوجيه والإرشاد ، والمؤمنون يتولون الرسل بالاستجابة والاتباع ، و « الإيواء » ، والنصرة .

والدرجة الثالثة ؛ ولاية المؤمنين للمؤمنين : وإلى هذه الدرجة كانت الإشارة بأمثال قوله تعالى :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ (التوبة : ٧١) .

فالمؤمنون والمؤمنات يتولون إيواء بعضهم بعضاً ، ونصرة بعضهم بعضاً ، ويأمن بعضهم بعضاً في ميادين الحياة المختلفة ، ابتداء من الأسرة ، ومروراً بالجوار في الحي ، والتعايش في المهجر ، والجهاد في الدائرة الإنسانية الكبرى . ومن هذه الموالاة تتحدد ـ كما مر ـ مفاهيم الولاية ، ابتداء من ولاة الأسر ومروراً بولاة الأقاليم ، وأولي الأمر من العلماء والرؤساء والخلفاء وولاة العمل إلى جميع المسؤوليات والوظائف والمهن ، كبرت أم صغرت .

والدرجة الرابعة ؛ ولاية أولي الأرحام من المؤمنين : وإلى هذه الدرجة كانت الإشارة بأمثال قوله تعالى :

﴿ وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ ﴾ (الأحزاب : ٦) .

فأولوا الأرحام وذوي القربىٰ في « أمة » المؤمنين ، يقومون بتولي أمور بعضهم بعضاً في شؤون الحياة كلها .

وتقدم مصادر التربية الإسلامية ـ في القرآن والسنة ـ تفاصيل دقيقة لأشكال ـ الولاية والولاء ـ الواجب تطبيقها في كل درجة من الدرجات الأربع المشار إليها ، بحيث تشمل جميع مظاهر السلوك ، وتطبعها بطابعها .

درجات ولاية غير المؤمنين :

والذين لايكون لهم مكان في ولاية المؤمنين ، تكون ولايتهم في الطرف المقابل من الولاية الفاسدة ، القائمة على نصرة الباطل ، والدعوة إليه ، والالتفاف حوله . وهذه الولاية الفاسدة درجتان :

الدرجة الأولى ؛ ولاية الشياطين للكافرين والمنافقين والعصاة : أي يتولونهم بالإضلال والإفساد والاصطدام مع أوامر الله وسننه في الحياة ، وإلى هذه الدرجة كانت الإشارة بأمثال قوله تعالى :

﴿ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (النحل : ٦٣) .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف : ٢٧) .

وتحسن الإشارة ـ هنا ـ إلى الاستعمالات الخاطئة المضللة لمصطلح ـ الشيطان ـ بحيث لم يعد بمقدور المسلم العادي أن يتخذ موقفاً واقعياً محسوساً من الشياطين وأضاليلهم ، وصار محرجاً للمسلم المثقف أن يتطرق لمناقشة عمل الشياطين وآثاره ، لما يرى في ذلك من إمكانية الوقوع في شرك الخرافة ، أو الاتهام بالتفكير الخرافي .

فالقرآن والحديث يطلقان مصطلح ـ الشيطان ـ ليدل على المنشطن : أي المنحرف الضال عن قصد وإصرار[1] . والشيطان ـ في القرآن والحديث ـ قسمان . . الأول : هو الشيطان الجني الذي لايُرى ولايُسمع من البشر العاديين . والقرآن يذكر هذا النوع في معرض تعريفه بعناصر الوجود المحيط وتفاعل الإنسان معها ، ويخبر أن هذا الشيطان الجني ضعيف الكيد والتدبير .

والنوع الثاني : هو الشيطان الإنسان الذي ينشطن ـ أن ينحرف عن قصد وإصرار ـ عن منهج الله ، ويتبنى منهاجاً مضاداً في الفكر والسلوك ، ويجعل من الانحراف والضلال فكراً صائباً ، وعملاً صالحاً ، وإنجازاً حضارياً متقدماً ، ثم يكرس حياته وجهوده للدعوة إلى هذا الانحراف والضلال وإشاعتها . ففي معنى قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾ (الأنعام : ١٢١) .

يذكر الطبري في تفسيره أن الشياطين المشار إليهم في هذه الآية هم شياطين فارس من المجوس ، وأن أولياءهم هم المتمردون من مشركي قريش . فقد أرسلت فارس إلى أوليائها من قريش أن جادلوا محمداً وأصحابه ، حول أكل الميتة ، وكانوا يسمونها قتل الله . فقالوا : ماقتل الله لاتأكلونه ، وماقتلتم تأكلون . . وفي رواية قال المشركون للرسول صلى الله عليه وسلم : أخبرنا عن الشاة إذا ماتت من قلتها ؟ فقال : الله قلتها ، قالوا : فتزعم أن ماقتلت أنت وأصحابك حلال ، وماقتله الله حرام ؟ فأنزل الله : ﴿ ولاتأكلوا ما لم يذكر اسم الله عليه ﴾ . وفي رواية أخرى ؛ قالوا : أما قتل الصقر والكلب فتأكلونه ، وأما قتل الله فلا تأكلونه ؟ فوقع في نفوس بعض المسلمين شيء ، فأنزل الله الآية ، ونزلت أيضاً آية : ﴿ شَيَاطِينَ الإِنسِ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً ﴾ (الأنعام : ١١٦)[2] .

ورواية الطبري عن مناسبة الآية تبين بوضوح أن ظاهرة شياطين الفكر من المستعمرين الذين يُثيرون الشبهات حول الإسلام ، وظاهرة أوليائهم من العرب ـ أو العملاء حسب لغة العصر الحديث ـ الذين يشيعون هذه الشبهات ، هي ظاهرة قديمة ـ حديثة ، فالعرب كانوا ومازالوا يتلقون القضايا الفكرية من شياطين الخارج . ففي الماضي كانوا يتلقون المعتقدات والشبهات من فارس والروم ، واليوم يتلقونها من الغرب والشرق ، ولا عاصم لهم إلا الإسلام .

والحديث النبوي يركز على التحذير من شياطين الإنس . من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : يا أبا ذر هل تعوذت بالله من شر شياطين الإنس والجن ؟ قال : قلت : يارسول

---

(١) الطبري ؛ التفسير ، حـ ١ ، ص ٤٩ . ابن كثير ؛ تفسير سورة البقرة ـ آية ١٥ .
(٢) الطبري ، التفسير ، حـ ٨ ، ص ١٦ ـ ١٧ .

http://www.al-maktabeh.com

الله وهل للإنس من شياطين ؟ قال : نعم ، شر من شياطين الجن[1] .

وبهذا التصور الذي يقدمه القرآن والحديث يكون هناك شيطان الفكر ، وشيطان التربية ، وشيطان الثقافة ، وشيطان الآداب ، وشيطان الفنون ، وشيطان الإعلام ، وشيطان الإباحية ، وشيطان الأزياء . ومن أحب أحداً من هؤلاء الشياطين أو قلده ، فهو ولي لهم ، وهم أولياء له ، باعتبار أن لكل هؤلاء اهتمامات مشتركة تعمل في الاتجاه المضاد لصحة الأمة المسلمة وسلامة عناصرها في الإيمان والهجرة ، والجهاد ، والرسالة ، والإيواء ، والنصرة إن كانت قائمة ، أو يعمل على إعاقة إخراجها إن كانت في مرحلة التكوين أو النشأة والنمو .

وهكذا تتمركز ـ ولاية الشيطان ـ في قلب الاجتماع البشري ، وتحتل سلوكاً بشرياً متخلفاً وضاراً لابد من مواجهته ودراسته . ولكن مؤسسات التربية الإسلامية ، حين خشيت في عصور الجمود والاستبداد ، شياطين السياسة والترف من الإنس ، انحرفت للغوص في الغيبيات بحثاً عن شياطين الجن التي لاترى ، وأشغلت تفكير الناس بذلك حتى انتهت بكثير منهم إلى الوسوسة والجنون . لذلك لابد للتربية الإسلامية أن ترد لمصطلح الشيطان ، وولاية الشيطان ، محتواهما الاجتماعي المتمركز في قلب الاجتماع البشري ، ولابد لها أن تفتح ميادين جديدة في علم النفس للتعرف على العوامل والمؤثرات التي تنتهي بالإنسان الذكي إلى الشيطنة الفكرية ، والسياسية ، والاقتصادية ، والأخلاق ، والتعرف على مضاعفاتها ، وأساليب معالجتها ، وطرق الوقاية منها . فذلك هو الذي تدعو إليه الضرورات وتتطلبه التحديات ، ويركز عليه القرآن الكريم ، حين يتحدث عن شياطين البشر من القيادات الفكرية والسياسية وآثارهم السلبية في الجماهير التي تستجيب لشيطنتهم وتقتفي أعمالهم ، من ذلك قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلاَلَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (سبأ : ٣٣) .

ولقد روى الطبري عن المفسرين قولهم عن « مكر الليل والنهار » ، أي مكركم أيها الرؤساء لنا بالليل والنهار ـ أي تدبيركم وتخطيطكم ـ حتى أزللتمونا عن عبادة الله والمنهج المستقيم في الحياة[2] .

والدرجة الثانية : ولاية الكافرين والمنافقين والعصاة بعضهم لبعض : وإلى هذه الدرجة كانت الإشارة بأمثال قوله تعالى :

---

(١) الطبري ، نفس المصدر ، ص ٥ .

(٢) الطبري ، التفسير ، حـ ٢٢ ، ص ٩٧ ـ ٩٨ .

﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ (الجاثية : ١٩) .
﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ (الأنفال : ٧٣) .

فالكافرون والمنافقون والعصاة من القادة والموجهين ، يتولون الأتباع بالتوجيه والتدريب على الممارسة والتطبيق . بينما يتولى الأتباعُ القادة والموجهين بالاستجابة ، والاتباع ، والإيواء ، والنصرة . وهم جميعاً يتعاونون لإقامة ـ أمة الكفر ـ والهيمنة في الأرض لنشر الفتنة ، والفساد الكبير .

٤ ـ التربية ورباط الولاية :

ينبه القرآن إلى ضرورة العلم بالنوعين من ـ الولاية ـ وقيام التربية بالتمييز بينهما بغية اتقاء التداخل أو الاختلاط بين الأفكار والتطبيقات ، والروابط والولاء ، مما يضعف ـ ولاية الأمة المسلمة ـ ويبطل فاعليتها . وأبرز الظواهر التي تختلط فيها مفاهيم الولاية والرعاية ، هي ـ روابط العصبية والدم والمصالح الاقتصادية ـ ، ولذلك أخضعتها التربية الإسلامية لتوجيهاتها ، وسمحت بها مادامت ـ صلة رحم ـ تدور في فلك ـ ولاية الإيمان ـ . أما إذا انقلبت عصبية جاهلية ، واصطدمت بولاية المؤمنين ، فعند ذلك لامكان لها في « أمة المؤمنين » . وإلى ذلك يشير أمثال قوله تعالى :

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (التوبة : ٢٣ ـ ٢٤) .

والرسول صلى الله عليه وسلم ، يخرج من بقي موالياً لروابط العصبية ، من دائرة الانتماء لـ « الأمة المسلمة » ، وأنه ليس من هذه الأمة من دعا إلى عصبية ، أو قاتل على عصبية ، أو مات على عصبية[1] .

وتبدو الحكمة من المفهوم الإسلامي لـ « الولاية » حين ننظر في العلاقة بين فاعلية الولاية وسعة دائرتها . فالأمة التي تمتد حدود (الولاية) فيها إلى الدائرة الإيمانية التي تتسع للإنسانية كلها ، تتفوق على الأمة التي ينتهي رباط الولاية فيها عند « الدائرة القومية » ، والأمة التي ينتهي رباط الولاية فيها عند « القوم » تتفوق على الأمة التي ينتهي فيها رباط الولاية عند دوائر « القبلية » . والسبب : أنه كلما اتسعت دائرة الولاء ، تطلبت إلى قدر أكبر من العمل الجماعي ، ومحتويات أوسع وأعمق لروابط الإيمان ، والهجرة ، والجهاد ،

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الإمارة .

والرسالة ، والإيواء ، والنصرة ، وإلى قدر أكبر من الوسائل وتكنولوجيا التنظيم . وهذا مايفسر تخلف مجتمعات العالم الثالث وتفوق مجتمعات أمريكا وأوربا واليابان ، ذلك أن ولاء الفرد والجماعات في المجتمعات المتفوقة يمتد حتى دائرة « القوم » ، بينما ينتهي ولاء الفرد في مجتمعات العالم الثالث ـ ومنه العالم الإسلامي ـ عند دائرة « القبيلة » أو « الطائفة » ؛ ولذلك تتحدد جهوده ونشاطاته واهتماماته بحدود الدوائر القبلية والطائفية ، وبما يكفي احتياجاتها المحدودة ، مما يجعل أهدافه أصغر ، وطموحاته أدنى ، ونشاطاته ووسائله في المعرفة والعمل والإنتاج أقل .

الباب الثالث

صحة الأمة ومرضها وموتها

الأمم بشكل عام كالأفراد ، تنتابها حالات الصحة والمرض والوفاة ، ولها أعمار وآجال . وحين تمضي الأمم في مراحل الصحة والمرض والموت ، فإنها تسير طبقاً لقوانين محددة ومراحل مقدرة تحكمها ـ الأسباب والنتائج ـ وتصاحبها ـ الأعراض والمضاعفات ـ حتى تنتهي الأمة إلى أجلها ومصيرها المحتوم . وإلى هذه الحقيقة يشير قوله تعالى :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (الأعراف : ٣٤) .

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (يونس : ٤٩) .

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ، مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ (الحجر : ٤ ـ ٥) .

والأسباب التي تؤدي إلى مرض الأمم وتسوقها إلى آجالها ، هي أيضاً أسباب مرض الأفراد وآجالهم : أي هي أسباب طبيعية تتمثل في الهرم وانتهاء زمن الابتلاء المقدر في الحياة ؛ وأسباب مرضية تتمثل في مخالفة قواعد صحة الأمم ، واقتراف أسباب المرض أو الوفاة . والأسباب الطبيعية لا سبيل إلى التحكم بها مثل انتهاء أجل الأمة التي أُخرجت على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم والتي أشار إلى أجلها بقوله :

« إن لكل أمة أجلا ، وإن لأمتي مائة سنة ، فإذا مرت على أمتي مائة سنة أتاها ماوعد الله »[1] .

أما الأسباب المرضية فيمكن التدخل بها إيجاباً وسلباً ، مثلما يمكن التدخل في أسباب صحة الأفراد وأمراضهم ووفاتهم . ويحتاج العاملون في ميادين (إخراج الأمة) ورعايتها ، إلى التمييز بين « أسباب » مرض الأمم ، و « أعراضه » و « مراحله » . « فالأسباب »

---

(١) المتقي الهندي ، كنز العمال ، حـ ١٤ ، ص ١٩٣ نقلا عن الطبراني في ـ المعجم الكبير ـ.

المرضية تكون « فكرية » أساسها مافي الأنفس ، من معتقدات وقيم وثقافات . . أما « الأعراض » فتكون سياسية واقتصادية واجتماعية . . وأما « المراحل » فتكون « سياسية » . والخلط بين الأسباب ، والأعراض ، والمراحل ، يتسبب في الاضطراب والارتباك في ميادين التربية والدعوة والمعالجة ، فيشتغل المعالجون بالأعراض بدل الأسباب . . أو يخطئون ترتيب الأسباب والمراحل ، أو يخطئون في استعمال وسائل العلاج وطرائقه ، أو يخطئون في توفير المؤسسات اللازمة لذلك ، وهكذا .

والرسول صلى الله عليه وسلم يوجه إلى أسباب مرض الأمم وموتها ، وإلى أعراض هذا المرض ومراحله في أحاديث كثيرة ومتنوعة مستهدفاً تحريك ـ إرادات ـ المسلمين لاستعمال ـ قدراتهم ـ العقلية والحسية للبحث في الأسباب ، وتشخيص الأعراض ، وتحديد وسائل العلاج .

ويتحدث صلى الله عليه وسلم عن مراحل صحة الأمة ومرضها ووفاتها فيقول :

« إن هذا الأمر بدأ رحمة ونبوة ، ثم يكون رحمة وخلافة ، ثم كائن ملكاً عضوضاً ، ثم كائن عتواً وجبرية وفساداً في الأرض ، يستحلون الحرير والفروج والخمور ، ويرزقون على ذلك وينصرون ، حتى يلقوا الله عز وجل »[1] .

أما تفاصيل المراحل الثلاث ومايرافقها من أسباب وأعراض ، ومضاعفات ونتائج ، فهي كما يلي :

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، حـ ٨ ، ص ٢٠ نقلا عن الطبراني باسناد جيد .

الفصل العاشر

المرحلة الأولى : مرحلة صحة الأمة وعافيتها
(مرحلة الدوران في فلك الأفكار)

يرمز إلى مرحلة صحة الأمة في الشكل رقم (١) بالمثلث أ ب حـ ، حيث تبدأ بميلاد الرسالة عند المحطة الزمنية أ ، حتى إذا تم إخراج الأمة ، وبلغت درجة النضج ، كانت حقيقة « المثل الأعلى » الذي يوجه الحياة في الأمة هي :

= دوران « الأشخاص والأشياء » في فلك « أفكار » الرسالة وتطبيقاتها =

والتطبيق العملي للدوران المذكور ، هو أن يكون « الولاء » للرسالة هو محور الأنشطة التي تكرس خلالها طاقات الأشخاص ومقدرات الأشياء في الأمة في سبيل تطبيق « أفكار » الرسالة في الداخل ، ونشرها في الخارج . وبذلك تصبح « أفكار » الرسالة هي غايات الحياة ، بينما يشكل جهاد الأشخاص وبذل الأشياء في هذا الجهاد ، دور الوسائل العامة لتحقيق هذه الغاية .

وبتعبير آخر : « يخلف أشخاص الأمة » الرسول في نصرة « أفكار » الرسالة ، فتظهر ـ الخلافة ـ وتتحدد مواقع الأفراد ووظائفهم طبقا لدرجة قدرتهم على « خلافة » الرسول في

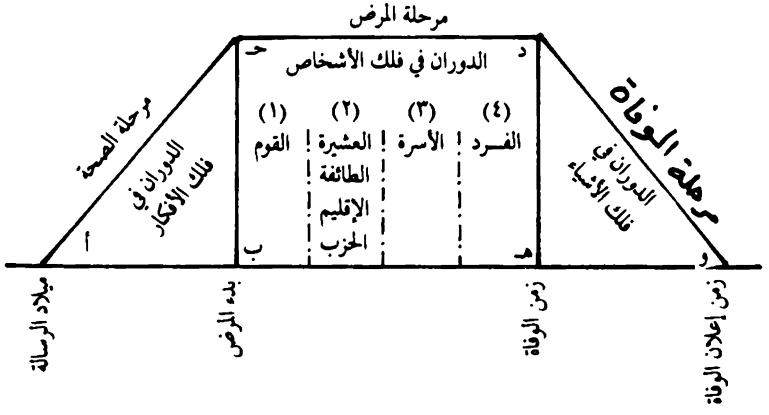

الشكل رقم (١)
مراحل صحة الأمة ومرضها ووفاتها

http://www.al-maktabeh.com

« فقه » أفكار الرسالة وتطبيقاتها ، والإخلاص في حملها . . وتطابق مواقف « الخلفاء » مع نموذج الرسول في الفقه والتطبيق ، يؤهل خلافتهم لتوصف بأنها خلافة راشدة . وتتفاوت سعة « الخلافة » بتفاوت مسؤوليات الأفراد ابتداء من مسؤولية الفرد في أسرته أو متجره ، أو وظيفته ، حتى تبلغ قمتها في ـ الخليفة الحاكم ـ الذي يدير السياسة ويصرف الأمور العامة . وهذا التجانس بين قمة الخلافة وقواعدها هو بعض ما يعنيه قوله صلى الله عليه وسلم : « كما تكونوا يُول عليكم » .[1]

وفي حالة الصحة ، تستمد عناصر الأمة : أي عناصر الإيمان ، والهجرة ، والجهاد ، والإيواء ، والنصرة ، والولاية ، محتوياتها من « أفكار » الرسالة ، وتستثمر في سبيل تطبيقات الرسالة ونشرها .

ويصور الشكل رقم (٢) التكوين الذي تنتظم طبقا له عناصر الأمة في مرحلة الصحة المشار إليها :

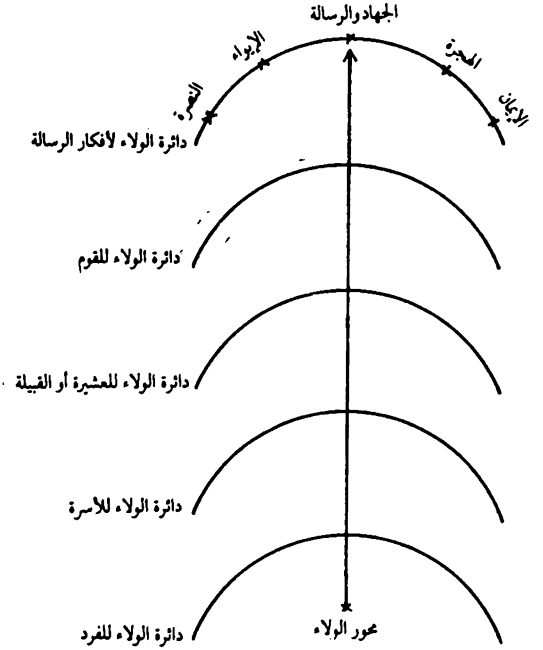

الشكل رقم (٢)

---

(١) ابن تيمية ، الفتاوى ، كتاب قتال أهل البغي ، حـ ٣٥ ، ص ٢٠ .

ونتيجة لذلك تصبح معادلة تكوين الأمة كالتالي :

الأمة = أفكار الرسالة (أفراد مؤمنون + هجرة ومهجر + جهاد + إيواء + نصرة)

= أفراد مؤمنون بالرسالة + هجرة ومهجر لأفكار الرسالة + جهاد في سبيل الرسالة + إيواء حملة الرسالة + نصرة الرسالة .

والنتيجة العملية لهذا التكوين هي : (الولاية أو الولاء للأمة) ، وهذا الولاء هو مظهر صحة الأمة وعافيتها ، وتكون المظاهر والتطبيقات العملية لذلك كما يلي :

أ ـ رقي مستوى الخبرات الاجتماعية والكونية :

يرتقي مستوى ـ الخبرات الاجتماعية والكونية ـ تبعاً لارتقاء مستوى « المثل الأعلى » . ولما كانت النشاطات التربوية والعلمية هي التطبيق العملي لرقي الخبرات المذكور ، فإن ـ إنسان التربية ـ هنا « يقرأ باسم ربه » ، ويجتهد لتوفير الأهداف والوسائل التي تحقق غايات هذه القراءة . ويكون من ثمار ذلك ثلاثة أمور : **الأول** ؛ ارتقاء مستوى المعرفة إلى مستوى « العلم » : أي مستوى اكتشاف الحقائق الجديدة ، والصياغة الجديدة للمعارف السابقة . **والثاني** ؛ اتساع دائرة المعرفة لتشمل قضايا الوجود كله في مراحل النشأة والحياة والمصير دون حدود عرقية أو مكانية أو زمانية ، إلى أن يبرز قسمان متكاملان من العلوم : علوم الغايات التي تدور حول فقه « أفكار الرسالة » وتطبيقاتها ، وعلوم الوسائل التي تدور حول « تسخير » طاقات « الأشخاص » و « الأشياء » لتوفير الأدوات اللازمة لتجسيد « غايات » الرسالة في حياة الأمة المسلمة في الداخل ، ثم حملها ونشرها بين الآخرين في الخارج . **والثالث** ؛ نشاط الحركة المعرفية ، وشيوع روح الاجتهاد ، وتعشق البحث العلمي ، والتنقيب في الخبرات البشرية الماضية والحاضرة ، وشيوع حب القراءة بين خاصة الأمة وعامتها ، وازدهار التربية والعلوم ، ومؤسساتها وتطبيقاتها في مجالات الحياة المختلفة ، وجذب العلماء من أي قطر كانوا ، وإلى أي عرق انتموا .

ب ـ رقي مستوى التفاعل مع الرسالة (رقي شبكة العلاقات الاجتماعية) :

يرتقي مستوى التفاعل مع الرسالة ـ أي ممارسة الحياة طبقاً لتوجيهاتها ـ ويتجسد هذا ـ عملياً ـ في شبكة العلاقات الاجتماعية التي تنظم علاقات الأفراد والجماعات في الداخل ، وعلاقات الأمة مع غيرها من الأمم ، حيث تتشكل هذه الشبكة كما يلي :

تصبح رابطة « الإيمان » بأفكار الرسالة هي المحدد « لجنسية » الأفراد ، و « ثقافة » الأمة . ويصبح « المهجر » الذي يجمع المؤمنين بأفكار الرسالة ، هو الوطن الواحد الذي لايتجزأ ، والدار المفتوحة لأفراد المؤمنين جميعهم .

ويصبح « الجهاد » لتجسيد أفكار الرسالة في الداخل ، ونشرها في الخارج ، هو المجرى العام الذي تصب فيه روافد جهود أفراد المؤمنين وجماعاتهم .

ويصبح « إيواء » الأفراد المؤمنين بتطبيقات الرسالة ، حقاً لكل من يحمل « جنسية » الإيمان ، ويتذوق « ثقافة » المؤمنين .

وتصبح « نصرة » كل من يحمل جنسية المؤمنين ، ومن تُوجه أفكار الرسالة إلى نصرته من غير المؤمنين ، مسؤولية تقع على كاهل الأمة جميعها .

وتشكيل محتويات عناصر الأمة بالشكل المذكور ، يؤدي إلى قيام شبكة العلاقات الاجتماعية وتنظيم مؤسساتها كما يلي :

١ ـ يجري تطبيق توجيهات الرسالة بكامل معانيها ، حيث يتركز تطبيق « الأمر بالمعروف » حول التوافق مع سنن الله وأقداره وقوانينه ، ويتركز تطبيق « النهي عن المنكر » حول الحذر من الاصطدام بهذه السنن والأقدار والقوانين في جميع الأعمال والممارسات . ويتركز تطبيق « الإيمان بالله » حول وقاية الإنسان من مرض « الطغيان » ، وادعاء الألوهية في حالة القوة والغنى ، ومن مرض « الهوان » ، والرضى برق « الأشخاص والأشياء » في حالات الضعف والفقر ، والتبعية .

٢ ـ ينتظم سلّم القيم في الأمة حول محور « الفكرة توجه القوة » ، وهذا يعني تسلم فقهاء الرسالة وحكمائها وخبرائها زمام القيادة في ميادين الحياة المختلفة . أي هم « أولو الأمر » الذين قرن القرآن طاعتهم بطاعة الله وطاعة رسوله . أما مؤسسات « القوة » ومافيها من أمراء وقادة ورؤساء وحاكمين ، فهم ـ الأجهزة ـ التي تنفذ مايشرعه « أولو الأمر » : العلماء والمفكرون .

والمصادر الإسلامية واضحة جلية في تحديد مسؤوليات « العلماء » و « الرؤساء » وتصنيفها . ففي تفسير الطبري عن ابن عباس وغيره أن « أولى الأمر » هم : أهل الفقه في الدين والعلم والعقل[1] . وعند الرازي أن غالبية العلماء ترى أن « أولي الأمر » هم العلماء ، وآخرون يرون أنهم العلماء والأمراء[2] وعند ابن تيمية أنهم : العلماء والأمراء أو أهل الكتاب وأهل الحديد[3] .

ولقد تجسدت « ولاية الأمر » لأهل الفقه والعلم والدين والعقل ، في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعهد خلفائه الراشدين رضي الله عنهم .

٣ ـ يتركز إنتاج « الأشياء » واستعمالها ، فيما يحقق غايات الرسالة ، ويجسد « مثلها الأعلى » في تحقيق المنفعة لأمة الرسالة ، وشيوع العدل ، وتكافؤ الفرص ، وهيمنة السلام .

---

(١) الطبري ، التفسير ، حـ ٥ ، ص ١٤٨ ـ ١٤٩ .

(٢) الرازي ، التفسير الكبير ، حـ ١٠ ، ص ١٤٤ ـ ١٥٠ .

(٣) ابن تيمية ، الفتاوى ، كتاب السلوك ، حـ ١٠ ، ص ٣٥٤ .

ابن تيمية ، الفتاوى ، مجمل اعتقاد السلف ، حـ ٣ ، ص ٤٢٣ .

٤ ـ تستمد نظم الإدارة والسياسة والاقتصاد والعسكرية محتوياتها من « أفكار الرسالة » ، وتحدد وظائف الأفراد ومسؤولياتهم ، طبقاً لدرجة ولائهم لأفكار الرسالة ، ودرجة قدراتهم العلمية والجسدية ، ومهاراتهم التنفيذية ، دون اعتبار لمقاييس النسب ، والمولد ، والقوة ، والعلاقات الشخصية المختلفة .

جـ ـ رقي مستوى القدرات العقلية :

في بيئة الولاء لـ « أفكار » الرسالة تشيع حريات التفكير والتعبير والعمل والاختيار ، ويتفاعل أصحاب القدرات العقلية بعضهم مع بعض ؛ الأمر الذي يساعد على نمو هذه القدرات وبلوغها أقصى مداها ، ابتداء من القدرة على الحفظ ، ومروراً بقدرات الفهم ، والتحليل ، والتركيب ، والتأليف ، والتطبيق ، والتقويم ، حتى القدرة على العمل والنشر .

واستثمار جميع المقدرات الفكرية والبشرية والثقافية والمادية بهذا التجرد والتناسق والتكامل ، يمنح الأمة الناشئة عافية وقدرات هائلة : فهو ـ أولا ـ يرفع درجة « القدرات التسخيرية » عند الأفراد ، ويبعث « إراداتهم العازمة » . وهو ـ ثانيا ـ يشيع في الأمة التجانس الثقافي في القيم والعادات والأخلاق والممارسات الاجتماعية والثقافية والفنية ونماذج التعبير والتطبيق بما يتفق مع ـ محور الولاء ـ الذي يتغذى من دائرة « أفكار » الرسالة ، الأمر الذي يمنح الأمة الناشئة عافية وقدرات تقودانها إلى نجاحات حاسمة ، وانتصارات كاسحة ، تدفع بالمجتمعات المعاصرة لأمة الرسالة إلى فتح قلوبها لبعوث الرسالة ، والإقبال على دراستها ، والتفاعل معها ، واعتناق عقيدتها وتطبيقاتها .

http://www.al-maktabeh.com

الفصل الحادي عشر

مرحلة مرض الأمة
(مرحلة الدوران في فلك الأشخاص)

يرمز إلى مرحلة مرض الأمة في الشكل رقم (١) بالمستطيل ب حـ د هـ . وتتحول الأمة إلى هذه المرحلة حين تصبح حقيقة « المثل الأعلى » الذي يوجه الحياة فيها هي :

= دوران « الأفكار والأشياء » في فلك « الأشخاص » =

ويبدأ الدوران المذكور حين يتغير مفهوم حمل « أفكار » الرسالة ، فيصبح « مكاسب » يسعى « أشخاص » العصبيات القوية إلى « إجبار » الآخرين على الاعتراف لهم بـ« ملكيتها » ، والتمتع بثمارها في الجاه والمال والنفوذ بعد أن كانت « مسؤولية » ، و «أمانة » ، « يخلف » أفراد الأمة الرسول في حملها ونشرها . والمحصلة النهائية لهذا التبدل في القيم الاجتماعية ، هي اختفاء « الخلافة الراشدة » ، وظهور ما يسميه الرسول صلى الله عليه وسلم بـ « الملك الجبري » الذي يلغي الشورى وحرية الاختيار ، ويجبر الأمة على المنهج الذي يضمن مصالح « أشخاص » العصبيات في الحكم والتملك . وتتفاوت دوائر « الملك الجبري » في الأمة بتفاوت سعتها ومقدارها ، فتبدأ من الأسرة أو المتجر أو الوظيفة ، حتى تبلغ أقصى سعتها في صلاحيات الحاكم . وهذا التجانس بين قمة ـ الملك الجبري ـ وقواعده ، يندرج كذلك تحت قوله صلى الله عليه وسلم : « كما تكونوا يُولّ عليكم » .

ونجاح « أشخاص الملك الجبري » في توجيه سُلّم القيم في الأمة عند المحطة الزمنية (ب) في الشكل رقم (١) ، يهيء إلى انحسار عناصر الأمة ، أي عناصر : الإيمان ، والهجرة ، والجهاد ، والإيواء ، والنصرة ، والولاية ، من دائرة « الأفكار » إلى دائرة الولاء لـ« الأشخاص » ، واستبدال محتوياتها الفكرية بمحتويات « شخصية » . . وتكون المحصلة النهائية لتفاعلاتها هي ـ الولاء للأشخاص ـ . وبذلك يتغير تكوين الأمة لتصبح معادلته كما يلي :

الأمة = الولاء للأشخاص (إيمان + هجرة ومهجر + جهاد ورسالة + إيواء + نصرة)

= إيمان بالأشخاص + هجرة للأشخاص + جهاد للأشخاص + إيواء للأشخاص + نصرة للأشخاص .

والولاء لـ « الأشخاص » له دوائر بعضها أضيق من بعض . فهناك الولاء للقوم ، والولاء للإقليم ، ثم الولاء للعشيرة ، أو الطائفة ، أو الحزب ، ثم الولاء للأسرة ، ثم ولاء الفرد لنفسه .

ويصور الشكل رقم (٣) أولى دوائر الولاءات المشار إليها : أي دائرة الولاء للقوم ، أو الطور الأول من أطوار مرض الأمة .

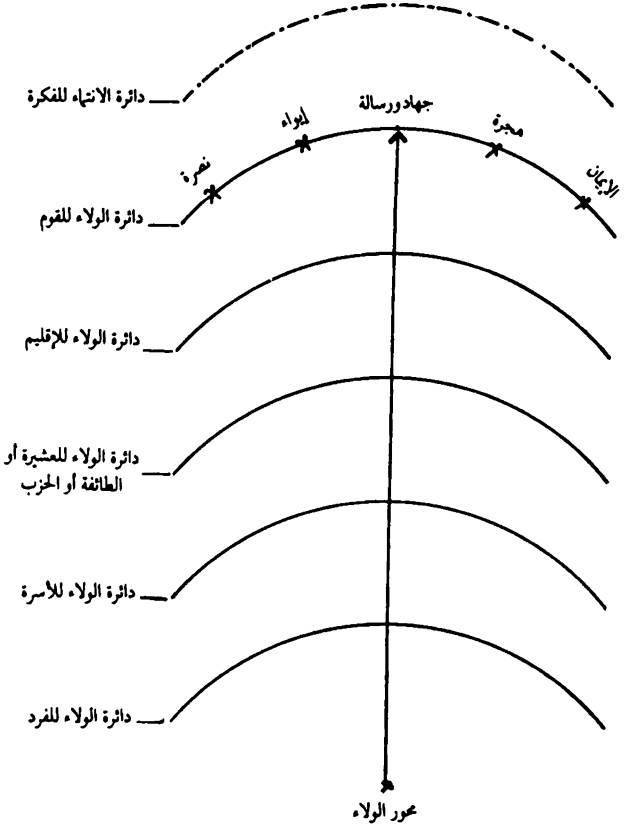

الشكل رقم (٣)

الطور الأول : طور الولاء للقوم

حقيقة « المثل الأعلى » الموجه لحياة الأمة في هذا الطور هي :

ـ دوران « الأفكار والأشياء » في فلك « أشخاص » القوم ـ

واتصاف المثل الأعلى بهذه الصفة ، يؤدي إلى انحسار عناصر الأمة أي عناصر : الإيمان ، والهجرة ، والجهاد ، والإيواء ، والنصرة ، من دائرة « أفكار الرسالة » إلى دائرة « أشخاص القوم » ، واستبدال مضامينها الفكرية بمضامين قومية . وتكون المحصلة النهائية لتفاعلاتها هي ـ الولاء للقوم ـ وبذلك يتغير تكوين الأمة لتصبح معادلته كما يلي :

الأمة = الولاء للقوم (إيمان + هجرة ومهجر + جهاد ورسالة + إيواء + نصرة)

= أفراد يؤمنون بالقوم + هجرة قومية + جهاد ورسالة قومية + إيواء قومي + نصرة قومية .

أما دائرة « أفكار » الرسالة ، فتتحول صلة الأمة بها إلى صلة « نفاق » ، لاصلة ولاء . أي تتحول إلى أفكار مخزونة « تنفق » عند الحاجة من أجل نصرة محور الولاء لـ « أشخاص القوم » ، وقد يبقى في الأمة أفراد أو جماعات تدور في فلك « أفكار » الرسالة ، ولكن دورانهم هذا يضعهم في « غربة » عمن حولهم ، ولايخرجون في كل تفاعل اجتماعي إلا بالخبرات السلبية ومشاعر الإحباط والأسى والعدمية .

وفي هذا الطور ، تتعدد ـ محاور الولاء ـ تبعاً لتعدد الأقوام المكونة لأمة الرسالة ، بدل الولاء للأمة الواحدة ، وتنشأ عن ذلك مضاعفات مرضية في الخبرات الاجتماعية ، والكونية ، ومستوى القدرات العقلية المتفاعلة في الأمة ، تتمثل فيما يلي :

أ ـ مضاعفات المرض في مستوى الخبرات الاجتماعية والكونية : ينحسر مستوى التفاعل مع الخبرات الاجتماعية والكونية في هذا الطور ، تبعاً لانحسار « المثل الأعلى » . ويكون التجسيد العملي لهذا الانحسار في ميدان التربية والعلم ، فتتغير فلسفة التربية وأهدافها ، إذ « يقرأ » إنسان التربية في هذا الطور « باسم قومه » ، أي لرفعتهم ، وتمكينهم في الهيمنة والتملك ، وكذلك يفعل « العالم » .. ويكون لهذا التغير نتائج هي :

النتيجة الأولى ؛ هبوط مستوى المعرفة من دائرة الأفكار إلى دائرة الأشخاص ، ومن اكتشاف الحقائق الجديدة إلى مجرد « الإخبار » بما أنتجه السلف السابقون .

والنتيجة الثانية ؛ ضيق دائرة المعرفة عن سابقتها ، لتتحدد في « فقه » مرحلة الحياة ، تاركة قضايا النشأة والمصير للمتزهدين المنسحبين من الحياة ، بانتظار العدل الأخروي ، ومن الدائرة الإنسانية التي تعالج قضايا الإنسان خارج حدود الزمان والمكان ، إلى الدائرة القومية التي تحدد المعرفة داخل الحدود العرقية والتاريخية .

والنتيجة الثالثة ؛ دحر فقهاء « أفكار » الرسالة ومربيها ومؤسساتها من مركز الاجتماع البشري إلى هوامشه ، ومن مواقع الحياة القائمة إلى غيبيات لاصلة لها بمسيرة الإنسان في مراحل النشأة والحياة والمصير .

والنتيجة الرابعة ؛ ظهور « فقهاء أقوياء القوم » المتربعين في مراكز النفوذ . وحلول هذا النوع من الفقهاء محل « فقهاء الرسالة » ، يشكل تحولاً جذرياً في التربية والفكر ، فهو يحل « فقه النزعات القومية » محل « الفقه السنني » . والفرق بين النوعين هو أن « الفقه السنني » يستنير بآيات الوحي في الكتاب ، « ليقرأ » سنن الاجتماع البشري وقوانين الخلق في الآفاق والأنفس . أما « فقه النزعات القومية » فهو يؤول آيات الكتاب ويحرفها عن مواضعها ، لتبرر إرادات أصحاب القوة والنفوذ ، دون نظر في آيات الآفاق والأنفس .
وإلى هذا التغيير والزوغان يشير قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ (الصف : ٥) .

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ﴾ (آل عمران : ٧) .

أي فلما زاغوا - أي تحولوا - عن الدوران في فلك « أفكار » الرسالة ، عملت سنن الله عملها في تحويل قدرات العقل والإرادة في قلوبهم ، فصارت تتحرى المتشابه من آيات القرآن لتأويله ، وتبرير الدوران في فلك « الأشخاص » ومصالحهم . ومن هذا الزيغ كان تحذير الرسول صلى الله عليه وسلم من أن القرآن والسلطان سيفترقان ، وأن على المسلم أن يدور مع القرآن حيث دار ، كما مر في حديث سابق . وحدوث هذا الزيغ يفضي إلى نتائج خطيرة هي :

١ - يتجزأ « الفقه » ، ويُقضى على وحدته . فيكون هناك « فقه » للحياة كما تودها إرادات أصحاب القوة ، و « فقه » ينحسر إلى ميادين النشأة والمصير دون مرور في محطة الحياة . وينمو « فقه » المظهر الديني للعبادة ، وينحسر « فقه » المظهر الاجتماعي ، لأن إرادة الجالسين في مراكز النفوذ تتطلع للبقاء طليقة من أي « فقه » يقيدها في التصرف بشؤون الحياة والاجتماع . وانحسار « فقه » المظهر الاجتماعي للعبادة ، ينعكس على « فقه » المظهر الكوني ، فبدل أن يكون بحثاً عن آيات الله في الآفاق والأنفس ، يصبح تطويراً لوسائل الهيمنة على البشر ، وبدل أن يكون « تسخيراً » للمخلوقات لخدمة الإنسان ، يصبح « تسخيراً » للإنسان والمخلوقات سواء ، لإرادات أصحاب القوة والنفوذ .

٢ ـ تفضي النتيجة الأولى إلى نتيجة ثانية ، وهي وقوع الانشقاق بين « أهداف الحياة » التي توفرها العلوم الدينية ، وبين « الوسائل » التي توفرها العلوم الطبيعية ، وينقسم المشتغلون بالعلوم إلى قسمين : أناس يشتغلون بأهداف بلا وسائل ، وأناس يشتغلون بوسائل لا أهداف لها . وتمتد هذه الانشقاقات إلى مناهج الفهم ، حيث يجري تأويل الأفكار والمبادىء تأويلات شتى طبقاً « للولاءات البشرية » ، وبذلك تشتغل المؤسسات التربوية بمنجزات الأشخاص ، وتنمية الولاءات لهم ، وتثور الخصومات الجدلية التي تثيرها الولاءات . وإلى هذه الانشقاقات يشير قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُم فِي شَيْءٍ ﴾ (الأنعام : ١٥٩) .

ب ـ مضاعفات المرض على « القدرات العقلية » و « الإرادة العازمة » و « القدرة التسخيرية » :

تفضي مضاعفات الدوران في فلك « الأشخاص » ، إلى النيل من حرية « القدرات العقلية » عند كل من ـ إنسان التربية والعالم ـ وإعاقتها عن النمو السليم ، مما يتسبب في ضمور القدرات العقلية العليا ، كالتحليل ، والتركيب ، والتقويم ، والاقتصار على قدرات الحفظ والاستظهار ، والفهم والتأويل ، ويكون من نتائج ذلك ظاهرتان رئيستان :

الأولى ؛ نقص في الإرادة العازمة ، والقدرة التسخيرية عن مستواهما في مرحلة صحة الأمة ، وولادتهما بصورة غير عازمة ولاتسخيرية ، وبالتالي لاينجبان ـ العمل الصالح ـ بالدرجة التي كان عليها في مرحلة ـ صحة الأمة ـ أي أن مؤسسات التربية تتوقف عن إخراج الإنسان الصالح بالصورة التي كان عليها في مرحلة ـ صحة الأمة ـ .

والظاهرة الثانية ؛ هبوط مستوى الحماس للمعرفة والبحث ، ولذلك يبدأ التقاعس ، والميل إلى التقليد ، وعدم التجديد ؛ والجري وراء الألقاب واليافطات ، أكثر من الأعمال والمنجزات . ويكون من نتائج ذلك : توقف المؤسسات التربوية والعلمية عن « الهجرات » العقلية والنفسية . أي تتوقف عن التجديد في الفهم ، وتتخلف عن مواكبة الشؤون المتجددة التي يطرحها الله في الخلق الجديد المتجدد ، وتبذر بذور الأبائية ، وتضعف الجاذبية الحضارية ، فتتوقف ـ هجرات العقول الرافدة ـ المتشوقة للمشاركة في حمل الرسالة ، ويتوقف تجديد شباب الأمة ومواردها البشرية ، ويتحول « المهجر » إلى « وطن » مغلق راكد الحركة ، سوى مايكون من تنافس « الأقوام » وتناطحها بسبب الولاءات القومية المتباينة .

جـ ـ اضطراب مستوى التفاعل مع الرسالة (اضطراب شبكة العلاقات الاجتماعية) :

في هذا الطور المرضي ، يصيب الخلل التفاعل مع الرسالة ، أي ممارسة الحياة طبقاً لنموذجها ، بالقدر الذي أصاب الخلل « المثل الأعلى » في الأمة ، ويظهر هذا الخلل في

اضطراب شبكة العلاقات الاجتماعية في الداخل والخارج ، وبذلك تتشكل هذه الشبكة كما يلي :

- تصبح رابطة « الإيمان بالولاء للقوم » ، هي المصدر الذي يحدد « جنسيات » الأفراد ، و « ثقافاتهم » .
- يتحول « المهجر » إلى « وطن » مغلق ، يقتصر على المؤمنين برباط الولاء للقوم .
- يتحول « الجهاد » إلى بذل أشكال الجهد لرفعة القوم ، وتفوقهم على بقية الأقوام في الداخل والخارج .
- يقتصر « الإيواء » على من يدورون في فلك الولاء للقوم ، الذين يتسلمون زمام القيادة ، ويتفوقون على غيرهم من الأقوام المكونة للأمة .
- تتحول « النصرة » إلى نخوة قومية ، هدفها نصرة من يدورون في فلك الولاء للقوم .
- تتحول « الولاية » من الاهتمام بشؤون أمة المؤمنين ، إلى الاهتمام بشؤون القوم .

وتشكيل محتويات عناصر الأمة بهذا الشكل ، يؤدي إلى قيام مؤسسات وتشكيل شبكة علاقات اجتماعية توجه النشاطات كما يلي :

١ - في البيئة الجديدة - بيئة الدوران في فلك أشخاص القوم - تنحسر معاني الرسالة ، فيحذف من « الأمر بالمعروف » كل ماينال من إطلاق أيد « أشخاص القوم » الأقوياء - الأثرياء ، ويضيق معنى « النهي عن المنكر » ليسقط منه كل ماينال من أخطاء « أشخاص القوم » الأقوياء . ويضيق معنى « الإيمان بالله » ليقتصر على المظهر الديني للعبادة دون المظهر الاجتماعي الذي يسوي « أشخاص القوم » الأقوياء مع نظائرهم غير الأقوياء والضعفاء .

٢ - يتبدل سلّم القيم في الأمة ، ليصبح محوره : « القوة فوق الفكرة » ، الأمر الذي يجعل - أولو الأمر - هم أهل القوة بدل أهل الفكر ، وتصبح وظيفة « مؤسسات النصرة » : تطبيق الحدود الشرعية لتنفيذ إرادات أهل القوة بدل قيم الرسالة .

٣ - تنقسم الأمة - من الناحية العملية - إلى عدة أمم قومية أو شعوبية ، تتنافس من أجل الهيمنة والاستئثار بمظاهر « الإيواء » ، وبذلك تنقسم الأمة إلى سادة ، يهيمنون على منافع « الإيواء » ، وموالي « يجاهدون » من أجل المشاركة في هذه المنافع .

٤ - تبذر بذور قومية « الجنسية » و « الثقافة » ، بما فيها القيم ، والعادات ، واللغات ، والفنون ، وغير ذلك ، مما يهيء لظهور حركات الانفصال والنزعات الإقليمية ، ويضغط على حدود « المهجر » الواحد لتفجيره إلى عدد من الأوطان .

٥ - تتحدد مكانة الأفراد في الأمة ، ومسؤولياتهم طبقاً لأصولهم القومية ، ومكانتهم الاجتماعية ، ومواقعهم على دوائر الولاء للقوم ، أو الإقليم ، أو العشيرة ، أو الأسرة ،

http://www.al-maktabeh.com

دون اعتبار لمقاييس الفكر والقدرات الفكرية ، والولاءات الإسلامية ، إلا بمقدار ما تمليه الضرورة في تأمين الولاء لأشخاص القيادة ، واستقرار نفوذهم .

٦ ـ تهتز مكانة العدل في الأمة ، وتبذر بذور الظلم ، وتفقد قيم الرسالة فاعليتها وتأثيرها ، وتتحول إلى قيم مخزونة في مخازن التراث ، « ينفقها » الأقوياء لتبرير هيمنتهم واحتكارهم . و « ينفقها » المستضعفون لاستجداء ـ أشيائهم ـ ، مما يمهد إلى ظهور « قيم كفر الترف » ، و « قيم النفاق » ، و « قيم كفر الحرمان » ، التي تفترس المظلومين من أذكياء الأمة ومحروميها[1] .

٧ ـ يتحول « ولاء » عامة الأمة وحبهم وطاعتهم ، إلى « الأشخاص » الأقوياء ، الذين يحتكرون « الأشياء » ، ويتحكمون بمصائر « الأشخاص » الأتباع . وبذلك يتحول الناس من تأليه الله مصدر الرسالة ـ أي حبه وطاعته ـ إلى تأليه ـ الأشخاص الأقوياء ـ وتتحرك إراداتهم إلى المدى الذي يحدده هذا التأليه . وبذلك تنتقل الأمة من صفاء التوحيد ، إلى شرك الصنمية : صنمية الأشخاص التي أطلق القرآن عليها اسم ـ صنمية الأنداد ـ وتبتكر رموزاً جديدة للصنمية تتلاءم مع روح العصر وثقافته واتجاهاته . وبذلك تتحول الأمة من « أمة رسالة » إلى « أمة سدنة » . والفرق بين النوعين من الأمة ، أن الأولى تضحي بالأموال والنفوس في سبيل الرسالة ، بينما « تنفق » أمة السدنة أفكار الرسالة لتنال السلطان ، وتجمع المال وترفه النفوس ، ويتحول فيها العلماء ورجال الفكر ومؤسسات التربية إلى التعلق برسوم العلم ومظاهره ، ويشتغلون بـ « فقه » الأشكال بدل « فقه » الأعمال .

الطور الثاني ؛ طور الولاء للعشيرة ونظرائها (كالطائفة ، أو الحزب أو الإقليم) :

وتحول الأمة إلى وحدات قومية متنافسة ، ينقل عدوى التنافس داخل كل قومية ، أي بين قبائلها وطوائفها ؛ الأمر الذي يؤدي إلى انحسار ـ محور الولاء ـ من دائرة القوم إلى دائرة العشيرة أو الطائفة أو الإقليم أو المذهب أو الحزب ، مما يهيىء إلى انحسار « المثل الأعلى » الموجه للحياة لتصبح حقيقته هي :

ـ دوران « الأفكار والأشياء » في فلك « أشخاص » العشيرة أو الطائفة أو الحزب أو الإقليم أو المذهب .

واتصاف ـ المثل الأعلى ـ بهذه الصفة يؤدي إلى انحسار عناصر الأمة ، أي عناصر الإيمان ، والهجرة ، والجهاد والرسالة ، والإيواء ، والنصرة من دائرة القوم إلى دائرة

---

(١) للوقوف على تفاصيل الأنواع الثلاثة من ـ القيم ـ راجع كتاب ـ فلسفة التربية الاسلامية ـ للمؤلف .

العشيرة أو نظائرها ، واستبدال مضامينها القومية بمضامين عشائرية ، أو طائفية ، أو إقليمية ، أو مذهبية ، أو حزبية ، ثم تكون نتيجة هذا الانحسار هي تغير تركيب الأمة لتصبح معادلته كالتالي :

الأمة = الولاء للعشيرة (إيمان + هجرة ومهجر + جهاد ورسالة + إيواء + نصرة)
= حمية عشائرية + هجرة عشائرية + جهاد ومصالح عشائرية + إيواء عشائري + نصرة عشائرية .

ومثلها معادلات الطائفة ، أو الإقليم ، أو الحزب ، أو المذهب .

وفي طور الولاء للعشيرة (أو الطائفة أو الإقليم أو الحزب) تتعدد محاور الولاء في الأمة ، طبقاً لتعدد العشائر أو الطوائف أو الإقاليم أو الأحزاب المكونة للأمة . أي أن « الأمم القومية » المتجمعة في « بالون » الأمة ، تمارس مزيداً من الانقسامات ، فتتحول إلى أمم عشائرية أو طائفية تتنافس داخل إطار « بالون أمة الرسالة » وتضغط عليه لتمزقه . ولذلك تحدث مضاعفات مرضية في التربية والاجتماع .

الطور الثالث : طور الولاء للأسرة :

تنتقل الأمة إلى هذا الطور ، حين يُصاب « المثل الأعلى » الذي يوجه حياة الأمة وعلاقاتها بمزيد من الانحسار وتصبح حقيقته هي :

ـ دوران « الأفكار والأشياء » في فلك « أشخاص الأسرة » ـ

واتصاف المثل الأعلى بهذه الصفة يؤدي إلى انحسار محور الولاء من دائرة العشيرة أو الطائفية إلى دائرة الأسرة مما يهيىء أيضاً لانحسار عناصر : الإيمان ، والهجرة ، والجهاد ، والإيواء ، والنصرة ، إلى دائرة الأسرة لتستمد مضامينها منها وتتفاعل معها ، وتكون المحصلة النهائية لهذا الانحسار كله هي تغير محتويات عناصر الأمة لتصبح معادلتها كالتالي :

الأمة = الولاء الأسري (إيمان + هجرة + جهاد ورسالة + إيواء + نصرة)
= تعصب أسري + هجرة أسرية + كد أسري + نصرة أسرية .

حيث ينحسر ـ محور الولاء ـ من دائرة « أشخاص العشيرة » أو الطائفة ، أو الإقليم ، أو الحزب ، إلى دائرة الولاء لـ « أشخاص الأسرة » ، ويصبح الطابع العام لـ « المثل الأعلى » الذي يوجه الحياة العامة هو :

ـ دوران « الأفكار والأشياء » في فلك « أشخاص الأسرة » ـ

أما دائرة العشيرة ، أو الطائفة ، أو الحزب ، أو الإقليم ، فتتحول إلى صلة « نفاق »

ومجاملات لاصلة ولاء : أي تنضم إلى مخزون أرصدة « الأفكار والقوم » لـ « تنفق » مثلهما عند الحاجة من أجل ـ محور الولاء للأسرة ـ بينما تحول دائرتها ـ أي دائرة العشيرة ونظائرها ـ إلى منطقة جفاف اجتماعي لايعود الذين يبقون على الولاء لها ، إلا بالخبرات السلبية ، والإحباطات ، ومشاعر الخيبة ، والعدمية .

وفي هذا الطور تتفاعل مضاعفات مرض الأمة ، وتؤدي إلى مزيد من المضاعفات المرضية في مستوى التفاعل مع الخبرات الاجتماعية والكونية ، وفي القدرات العقلية ، وفي مستوى التفاعل مع أفكار الرسالة .

الطور الرابع : طور ولاء الفرد لنفسه :

أبرز ملامح هذا الطور هو تدني « المثل الأعلى » الموجه للحياة في الأمة لتصبح حقيقته هي :

ـ دوران « الأفكار والأشياء » في فلك « شخص الفرد » نفسه ـ

واتصاف المثل الأعلى بهذه الصفة يؤدي إلى انحسار ـ محور الولاء ـ من دائرة الأسرة إلى دائرة الفرد نفسه ، مما يهيء إلى انحسار عناصر الأمة : الإيمان ، والهجرة ، والجهاد والرسالة ، والإيواء ، والنصرة ، وانكماشها في بؤرة الأنانية الفردية ؛ وتكون المحصلة النهائية لهذا الانكماش هي تغير محتويات عناصر الأمة لتصبح معادلتها كالتالي :

الأمة = ولاء الفرد لنفسه (الإيمان + هجرة + جهاد ورسالة + إيواء + نصرة)

= أفراد أنانيون + هجرة فردية + جهاد فردي + إيواء فردي + نصرة فردية .

حيث ينحسر محور الولاء إلى « شخص » الفرد نفسه ويصبح الطابع العام هو :

ـ دوران « الأفكار والأشياء » حول « شخص » الفرد نفسه ـ

أما دائرة الأسرة فتتحول إلى صلة « نفاق » لاصلة ولاء ، أي هي تنضم إلى مخزون أرصدة الأفكار والقوم والعشيرة لـ « تنفق » عند الحاجة من أجل مصالح الفرد الخاصة .

وفي هذا الطور تتفاعل مضاعفات المرض وتدفع بالأمة إلى حالة النزع الذي تتمثل مظاهره فيما يلي :

أ ـ ضآلة التفاعل مع الخبرات الإجتماعية والكونية : يتفاقم انحسار التفاعل مع الخبرات الاجتماعية والكونية ، تبعاً لتفاقم انحسار « المثل الأعلى » في الأمة . ويكون التجسيد العملي لهذا التفاقم في ميدان التربية ، حيث « يقرأ الفرد باسم نفسه » دونما أية فلسفة تربوية أو أهداف ، وإنما يتدرب على ـ المعلومات والمهارات ـ التي تسوّقه في

أي مجتمع وتحت أي لواء . ولذلك يتحول إلى مواطن مرتزق يجوب الأرض للعمل تحت أي لواء ، ويمنح لكل جهة ولاء .

ب ـ تفاقم انحسار مستوى التفاعل مع الرسالة :

في هذا الطور تصبح رسالة الفرد في الحياة أن يعيش طبقاً لما يقتضيه محور ولائه لنفسه ، وتصبح شبكة العلاقات الاجتماعية كما يلي :

يصبح محتوى « الإيمان » بشهوات الفرد وتأمينها محدداً لـ « جنسيته وثقافته » ، فهو قابل للذوبان في أية جنسية وفي أية ثقافة .

ويصبح المكان الذي يجد الفرد فيه قضاء مصالحه ، هو « المهجر » الذي يشد إليه رحاله . . ويصبح العمل لتأمين المصالح المذكورة هو مظهر « الجهاد » الذي يفرغ الفرد فيه طاقاته العقلية والنفسية والجسدية .

ويتحدد مفهوم « الإيواء » في : توفير الإقامة المريحة الزاخرة بمصالح الفرد نفسه .

ويتحدد مفهوم « النصرة » في : منافحة الفرد عن مصالحه الخاصة دون سواها .

ويتحدد مفهوم « الولاية » في : الأنانية الفردية ، وتقديمها على أي شيء آخر .

وبلوغ الأمة ـ هذا الطور ـ معناه تمزق شبكة العلاقات الاجتماعية ، وتعطل الفاعلية الاجتماعية لعناصر الإيمان ، والهجرة ، والجهاد والرسالة ، والإيواء ، والنصرة ، والولاية ، وأبرز مظاهر هذا التعطل هو انفجار الأسرة ، آخر الوحدات الاجتماعية في الأمة ، وانصراف كل عضو فيها لشؤونه الخاصة دون سواه . وبلوغ الأمة هذه الحالة ، يحولها إلى أكوام بشرية لاعلاقة بينها ؛ ومعنى هذه الحالة الدخول في المرحلة الثالثة : مرحلة الوفاة !!

وأخيراً لابد من الانتباه إلى الملاحظات التالية :

الملاحظة الأولى ؛ إن سلسلة الانحسارات المتوالية التي تمر بها الأمة ، تتم بدرجة متفاوتة عند أفراد الأمة وجماعاتها ، فقد يكون أناس على دائرة الولاء للأفكار ، في الوقت الذي يكون آخرون على دائرة الولاء للقوم ، وتتناثر الأكثرية على دوائر الولاء للعشيرة ، والعائلة ، والطائفة ، والفرد . . وفي هذه الحالة ، يعاني الذين يعيشون على الدوائر الواسعة ، من « الاغتراب » الفكري والاجتماعي ، ولايكون لهم أثر في الأحداث أو إيقاف السرطانات الاجتماعية التي تؤدي بالأمة إلى الوفاة !!

والملاحظة الثانية ؛ ليس حتمياً أن تتوالى الانحسارات حتى تنتهي بالأمة إلى الوفاة ، فقد تقوم حركات مراجعة و « توبة » إصلاحية ، ترد للأمة قسطاً من العافية ، أو تمنع زيادة الانحسار لمدة ، وتنقلها من المرض إلى الصحة .

والملاحظة الثالثة ؛ يمكن المحافظة على عافية الأمة وصحتها ، إذا كان هناك رقابة و « توبة » دورية ، وترميم لظواهر الاختلال ، أو مقدمات المرض ، والقيام بهذه المهمة يحتاج إلى مؤسسات متخصصة تضم عدداً كافياً من الخبراء المختصين يتناسب عددهم مع عدد الأمة .

ولعله من الموضوعية أن نقول : إن الأمم الغربية المعاصرة قد انتبهت إلى الملاحظة الثالثة ، وأقامت المؤسسات المتخصصة التي تفحص نشاطات الأمة بمختلف الوسائل العلمية ، كالبيانات الاستطلاعية ، والدراسات الإحصائية ، والاستفتاءات ، والتنقيب في ثنايا الخطط ، وتقويم المشروعات ، وفي جميع هذه الوسائل ، توفر لها حرية النقد ، والتعبير ، والتشخيص ، لأنه بدون هذه الحرية لايمكن أن يكون هناك تقويم وتصحيح .

الفصل الثاني عشر

مرحلة وفاة الأمة
(مرحلة الدوران في فلك الأشياء)

يرمز إلى هذه المرحلة في الشكل رقم (١) بالمثلث د هـ و حيث تبدأ بوفاة الأمة عند المحطة الزمنية (هـ) وتنتهي عند إعلان الوفاة ، والقيام بالدفن عند المحطة الزمنية (و) . وتنتهي الأمة إلى حالة الوفاة حين تصبح حقيقة « المثل الأعلى » الذي يوجه الحياة فيها هي : ـ دوران « الأفكار والأشخاص » في فلك « الأشياء » ـ

والتجسيد العملي لهذا الدوران هو تمركز شهوات الحياة ومتعها في محور نظام القيم السائدة ، وتكريس المقدرات الفكرية والبشرية لتوفير هذه الشهوات والمتع ، ونسيان ما عداها من قضايا النشأة والحياة والمصير . وإلى هذا النسيان يشير قوله تعالى : ﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ (الحشر : ١٩) .

والمحصلة النهائية لهذا التبدل في القيم هي بروز « إنسان » أناني ، تدور اهتماماته حول « ملكية الأشياء » ، والعض عليها بكل الأنياب المادية والنفسية كقوة السلاح ، والتآمر ، والغش ، والظلم ، والاغتصاب دون اعتبار للآخرين ومصائرهم . ويطلق الرسول صلى الله عليه وسلم على هذا النظام القيمي اسم ـ الملك العضوض ـ أي الذي يعض عليه أهله بقوة السلاح ويغتصبونه بالقتل والفتن ، ويحرسونه بالإرهاب .

وتتفاوت سعة دوائر شهوة ـ الملك العضوض ـ بتفاوت دوائر الممالك في الأمة . فهي تبدأ من ـ ملك الفرد ـ العادي للأشياء ، حتى تبلغ أقصى سعتها في الملكية المطلقة للحاكم . وهذا التجانس بين قمة ـ الملك العضوض ـ والقواعد الشعبية العضوضة يندرج أيضا تحت قوله صلى الله عليه وسلم : « كما تكونوا يُولَّ عليكم » . وتفصل الأحاديث النبوية في تشخيص هذا اللون من قيم ـ الملك العضوض ـ ومظاهره ومضاعفاته ، من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :

« سيأتي على الناس زمان ، لايُنال الملك فيه إلا بالقتل والتجبر ، ولا الغنى إلا بالغصب والبخل ، ولا المحبة إلا باستخراج الدين ، واتباع الهوى ، فمن أدرك ذلك الزمان فصبر على الفقر وهو يقدر على الغنى ، وصبر على البغضة وهو يقدر على المحبة ، وصبر على الذل وهو يقدر على العز ، أتاه الله ثواب خمسين صدِّيقاً ممن صدّق بي »[1] .

وفي حديث آخر :

« يأتي على الناس زمان همتهم بطونهم ، وشرفهم متاعهم ، وقبلتهم نساؤهم ، ودينهم دراهمهم ودنانيرهم ، أولئك شر الخلق لاخلاق لهم عند الله »[2] .

أولا ـ أعراض الأمة الميتة :

تبقى الأمة الميتة ـ بعد حدوث الوفاة ـ فترة من الزمن ، تكون خلالها كالعمارة الضخمة المتصدعة ، التي تظل قائمة مادامت لم تهب الرياح التي تقوض أركانها ، أو لم تعمل فيها آلات الهدم التي تهدم حيطانها . ويقدم القرآن للأمم الميتة مثلا من جثة سليمان عليه السلام ، التي ظلت زمناً بعد وفاته تخيف العاملين تحت إمرته ، فلما أكلت دابة الأرض المنسأة ـ أو العصاة ـ التي تستند إليها الجثة ، وخرت إلى الأرض ، قال العاملون تحت إمرته من الجن والإنس : لو كنا نعلم وفاته مالبثنا زمناً طويلاً في عذاب العمل ، وتنفيذ الأوامر .

وكذلك أنظمة الحكم الجائرة . . والأمة حين تموت ، تبقى زمناً تتكىء على منسأتها من أجهزة الأمن ، بحيث يخيل للرازحين تحت ظلمها أنها حية قائمة ، حتى يبعث الله عناصر انقلابية من الداخل ، أو قوة غازية من الخارج ، فتأكل المنسأة ، وتخر الأمة ، وتعلن الوفاة . وحينئذ يتبين الرازحون تحت ظلمها ، أن لو كانوا يعلمون الغيب ، مالبثوا زمناً في العذاب المهين .

والرسول صلى الله عليه وسلم يحدد للأمة الميتة أعراضاً مجملة رئيسة يندرج تحت كل عرض تفاصيل دقيقة ، يستطيع أولو الألباب من خلال هذه الأعراض التحقق من وفاة الأمة ونظام الحكم فيها ، فيقون الناس مضاعفات الانهيار ، ويبدأون محاولات بعث الأمة من جديد . ومن الأحاديث التي تقدم مجمل هذه الأعراض مايلي :

« إذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوىً متبعاً ، ودنيا مؤثَرة ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، فعليك بخاصة نفسك ، ودعك من أمر العامة »[3] .

---

(١) عز الدين بليق ، منهاج الصالحين ، (بيروت : دار الفتح ، ١٣٩٨/١٩٧٨ ، ص ٩٣٨ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٩٣٧ نقلا عن الديلمي .
(٣) الترمذي ، السنن ، حـ ٨ (كتاب التفسير : تفسير سورة المائدة ، ص ٢٢٢ ، رقم ٣٠٦٠ .
ومثله : سنن ابي داود ، حـ ٤ ، كتاب الملاحم .
و : سنن ابن ماجه ، كتاب الفتن ، حـ ٢ ، ص ١٣٣١ رقم ٤٠١٤ .

فالشح المطاع ، والهوى المتبع ، والدنيا المؤثرة ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ؛ كلها أعراض رئيسة للأمة الميتة ، يتفرع عن كل منها عشرات المضاعفات والتفاصيل . وهذه الأعراض تبدو جلية واضحة في الفترة الواقعة بين حدوث الوفاة ، وبين إعلانها ، وإجراءات الدفن التي مر الحديث عنها .

أما تفاصيل هذه الأعراض فهي كما يلي :

١ ـ شيوع « الشح المطاع » : والشح في اللغة معناه : أشد البخل . . وقيل : البخل يكون في المال ، أما الشح فيكون بالمال والمعروف[١] . . وقيل : إنه الإفراط في الحرص على الشيء[٢] . ولقد عرفه الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما بأنه : أن ترى ما أنفقته تلفاً[٣] . أي خسارة .

ولقد ورد ذكر الشح في القرآن الكريم في خمسة مواضع ، تتكامل جميعها لتدل على أمور ثلاثة : **الأول** ؛ أن من يُبتلى بالشح ، يتصف بعدم الإنفاق في سبيل الله ، والبخل بعمل الخير والسلوك الحسن ، والتردد في مساعدة الناس ، والنكوص عن الجهاد ، والجبن أمام الأعداء ، وسلاطة اللسان على الأصدقاء ، والغياب عن التضحية والبذل ، والحضور عند الطمع والغنيمة :

﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ، وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا . أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ، فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ، فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ، أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا . يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ، وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ ، يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ ، وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الأحزاب : ١٨ ـ ٢٠) .

والأمر الثاني ؛ أن من برىء من الشح ، يتصف بالسخاء ، والبذل ، وإيثار المصلحة العامة ، ومساعدة الناس على الاستقرار ، ومحبة القادمين الغرباء كمحبة المقيمين الأقرباء ، وتيسير أمورهم :

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا ، وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ، وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (الحشر : ٩) .

---

(١) محمد خليل الخطيب ، اتحاف الأنام بخطب رسول الإسلام ، ص ١١٥ .
(٢) الطبري ، التفسير ، حـ ٥ ، ص ٣٢٠ (تفسير آية ١٢٨ من سورة النساء) .
(٣) محمد خليل الخطيب، اتحاد الأنام بخطب رسول الإسلام ، ص ١٨٩ .

- ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا ، وَأَنفِقُوا خَيْراً لِأَنفُسِكُمْ ، وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (التغابن : ١٦) .

والأمر الثالث ؛ أن الشح ورد في آية أخرى ليشير إلى المرأة العجوز ، التي تضن بجزء من حقها لضرتها الشابة ، وهذا إشارة إلى أن الشح يشمل التشبث بمنافع ، لم تعد الحاجة شديد إليها ، وعدم التفضل بها لمن هو أكثر حاجة :

﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً ، وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ، وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ ، وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ (النساء : ١٢٨) .

فالشح في حقيقته نقيض لعنصر الولاية في الأمة . أي أن محوره اختفاء الشعور بالصالح العام ، وإبطال لفاعلية شبكة العلاقات الاجتماعية التي توفرها عناصر الأمة ، أي عناصر : الإيمان ، والهجرة ، والرسالة والجهاد ، والإيواء ، والنصرة ، التي مرت تفاصيلها في فصول سابقة . وبذلك تكون الأمة التي تصاب بالشح كالجسد الميت الذي تتوقف فيه الدورة الدموية ، فلا تعود أجهزته تتزود بالغذاء اللازم لاستمرار عافيتها ، وأداء وظائفها ، مما يمهد لتفسخها وانبعاث نتنها . ومن تحليل الآيات والأحاديث التي عالجت - الشح - يتضح أن الشح يتمثل فيما يلي :

أ - الشح بيسر الحياة ، وشحنها بالضنك والعسر ، كتضييق الحكومات على الحريات ، وإثقال كاهل الرعية بالضرائب والغرامات ، واستغلال رجال الاقتصاد للأزمات وأوقات الشدة وظروف الحرب والقحط ، وندرة السلع لممارسة الاحتكار ، ورفع الأسعار والإيجار ، بغية الحصول على الأرباح الوفيرة ، دون اكتراث بما يسببه ذلك من عنت وإرهاق للآخرين .

ب - الشح بإنجاز الواجبات ، وبذل الجهد ، وشيوع العجز ، والشح بالمعاملة الحسنة ، وشيوع الفظاظة والغلظة في ميادين الحياة ومؤسساتها المختلفة .

جـ - الشح بالتكافل وانقطاع التواصل والتراحم ، وعدم البذل والتبرع ، وانتشار الفردية والأنانية مع الإسراف في الإنفاق على ملذات النفس وشهواتها .

د - الشح بالمظهر الاجتماعي للعبادة ، وشيوع الشكلية في التدين ، والاقتصار على تدين « الأشكال » دون « الأعمال » ، والتركيز على حركات العبادات دون إقامة معانيها في الحياة ، والتوقف عن الزكاة والجهاد ، ومنع كل « ماعون » يعين المسلم على إقامة روح الدين وفضائله . وهو مايشير إليه قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ . الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ (الماعون : ٤ - ٧) أي يراءون بالصلاة ، بينما هم يمنعون كل « ماعون » يعين الناس على يسر الحياة ، وعدم الاشتغال بها

اشتغالاً يلهيهم عن دينهم ، أو يدفعهم دفعاً لمخالفته ، ومخالفة تعاليمه .

هـ ـ الشح بالعدل ، وشيوع « التطفيف » في المعاملات . والتطفيف مشتق من قوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ، الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ (المطففين : ١ ـ ٣) والتطفيف في العمل أو الوظيفة ، أن يرهق أصحاب العمل العمال والموظفين بالواجبات ، ويثقلون عليهم في المسؤوليات ، في الوقت الذي يدفعون لهم أجوراً أو رواتب أقل من غيرهم ، ويغتنمون كل فرصة « ليخسروهم » ، أي يخصمون من أجورهم أو رواتبهم . . أما التطفيف في التجارة فهو المبالغة في الاستيفاء عند الشراء ، وإنقاص الوزن أو المكيال عند البيع . وهكذا في جميع أنواع المعاملات ، وعلاقات العمل ، والخدمة والوظيفة .

و ـ الشح بالنفس والأبناء والقدرات ، والجبن أمام الأخطار الخارجية ، أو الأعداء الخارجين ، وإيثار السلامة بالمال والنفس ، مع القسوة على الأخوة أو الرعايا في الداخل ، وهذا ما أشار إليه الحسن بن علي بن أبي طالب حين عرّف ـ الجبن ـ بأنه : الجرأة على الصديق ، والنكول عن العدو[1] .

ولقد لخص الرسول صلى الله عليه وسلم مظاهر الشح التي تقدمت عند قوله :

« إياكم والشح ، فإنما هلك من قبلكم بالشح : أمرهم بالقطيعة فقطعوا ، وأمرهم بالبخل فبخلوا ، وأمرهم بالفجور ففجروا »[2] .

٢ ـ اتباع الهوى : المحور الذي يدور حول ـ الهوى ـ هو مجانبة العدل في السلوك ، والتفكير ، والشعور . ثم الانطلاق في ذلك كله من الحمية العصبية ، والشهوات النفسية . ويذكر الرازي في تفسيره ، أن الله وضع الهوى في مقابل العدل عند قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَن تَعْدِلُوا ﴾ (النساء : ١٣٥) . ثم يعلق على ذلك فيقول :

« المعنى اتركوا متابعة الهوى ، حتى تصيروا موصوفين بالعدل . . وتحقيق الكلام ، أن العدل عبارة عن ترك الهوى ، ومن ترك أحد النقيضين فقد حصل له الآخر . فتقدير الآية : فلا تتبعوا الهوى لأجل أن تعدلوا »[3] .

ومن تحليل الآيات والأحاديث التي عالجت ـ الهوى الصفة الثانية للأمة الميتة ـ يتضح أنه يتمثل فيما يلي :

---

(١) محمد خليل الخطيب ، اتحاف الأنام ، ص ١٨٩ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١١٥ نقلا عن الحاكم ، ومثله ابو داود ، والمنذري في الترغيب والترهيب : حـ ٣ ، ص ١٥٨ .

(٣) الرازي ، التفسير ، حـ ١١ ، ص ٧٤ (تفسيرة آية ١٣٥ ـ سورة النساء) .

http://www.al-maktabeh.com

أ ـ الظلم : فالذين يمارسون الظلم ، إنما يقترفونه بسبب الهوى ، تلبية لحمية عصبية ، أو شهوة نفسية ، كما أن المظلومين الذين يخنعون أمام الظالم ، ويرضون بظلمه ، إنما يفعلون ذلك بسبب الهوى ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « إذا رأيت أمتي لا يقولون للظالم منهم أنت الظالم فقد تُودع منها »[1] .

فالأمة الميتة ، تسكت أمام سياسات الظلم ، وتطبيقاته في الاجتماع والاقتصاد والسياسة والثقافة والفنون والتربية ، وتتسابق لتملق الظالم ، طلبا لما عنده من شهوات ، أو لما تربطهم به من عصبيات ، فالتاجر في الأمة الميتة يخشى على تجارته ، والموظف يخشى على وظيفته ، والعامل يخشى على عمله ، وصاحب الشهوة يخشى فقدان شهوته ، وهكذا .

ولا يعني هذا أن الأمة الميتة تخلو من العناصر الصالحة ، وإنما معناه أنها تفتقر إلى العناصر (الصالحة ـ المصلحة) التي تقف أمام الظلم ، وتحول دون انتشاره واستشراء مضاعفاته . والتمييز بين الفريقين واضح تمام الوضوح في القرآن الكريم والحديث الشريف . فالقرآن يؤكد على أن العناصر (الصالحة ـ المصلحة) هي الضمان الواقي للأمة من الهلاك ومن العقوبات الإلهية . من ذلك قوله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ (هود : ١١٧) .

أما العناصر الصالحة غير المصلحة فهذه لا تنجو من الدمار الذي ينزل بالأمم المعذبة :

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ (الأعراف : ١٦٨) .

وينبه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أن مساعدة الظالم على ظلمه ، تخرج من الإسلام : « ألا إنه سيكون بعدي أمراء يظلمون ويكذبون ، فمن صدقهم بكذبهم ، ومالأهم على ظلمهم ، فليس مني ، ولا أنا منه ، ومن لم يصدقهم بكذبهم ، ومن لم يمالئهم على ظلمهم فهو مني وأنا منه »[2] .

والسكوت على الظلم ينتهي بالأمة إلى الكوارث والعقوبات الإلهية :

ـ « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب »[3] .

ـ « لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يدي الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطراً ، ولتقصرنه على الحق قصراً ، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم يلعنكم »[4] .

ب ـ انطفاء العلم وشيوع الجهل : ولا يعني ذلك شيوع الأمية وإغلاق معاهد العلم ؛

---

(١) مسند أحمد ، (تصنيف الساعاتي) ، حـ ١٩ ، ص ١٧٥ .
(٢) محمد خليل الخطيب ، اتحاف الأنام ، ص ٢٣ نقلا عن مسند أحمد (رواية النعمان بن بشير) .
(٣) سنن ابي داود ، حـ ٤ ، كتاب الفتن والملاحم ، ص ١٢٢ ، رقم ٤٣٣٨ .
(٤) سنن ابي داود ، نفس الجزء والصفحة ، رقم ٤٣٣٦ ـ ٤٣٣٧ .

وإنما المقصود تعطل فاعلية العلم الناتج عن التربية والتعليم ، اللذين يوجهها الهوى بحيث يصبح وجود العلم شبيها بالجهل ، لأن أصحاب الأهواء يستثمرون العلم والمعرفة استثماراً يجعل فقدهما أنفع من ضررهما ، وهم يتخذون من العلم حلية اجتماعية ، يتطاولون بها على الناس ، ويظلمونهم ، بدل مساعدتهم وإنصافهم . وإلى هذا يشير قوله تعالى :

﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعتَ أَهوَآءَهُم مِّن بَعدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلعِلمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (البقرة : ١٤٥) .

جـ ـ **انطفاء فاعلية الحقيقة** : وشيوع الهوى معناه : الاحتكام إلى النزعات والحمية والشهوات ، مما يبطل فاعلية الحقيقة ، رغم وقوف الناس عليها . وإلى ذلك يشير قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهوَآءَهُم عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلحَقِّ ﴾ (المائدة : ٤٨) .

د ـ **انطفاء الخير والصلاح وشيوع الشر والفساد** : في الأمة الميتة التي يشيع فيها الهوى ، يتحول الناس إلى أكوام بشرية تتصارع من أجل الشهوات والعصبيات ، والحصول على المنافع والمكاسب ، فتذهب الأخلاق ، وينعدم النظام ، ويفشو الفساد في السلوك والمعاملات ، وتنعدم روح المسؤولية ، وتدب الفوضى ، ويشيع الغش والخيانة والرشوة ، وألوان الخداع والكذب . . وما إلى ذلك . وإلى كل هذه المضاعفات يشير قوله تعالى :

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلحَقُّ أَهوَآءَهُم لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلأَرضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ (المؤمنون : ٧١) .

هـ ـ **شيوع الصنمية واختفاء التوحيد** : ويكون من نتائج ذلك شيوع الرق النفسي والفكري ، واختفاء حريات التفكير والتعبير والعمل والاختيار ، وتلغى شخصية الإنسان ، فيصبح متقلبا حسب المواقف التي تقررها الرغبة أو الرهبة ، والخوف ، أو الطمع ، أو الحرص . وإلى هذا يشير قوله تعالى :

﴿ أَرَءَيتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيهِ وَكِيلًا . أَم تَحسَبُ أَنَّ أَكثَرَهُم يَسمَعُونَ أَو يَعقِلُونَ ، إِن هُم إِلَّا كَٱلأَنعَٰمِ بَل هُم أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (الفرقان : ٤٣ ـ ٤٤) .

و ـ **شيوع الفرقة وتحطم الوحدة** : وإلى ذلك يشير قوله صلى الله عليه وسلم : « ألا إن من كان قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة ، وأن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة ، اثنتان وسبعون في النار ، وواحدة في الجنة وهي الجماعة ، وسيخرج من أمتي أقوام تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه ، لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله »[1] .

---

(١) محمد خليل الخطيب ، اتحاف الأيام ، ص ١٢١ ـ ١٢٢ . نقلا عن سنن ابى داود وسنن ابن ماجه ، حـ ٢ ، ص ٢٤٩ .

ز ـ في الأمة الميتة التي يتبع فيها الهوى ، تشيع الدناءة والصغار ، وينعدم الطموح والترفع ، وإلى ذلك يشير قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ، وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾(الأعراف : ١٧٦).

حـ ـ في الأمة الميتة التي يتبع فيها الهوى ، يشيع الخطأ في الأحكام ، والقرارات ، والسياسات ، والمواقف ، وإلى هذا يشير قوله تعالى :

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ (القصص : ٥٠) .

ط ـ في الأمة الميتة التي يتبع فيها الهوى ، يشيع الحمق ، والقصور العقلي ، وقلة الحكمة ، وعدم الاستفادة من الخبرات الاجتماعية والكونية التي يقرأها الناس ، أو يمرون بها ، أو تراها أعينهم ، أو تسمعها آذانهم ، وإلى ذلك يشير قوله تعالى :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ (محمد : ١٦) .

٣ ـ إيثار الدنيا :

وهذه هي الصفة الرئيسة الثالثة للأمة الميتة . ومحورها الوقوف عند العناية بنعيم الدنيا وشهواتها ، دون اهتمام بأمور النشأة والمصير . فهي إذن توقف عن مسيرة الإنسان نحو الخلود والرقي . ويتكرر الحديث عن ـ إيثار الدنيا ـ في مئات المواضع في القرآن والحديث . ومن تحليل الآيات والأحاديث التي عالجت ـ إيثار الدنيا ـ يتضح أنه يتمثل فيما يلي :

أ ـ شيوع صنمية المال : وهذه الصنمية هي محور ايثار الدنيا ؛ إذ لما كان المال هو الوسيلة الموصلة إلى نعيم الدنيا وشهواتها ، فإن الأمة الميتة تنصب من المال صنماً تتقرب لمالكيه بالعبادة : أي بالطاعة الكاملة بسبب الرغبة الكاملة به ، والرهبة الكاملة من فقدانه . وإلى هذه الصنمية يشير قوله صلى الله عليه وسلم : « إن لكل أمة فتنة ، وفتنة أمتي المال »[1] .

وقوله أيضا :

« تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد القطيفة ، تعس عبد الخميصة ، تعكس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش ، إن أُعطي منها رضي ، وإن منع سخط »[2] .

فهو عبد الدينار والدرهم لأن « ولاءه » يدور في فلكها ، إن أعطي منها رضي . وإن مُنع عنه العطاء سخط . والقطيفة هي التي يجلس عليها ، أو هي رمز للأثاث ، فهو عبد الأثاث ، لأنه دائم التفكير به ، مشغول بالبحث عنه ، سواء أكان تاجراً أو مستهلكاً . . والخميصة هي اللباس الذي يرتديه الإنسان ، فهو عبد اللباس ، لأنه دائم التفكير به ،

---

(١) الطبراني ، المعجم الكبير ، حـ ١٩ ، ص ١٧٩ ، رقم ٤٠٤ .

(٢) البخاري ، الصحيح ، كتاب الجهاد ، وكتاب الرقاق .

والتفتيش عن أزيائه وأشكاله ، والنظر في منشورات الدعاية له ، والربط بين الدينار والدرهم من ناحية والأثاث واللباس من ناحية أخرى لأنها كلها مرتبطة بعضها ببعض ، لا يتوصل عابدها إلى شيء منها إلا بالحصول على الأخرى . وليحصل عابدها عليها ، لابد أن يطيع مالكها ومعطيها والمتسبب بالحصول عليها طاعة كاملة ، ويرهبهم رهبة كاملة ، ويرغب بهم رغبة كاملة ؛ فهي أصنام متعددة ، وأرباب متنوعة ، لكنها مترابطة يوصل بعضها إلى بعض .

ولذلك قال بعض السلف : إلبس من الثياب ما يخدمك ، ولا تلبس منها ما أنت تخدمه ، واقتن البساط الذي تجلس عليه ، لا الذي يجلس عليك .[1] .

والتربية المعاصرة ، والثقافة المعاصرة ـ تربية وثقافة الإنتاج والاستهلاك ـ تفرز إنساناً تجلس « الأشياء » فوق عقله وقلبه وجسده ، وتنام وتصحو معه ، دون أن تدع لـ « الأفكار » وشبكة العلاقات الاجتماعية متسعاً ، ويظل ينوء تحت الأشياء كلها أناء الليل والنهار حتى تصبح دينه ودنياه .

ب ـ **فساد القيادة وانتهاك القيم والحرمات** : ذلك أن الأمة الميتة التي تؤثر الدنيا على الآخرة ، تدفع إلى مراكز القيادة فيها العناصر المترفة ـ أي أهل النعمة والبطر والاستكبار[2] لأنها تتوهم فيهم القدرة والخبرة للحصول على الدنيا التي تؤثرها . ولكن المترفين ـ بحكم إصابتهم بنفس الداء ـ يتحولون إلى قيادات ظالمة مستغلة ، تتركز سياساتها حول الاستئثار بمزيد من الدنيا ، وأسباب البطر والاستكبار ؛ فيختفي العدل ، ويفشو الظلم ، وتنتهك الحرمات ، ويتحلل من المسؤوليات ، ويختفي الأمن والاستقرار . وإلى هذه الحالة يشير قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴾ (الإسراء : ١٦) .

والفسق المشار إليه في الآية نوعان : فسق القيادات ، أي انحرافها عن المنهاج القويم في الحكم والإدارة ، واستعبادها للناس وكبت الحريات . . وفسق الشعوب ؛ وهو سكوتها على انحراف القيادة المترفة ، وتملقها وتبرير ممارساتها . ولذلك أدان الله فرعون وقومه سواء ، لأنهم سمحوا له أن يستخف بهم فأطاعوه ، ونفذوا سياساته ، وشكلوا جنده وحراسه :

﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾ (الزخرف : ٥٤) .

جـ ـ **الانغماس في الشهوات وانتشار روح المنافسة والصراع** : في الأمة الميتة التي تتصف بإيثار الدنيا ، ينحسر عنصر الجهاد والنصرة ، في الصراع من أجل حطام الدنيا ،

---

(١) ابن تيمية ، الفتاوي ، كتاب السلوك ، حـ ١٠ ، ص ٥٩٧ .

(٢) الطبري ، التفسير ، حـ ١٨ ، ص ٣٦ .

http://al-maktabeh.com

والانغماس في شهواتها . وإلى هذا يشير قوله صلى الله عليه وسلم : « فوالله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكني أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم ، كما بسطت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، فتهلككم كما أهلكتهم »[1] .

وفي حديث آخر يقول ؛

« سيأتي بعدكم قوم يأكلون أطايب الدنيا وألوانها ، ويركبون فره الخيل وألوانها ، ويلبسون أجمل الثياب وألوانها . . لهم بطون من القليل لا تشبع ، وأنفس بالكثير لا تقنع ، عاكفين على الدنيا ، يغدون ويروحون إليها ، اتخذوها آلهه من دون إلههم ، وربًا دون ربهم ، إلى أمرها ينتهون ، ولها يتبعون ، فعزيمة من محمد بن عبد الله ، لمن أدرك ذلك الزمان من عقب عقبكم ، وخلف خلفكم ، أن لا يُسلّم عليهم ، ولا يعود مرضاهم ، ولا يتبع جنائزهم ، ولا يوقر كبيرهم ، فمن فعل ذلك فقد أعان على هدم الإسلام »[2] .

ومن الطبيعي أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يحرم الطيبات التي أحل الله لعباده ، ولكنه يشير إلى ظاهرة من مظاهر الأمة الميتة حين تنحسر فيها عناصر الإيمان ، والهجرة ، والجهاد والرسالة ، والإيواء ، والنصرة ، والولاية ، لتدور في فلك « أشياء » الدنيا وطيباتها .

د ـ **سطحية التدين** : وتتخذ هذه السطحية مظهرين : سطحية العامة ، حيث يتحول الدين إلى طقوس ، وأعياد ومناسبات ، وأن يصبح رمضان شهر المطاعم ، والملاهي ، والتسويق ، والشراء ، والفوازير ؛ ويصبح الحج موسما للتجارة ، والنزهة ، والايجار ، والاستئجار . وإلى ذلك يشير قوله تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَهُم لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ (الأعراف : ٥١) .

وسطحية العلماء والمتدينين ، حيث يجري التركيز على « الطقوس والأشكال » بدل « الروح والأعمال » . وهذه السطحية قديمة ، صاحبت الإسلام منذ نشأته ، فحذر الرسول صلى الله عليه وسلم من مستقبلها ، ونبه إلى روادها . من ذلك ما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه ، حين قال : بعث علي بن أبي طالب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليمن بذهبة في أديم مقروظ لم تحصل من ترابها ، قال ، فقسمها بين أربعة نفر : بين عيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس ، وزيد الخيل ، والرابع إما علقمة بن علاثة وإما عامر بن الطفيل . فقال رجل من أصحابه : كنا نحن أحق بهذا من هؤلاء ، قال فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء ، يأتيني خبر السماء صباحاً ومساءً ؟ قال فقام رجل غائر العينين ، مشرف الوجنتين ، ناشر الجبهة ، كث

---

(١) ابن ماجه ، السنن ، كتاب الفتن ، ص ١٣٢٥ رقم ٣٩٩٧ .
(٢) محمد خليل الخطيب ، اتحاد الأنام ، ص ٢٣٦ .

اللحية ، محلوق الرأس ، مشمر الإزار ، فقال : يارسول الله ! اتق الله ! فقال : ويلك أولست أحق أهل الأرض أن يتقي الله ؟ قال ثم ولى الرجل . فقال خالد بن الوليد : يارسول الله ألا أضرب عنقه ؟ فقال : لا لعله أن يكون يصلي ، فقال خالد : وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ، ولا أشق بطونهم . قال ثم نظر إليه وهو مقف فقال : إنه يخرج من ظئظئي هذا قوم يتلون كتاب الله رطباً لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية . قال أظنه قال : لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود .[1] .

هذا هو رائد التدين السطحي ، وسنة « الأشكال » : رجل « كث اللحية » ، « محلوق الرأس » ، « مشمر الإزار » . وهو ظئظئي - أي أصل - فئات يتبعون سنته ، ويتلون كتاب الله رطبا - أي سهلا لكثرة حفظهم - ولكنهم إذا لاحت لهم شهوة من شهوات الدنيا تجردوا من الذوق ، والأخلاق ، وقفزوا عليها ومرقوا من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، ثم انحدر التاريخ الإسلامي ، وشاهد نماذج من هؤلاء أولوهم بأنهم - الخوارج - . . والحقيقة أن الظاهرة لا تقتصر على فرقة معينة في زمن معين ، وإنما هي ظاهرة متكررة كلما مرضت الأمة وانتهت إلى الوفاة ، حيث يبرز من يشعل المعارك حول الأشكال والمظاهر ، ومن يفتعل الورع حول الخروج والدخول ، ومن إذا صلى إلى جانبك أشغلك عن صلاتك ، وإن منهم من يتلون القرآن رطباً ، ويقيمون لحفظه المسابقات ، ثم هم بعد ذلك يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية في شؤون المال والمعاملات الجارية .

هـ - سطحية العلم والتربية : في الأمة الميتة ، تنحسر ميادين المعرفة من ميادين النشأة والمصير ، وسنن الحياة والكون ، لتقتصر على البحث في ميدان « الأشياء » الدنيوية ، وإعداد الناس للحصول عليها ، وإنتاجها ، ثم استهلاكها ، ودوران جميع النشاطات والمناهج التربوية والعلمية في فلك هذه الدائرة . وإلى هذه الظاهرة يشير قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ (الروم : ٧) .

والثمرة العامة للنشاطات التربوية والعلمية ، هي بروز « ثقافة الاستهلاك » التي تلوّن أنماط الفهم والتفكير ، وتحيل كل فقه ، حتى فقه القرآن نفسه ، إلى أداة لإنتاج « الأشياء » وتسويقها ، والإعلان عنها والتبشير بها وتبريرـ بل تمجيد - القائمين على إنتاجها وتسويقها .

أما « الأفكار » فيكون النوع السائد منها هو أفكار « اللغو » ، أي أدنى مستويات المعرفة التي يسميها القرآن الكريم - لهو الحديث - مثل الأشعار الغزلية ، والأدب الوجداني ، والقصص الجنسي ، وبرامج التسلية والترفيه ، وما إلى ذلك .

---

(١) صحيح مسلم (شرح النووي) حـ ٧ ، كتاب الزكاة ، ص ١٦٢ - ١٦٣ .

وتتصاعد مضاعفات ـ إيثار الدنيا ـ وتفرز نتائج سلبية في الفكر والسلوك والثقافة ، حتى تبلغ قمتها في بروز ظاهرة الكفر والاستخفاف بالإيمان . . والكفر في جوهره فراغ نفسي وفكري ، سببه انحسار الاهتمامات بالدنيا وحدها . وغالبا ما يتخذ هذا الكفر مظهرين اثنين : المظهر الأول : كفر ضحايا قيم الحرمان ، أي الذين أحبوا الدنيا وسيطرت على اهتماماتهم دون سواها ، ولكنهم فشلوا في دوامة الصراع الجاري حول جمع المال والتنعم بالأشياء ، فيدفعهم الفقر والفشل والحرمان إلى الكفر ، خاصة إذا لم ينهض علماء الدين ، إلى تبني قضاياهم ، والتصدي للظلم الذي ينزل بهم ، والدعوة إلى إنصافهم ، والعناية بهم .

والمظهر الثاني : كفر ضحايا قيم الترف ، أي الذين أبطرهم الانتصار في حلبة الصراع على الدنيا ، وأفرحهم احتكار النعيم والثروة والقوة ، فيدفعهم ذلك إلى أن هذا النصر مرده علمهم ومهاراتهم في الكسب والإنتاج ، ويسخرون من الدين ، ويتجرأون على الفساد ، والتحلل من المسؤولية الأخروية ، وإلى هذا يشير قوله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ (البقرة : ٢١٢) .

٤ ـ إعجاب كل ذي رأي برأيه :

ومحور هذه الصفة الأخيرة من صفات الأمة ، الميتة هو تعطل روح الجماعة ، والعمل الجماعي ، وتوقف تبادل الخبرات والمشورة . وينتج عن ذلك بروز ظواهر التعصب للرأي ، والعجب والكبر والتعالم ، وإملاء الرأي وفرضه على الآخرين في جميع دوائر الحياة الاجتماعية ، ابتداء من القواعد الدنيا في الأسرة ، والمتجر ، والمصنع ، ودائرة الوظيفة ، حتى أعلى دوائر المجتمع في رئاسة الحكومة ، وقيادة الدولة ، حيث زعامات الحكم المطلق ، والقيادات الدكتاتورية المتنافرة المتناحرة . ويكون من نتائج ذلك بروز مجتمعات الكراهية ، وفقدان الثقة ،.وشيوع الحسد ، وانعدام التعاون والوحدة ، وتفرق الكلمة ، والتستر على الأخطاء والنواقص والعيوب ، ورفض النقد الذاتي ، وتبرير الهزائم والنكسات والأزمات ، وفشل اللجان والمؤتمرات ، وعقم التخطيط واللقاءات والاجتماعات ، وانعدام التعاون بين الهيئات والجماعات وغير ذلك .

والمحصلة النهائية لذلك كله ، هي تحطم روح الجماعة ، والعمل الجماعي ، وإغلاق قنوات الاتصال والتفاهم ، فلا تحل المشكلات إلا بالخصومة ، والفتن ، والتآمر ، والقتل .

وإلى هذا المصير يشير قوله تعالى :

﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ (الأنعام : ٦٥) .

ولقد فسر ابن عباس قوله تعالى : ﴿ من فوقكم ﴾ : من أمرائكم . . و﴿ من تحت

أرجلكم ﴾ : من سفلتكم . . و﴿ يلبسكم شيعا ﴾ : الأهواء والاختلاق . . و﴿ يذيق بعضكم بأس بعض ﴾ : يقتل بعضكم بعضاً .[1] .

والواقع أن معاني الآيات المشار إليها لا تقتصر على ما استقاه ابن عباس من خبرات زمانه ، بل هي تتدفق طبقا لما يحدثه الخلق الجديد (التطور) في الأزمنة والأمكنة والتكنولوجيا . فقد يكون من مظاهر ﴿ من فوقكم ﴾ : الطائرات ، والقذائف الصاروخية المدمرة ، وقد يكون من مظاهر ﴿ من تحت أرجلكم ﴾ : الألغام والمتفجرات الناسفة ، وقد يكون من مظاهر ﴿ أو يلبسكم شيعا ﴾ : الأحزاب والمنظمات المتحاربة من أجل غايات مختلطة يحوطها اللبس والغموض والدسائس الخفية . فمظاهر العذاب تتطور بتطور أدواته ، أما القوانين والسنن ، فهي خالدة مترابطة ، وأقدار - أي قوانين - متتالية يفضي بعضها إلى بعض ، حين تفسق الأمم عن الصراط المستقيم ، دون أن توقفها أهواء ، أو تحد من هولها وعواصفها عصبيات ونزعات .

ثم أن هذه الأعراض الأربعة الرئيسة للأمة الميتة : أعراض الشح المطاع ، والهوى المتبع ، والدنيا المؤثرة ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، تتبادل التأثير السلبي وتتضافر في إفراز مضاعفاتها الأخلاقية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والسياسية ، والعسكرية في واقع الأمة الميتة ، ولقد فصل الرسول صلى الله عليه وسلم في ذكر هذه المضاعفات في أحاديث كثيرة منها :

« يامعشر المهاجرين ! خمس إذا ابتليتم بهن ، وأعوذ بالله أن تدركوهن ؛ لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها ، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا . ولم ينقصوا المكيال والميزان ، إلا أخذوا بالسنين ، وشدة المؤونة ، وجور السلطان عليهم . ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا ، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله ، إلا سلط عليهم عدواً من غيرهم ، فأخذوا بعض ما في أيديهم ، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ، ويتخيروا مما أنزل الله ، إلا جعل بأسهم بينهم »[2] .

وفي حديث آخر :

« إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حلَّ بها البلاء ، فقيل وماهن يارسول الله ؟ قال ؛ إذا كان المغنم دولاً ، والأمانة مغنماً ، والزكاة مغرماً ، وتُعلم لغير الدين ، وأطاع الرجل زوجته ، وعق أمه . وبرّ صديقه ، وجفا أباه ، وارتفعت الأصوات في المساجد ، وكان زعيم القوم أرذلهم ، وأكرم الرجل مخافة شره ، وشربت الخمور ، ولُبس الحرير ، واتخذت

---

(١) الطبري ، التفسير ، حـ ٧ ، ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

(٢) ابن ماجه ، السنن ، حـ ٢ ، ص ١٣٣٢ - ١٣٣٣ ، رقم ٤٠١٩ .

القينات والمعازف ، ولعن آخر هذه الأمة أولها ، فليرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء ، أو خسفاً ، أو مسخاً »[1] .

ثانيا ـ إعلان الوفاة وإجراءات الدفن :

وخلال الصراعات الدائرة ، وتفاعل الفتن ، والمضاعفات السلبية في الداخل ، تعمد الفئات المهزومة ، أو تلك التي فيها بقية صلاح إلى الهجرت المعاكسة ، والهروب من أرض الهرج والقتل والفتن ، إلى حيث الأمن والاستقرار وسيادة القانون .

أما الخردة البشرية ، فتستمر في أتون الصراعات الدموية ، ومستنقع الانحرافات الاجتماعية إلى أن تتمزق الأمة وتتناثر مزقها ، تمزقاً سياسياً ، وتفسخاً أخلاقياً ، وهزائم ، ونكبات ، ومجاعات ، تصبح حديث المحافل الدولية ، ووسائل الإعلام العالمية . وإلى هذا الوضع المأساوي يشير قوله تعالى :

﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ (سبأ : ١٩) .

وبلوغ الأمة هذه الحالة ، يجعلها كالجيفة التي تنفجر أحشاؤها وينتشر نتنها ، فتجذب روائحها الكريهة برابرة الشعوب ، والغزاة الطامعين من خارج ، ليقوموا بإعلان الوفاة وإجراءات الدفن .

وغالبا ما يتمثل إعلان الوفاة بالانهيار العسكري السريع أمام الغزاة . والواقع أن ما يبدو انتصارًا ساحقًا وهزيمة مروعة ، هو في حقيقته إعلان لوفاة أمة ، لفظت أنفاسها من قبل ، ولكنها ظلت زمناً تتكىء على أجهزتها المخابراتية والأمنية ، وتوهم المرعوبين من جماهيرها أنها حية قائمة كما ظلت جثة سليمان المتكىء على منسأته زمناً ترعب العاملين تحت إمرته من الإنس والجن حتى أكلت دابة الأرض تلك المنسأة ـ أي العصاة ـ فلما خرت الجثة ، قالوا : لو كنا نعلم الغيب ما لبثنا زمناً في العذاب المهين .

وأما عن إجراءات الدفن ، فتتمثل بحل جيش النظام الظالم ، وبوليسه ، ومخابراته ، وإداراته ، وانهيار الثقافة التي مكنت للظلم والفساد ، وتوزيع الميراث الممثل باقتسام الغنائم ومناطق النفوذ . وإلى هذه النهاية يشير قوله صلى الله عليه وسلم : « يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها . فقال قائل : أومن قلة نحن يومئذ يارسول الله ؟ قال : بل أنتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل . ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن . فقال قائل : يارسول الله ، وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت »[2] .

---

(١) الترمذي ، السنن ، كتاب الفتن ، حـ ٤ ، ص ٤٩٤ ، رقم ٢٢١٠ .

(٢) ابو داود ، السنن ، كتاب الملاحم .
مسند أحمد ، حـ ٥ ، ص ٢٧٨ .

والقرآن يدرج تداعي الأمم الغازية ، وما يرافق زحفها من إعلان لوفاة الأمة الميتة ، تحت اسم « الصيحة » التي تنتهي بالأمة الميتة إلى ـ نفس النهاية ـ نهاية الغثاء :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (المؤمنون : ٤١) .

و « الحق » الذي جرت الصيحة طبقا له ، هو إشارة إلى السنن والأقدار ، التي تحدد مسارات الأمم ومصائرها . و « الغثاء » في اللغة معناه : القذى ، والوسخ ، والقش . وفي الحديث هنا ، يشير إلى نفايات البشرية من بقايا الأمة الميتة ، التي تنسحب من تيار الحياة البشرية لتتكلس على ضفافه . و « نزع المهابة » من صدور الأعداء ، و « قذف الوهن » في قلوب المستضعفين الأذلاء ، نتائج عمل سنن الله وقوانينه في الاجتماع البشري ، تعبر عنها الآية المشار إليها بصيغة « فبعداً للقوم الظالمين » أي إبعاداً لأنظمة الظلم ، وإداراته ، ومؤسساته ، وقادته ، ورعاياه ، وجيوشه وبوليسه ، وأجهزة مخابراته ، وجميع ممارساته ، فالأمة التي تجبن أن تقول للظالم ياظالم ، ولا تصلح آثار الظلم ، يبعث الله عليها « الصيحة » ، أو هدير الغزاة وآلاتهم الحربية ، ليقوموا بما وهنت الأمة عن القيام به . إنها عمليات جراحية إلهية تستهدف فك « الأغلال » السياسية ، و « الأصار » الاجتماعية والثقافية التي مكنت للظلم ، وسمحت للظالمين بإحكام قبضتهم إحكاماً لافكاك منه .

http://www.al-maktabeh.com

الفصل الثالث عشر

مصير الأمة المتوفاة

لاتتوقف السنن والأقدار عند « إعلان وفاة الأمة ودفنها » ، وإنما تستمر في عملها خطوات أخرى ، يصفها القرآن الكريم بـ« التقطيع في الأرض » ، و« الابتلاء بالحسنات والسيئات » ، و« الرجوع » ، و« الاستبدال » . وإلى هذه الخطوات يشير قوله تعالى :

- ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ، وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (الأعراف : ١٦٨) .
- ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴾ (المؤمنون : ٤٢) .
- ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴾ (محمد : ٣٨) .

أما تفاصيل هذه الخطوات وتتابعها فهي كما يلي :

١ ـ التقطيع والتجزئة : و« التقطيع » المشار إليه هنا ، هو تفكيك عناصر الأمة المتوفاة ، وانهيار مؤسساتها ، وبعثرتها إلى أقليات متناثرة هنا وهناك . . وحقيقة هذا التقطيع أنه معالجة لـ « الصالحين » ومن هم « دون ذلك » ممن نزحوا هاربين خلال إعلان الوفاة والدفن . ذلك أن إنسان مابعد دفن الأمة الميتة هو إنسان مثقل بـ« الأغلال » السياسية ، و « الأصار » الثقافية والاجتماعية ، التي تراكمت خلال فترات الجمود والآبائية ، وأدت إلى وقوعه في أسر صنمية « الأشخاص والأشياء » ، فصار يعاني من مرضين : الأول : عدم وضوح الرؤية الفكرية ، ولذا يعجز عن النظر الصائب في (آيات الكتاب) أي مصادر الرسالة ، ويعجز عن النظر في (آيات الآفاق والأنفس) أي أحداث الاجتماع البشري والكون ، وإنما يراها ملونة بتراث مراحل الجمود والآبائية ، تماماً كما ترى العين الفضاء الواسع والأشياء المتناثرة فيه ملونة بلون النظارة التي تعلو العين . والمرض الثاني : موت الإرادة العازمة ، والعجز عن التحرك إلا نحو الحاجات الدنيا ، المتمثلة في الغذاء والكساء والجنس ، دون التطلع إلى الحاجات العليا المتمثلة في التقدير وتحقيق الذات . ولذلك فهو إنسان غير صالح للرسالة بحالته القائمة ، إلا إذا أعيد تشكيل شخصيته ، وقام بنقد ذاتي جسور (أو توبة نصوح) من آثار التقليد والآبائية والعجز ، وهذا مايوفره التحرر من أسر مجتمع الولاء لـ « الأشياء » ، والعيش في بيئة « التقطيع » .

٢ ـ الابتلاء بالحسنات والسيئات : وهذه خطوة مكملة لسابقتها ، إذ هي تمرير لإنسان مابعد الأمة المتوفاة في سلسلة من الخبرات الإيجابية والسلبية التي تدربه على نصرة الحق ، والتزام الخير والجمال ، ومحاربة الباطل والشر والقبح . فالابتلاء هنا هو إعادة امتحان بزينة الحياة الدنيا ومصائبها ، ليتدرب على التحرر من قيودها ، وعلى حمل الرسالة من جديد ، وهو فرصة لإعادة النظر في الموروثات الثقافية والاجتماعية ، لبلورة نموذج مثل أعلى جديد ، ونظام تربوي جديد ، وتنظيم صفوف « شظايا » الأمة ، وتنمية قدراتها على تسخير إمكاناتها البشرية والمادية ، لإعادة بعث الأمة الكبيرة الموحدة من جديد .

والنجاح في هاتين الخطوتين ـ التقطيع والابتلاء ـ يؤهل الإنسان المبتلىٰ للقيام بعملية « الرجوع » إلى إخراج الأمة المسلمة من جديد ، وهو مايشير إليه جزء الآية القائل : « لعلهم يرجعون » .

٣ ـ فقه الرجوع إلى إخراج الأمة المسلمة من جديد : والمشكلة هنا : في فقه « الرجوع » ، وطبيعته ، ومظاهره ، وطرقه ، ووسائله ، وأدواته ، واستراتيجياته ، فهو أيضاً تحكمه السنن والقوانين ، ويحتاج إلى فقهاء وعلماء مختصين ، ويحتاج إلى مؤسسات فكرية وتربوية ، ودوائر بحوث ودراسات ، ويحتاج إلى ابتكار علوم جديدة ذات أصول إسلامية ، تعي مايجري في قرية الكرة الأرضية ، وتسترشد بالتوجيهات النبوية ، من أمثال ما أورده المناوي في كتابه ـ فيض القدير ـ عن قوله صلى الله عليه وسلم :

« رحم الله من حفظ لسانه ، وعرف زمانه ، واستقامت طريقته »[1] : فمعرفة الزمان ، وتفتيق العلوم اللازمة لمعرفة الزمان وحاجاته وتحدياته ، شرط لصوابية طرق التخطيط والتنفيذ في استراتيجية « الرجوع » إلى إخراج الأمة المسلمة من جديد .

ومع أن مؤسسات التربية والفكر والدعوة ، تحتاج أن تفرز علوماً جديدة ، لفهم السنن والقوانين ، التي توجه إخراج الأمة ، والمحافظة على عافيتها ، وكيفية تحويل هذه العلوم إلى تطبيقات عملية في ميادين التربية والإدارة ، وفي أخلاق العاملين فيها ، ومؤهلاتهم ، وعلاقاتهم ، إلا أنه يمكن القول : إن الوقوف على السنن والقوانين التي توجه « فقه الرجوع إلى الإسلام » ، يستدعي مراعاة الأمور التالية :

أولا : انسحاب الطليعة الواعية المثقفة التي تحس بمأساة (الأمة الميتة) من صفوف المجتمع الميت ، والتوقف عن الاشتغال بالقضايا العامة ، بغية التفرغ للقيام بـ « توبة » شاملة تبدأ في نفوس المنسحبين ويكون من ثمارها الانتقال من حالة (الحس) إلى حالة (الوعي) بأسباب الوفاة ، وبالاستراتيجية اللازمة لإخراج أمة مسلمة جديدة . ويحدد الرسول صلى الله عليه وسلم زمن هذا الانسحاب وغايته ، فيقول :

---

(١) المناوي ، فيض القدير شرح الجامع الصغير ، حـ ٤ (القاهرة : دار الفكر ، ١٣٩١/١٩٧٢) ص ٢٩ ، رقم ٤٤٤٠ .

- « إذا رأيت شحا مطاعًا ، وهوى متبعًا ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، فعليك بخاصة نفسك ، ودعك من أمر العامة »[1] .

والشح المطاع ، والهوى المتبع ، وإيثار الدنيا ، والإعجاب بالرأي الشخصي - كما مر - كلها إشارات إلى صفات الأمة الميتة . فالشح المطاع ، دلالة على جفاف « المثل الأعلى » ، والهوى المتبع ، دلالة موت « القدرات العقلية » التي تميز بين « المثل الأعلى » و « المثل السوء » ، وإيثار الدنيا ، دلالة العجز عن حمل « الرسالة » ومتطلباتها في « الإيواء والنصرة » ، والإعجاب بالرأي الشخصي ، دلالة الانغلاق وجفاف « الخبرات الاجتماعية والكونية » وعدم الاستفادة منها في تسخير سنن الكون لتطوير « وسائل » تحقيق « المثل الأعلى » . والتوقف عن الاشتغال بـ « أمر العامة » عند ظهور المضاعفات المذكورة ، ضرورة لها أهميتها الكبرى . فهو (أولاً) يوفر للمنسحب القيام بـ « توبة » شاملة تمحو آثار المضاعفات السلبية ، التي ضربت « خاصة نفس » المنسحب ، طالما نشأ وترعرع في بيئات الأمة الميتة ، وتسلم منها موروثاتها الثقافية والاجتماعية ، وأنماط التفكير فيها . وثمة أهمية (ثانية) : إن الانسحاب عامل أساسي في تحقيق عنصري الإخلاص والإصابة لدى العاملين في ميادين التربية والدعوة والإصلاح ، فالعمل في هذه الميادين قبل الانسحاب والعودة ، يتحول - في الغالب - إلى استثمارات عقائدية وسياسية هدفها مصلحة الأفراد العاملين في ميادين الإصلاح للوصول إلى الجاه والمال والنفوذ لأنفسهم أو أسرهم وعشائرهم .

ويراعى خلال فترة الانسحاب أن يركز المنسحب على تشخيص نفسه لتحري الأمور التالية :

أ) « محور الولاء » عنده ، إن كان يدور في فلك الأفكار ، أم الأشخاص ، أم الأشياء ، ثم العمل على تزكية هذا الولاء ، وجعله يدور في فلك « أفكار » الرسالة ، لأن حقيقة الدوران في فلك « الأفكار » توحيد ، وفي فلك « الأشخاص » شرك ، وفي فلك « الأشياء » وثنية .

ب) تزكية « المثل الأعلى » لديه ، وذلك بمراجعة عناصر : الإيمان ، والهجرة ، والجهاد ، والإيواء ، والنصرة عنده ، لتستقر على دائرة « الولاء لأفكار الرسالة » ، وتستمد محتوياتها منها .

ج) تزكية « الخبرات الاجتماعية والكونية » ، وذلك بمراجعة ماتسلمه منها من بيئته المحيطة ، أو انحدر إليه من تراث الآباء ، مراجعة تستهدف تصويب الخاطىء ،

---

(١) الترمذي ؛ السنن ، حـ ٨ ، كتاب التفسير ، تفسير سورة المائدة (تحقيق عزت عبيد الدباس) ص ٢٢٢ رقم ٣٠٦٠ .
ومثله : سنن ابى داود ، حـ ٤ ، كتاب الملاحم .
و : سنن ابن ماجه : كتاب الفتن ، حـ ٢ ، ص ١٣٣١ ، رقم ٤٠١٤ .

واستبعاد الميت الذي مضى زمنه ، والتعرف على الجديد الذي قامت الحاجة إليه ، واسترجاع النافع الذي لفه النسيان .

د) تزكية « القدرات العقلية » ، وتحريرها من صنمية « الأشخاص » ، و « الأشياء » ، وإعدادها للنمو والعمل في فلك « أفكار » الرسالة ، دون خوف من « شخص » أو طمع « بشيء » .

هـ) تزكية « الإرادات » ، وذلك بتحريرها من التوجه إلى « مثل السوء » ، لتكون « نبيلة » ، وتنميتها إلى أقصى مراتبها ، لتصير « عازمة » .

و) تزكية « القدرة التسخيرية » ، لتكون قادرة على شهود قوانين الله في الآفاق والأنفس ، وتحويلها إلى تطبيقات فاعلة ، ووسائل تسهم في تحقيق غايات الحياة ومقاصدها العليا .

ولتكون هذه التزكية ـ أو المراجعة ـ فاعلة مؤثرة ، لابد من البحث الراسخ المحيط في مصدرين اثنين : الأول : في آيات الوحي في الكتاب والسنة ، بغية فقه عناصر الأمة الستة ، أي عناصر : الإيمان ، والهجرة ، والرسالة ، والجهاد ، والإيواء ، والنصرة ، والولاية ، فقهًا جديدًا يلبي حاجات المرحلة زمانًا ومكانًا . والمصدر الثاني : في آيات الآفاق والأنفس بغية تشخيص « المثل السوء » الذي أدى إلى انحراف مؤسسات التربية والفكر والدعوة في الماضي ، وأسهم في مرض الأمة ووفاتها ، ثم بلورة « المثل الأعلى » الجديد ، و « الوسائل » اللازمة لتجسيده ، وإخراج الأمة من جديد .

ومن البحث في هذين المصدرين ، يبدأ المنسحبون في بناء فلسفة جديدة للتربية والاجتماع البشري ، وإبراز أهداف جديدة ، ومناهج جديدة ، ومربين جددًا ، ومؤسسات جديدة تسهم كلها في إخراج إنسان جديد ، وبناء شبكة علاقات اجتماعية جديدة ، تعلن ميلاد أمة مسلمة جديدة .

ثانيًا : عودة المنسحبين إلى ـ المجتمع ـ بغية العمل على « توبة » الآخرين ، وتحقيق أمرين اثنين : الأول : استبدال « المثل السوء » الذي أدى إلى مرض الأمة ووفاتها ، واستبدال « الخبرات الاجتماعية والكونية » الخاطئة ، وتحرير « القدرات العقلية » المكبلة بأغلال الصنمية السائدة ، وآصار الأبائية المستحكمة . والأمر الثاني : إخراج الأمة المسلمة الجديدة حسب النموذج الذي « فقهه » المنسحبون ـ العائدون خلال فترة الانسحاب .

ويراعى في إخراج الأمة الجديدة ، التدرج في هذا الإخراج حسب التفاصيل التي مرت عند تعريف الأمة في الفصل الأول من هذا البحث . وهذا يعني أن تعمد الجماعات والمجموعات الإسلامية المتناثرة هنا وهناك ، في حارات الكرة الأرضية ، إلى تكوين « أمم صغرى » في مهاجرها الموقوتة ، تتكون كل أمة من عناصر : الأفراد المؤمنين ، والهجرة ، والرسالة والجهاد ، والإيواء ، والنصرة ، والولاية ، حسب المفاهيم والمضامين التي مرت في هذا البحث ، على أن تكون مقدمة لتجميع هذه « الأمم الصغرى » في « أمة إسلامية كبرى » يكون مهجرها النهائي الدائم هو الأرض التي رسم حدودها إبراهيم عليه السلام ،

http://www.al-maktabeh.com

والرسل من ذريته منذ موسى عليه السلام حتى محمد صلى الله عليه وسلم ، وأقاموا مؤسساتها التي صار محورها المسجد الحرام ، والحرم النبوي ، والمسجد الأقصى .

ثالثا : توجيه « الأمة المسلمة الكبرى » لحمل ـ الرسالة الإسلامية ـ ونشر نموذج « المثل الأعلى » الإسلامي بين الأمم الأخرى ، بعد أن تعيش الأمة المثل المذكور واقعًا قائمًا ، وتجعل منه « جنسية » حيّة ، و « ثقافة » فاعلة متحركة ، يستطيع بنو البشر تذوقها وتعشقها حالما تقع أبصارهم على أفراد الأمة « المجاهدين » في سبيل نشرها .

وهذا المنهج ـ في الانسحاب والعودة ـ هو ماوجه إليه الله سبحانه رسوله الكريم ، حين انسحب من مجتمع مكة قبيل الرسالة ، ليتفكر ويتحنث في ـ غار حراء ـ إلى أن عاد إلى الإنسانية بتصور جديد لوجودها ، ومراجعة شاملة لموروثاتها الدينية ، والاجتماعية والكونية .

ولقد اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم في الانسحاب والعودة ، مصلحون كثيرون ، من أبرزهم حركة الإصلاح التي بدأها أبو حامد الغزالي ، وطبق منهجه عمليًا طليعة كبيرة كان لهم الدور الأكبر في إخراج جيل صلاح الدين ، وعودة القدس[1] . ولكن أولئك المنسحبين ركزوا في « توبتهم » على « المثل الأعلى » دون « الخبرات الاجتماعية والكونية » ، ولذلك اقتصرت نجاحاتهم على تحقيق عنصر « الإخلاص » دون « الإصابة » ، أو نقول نجحوا في تنمية « الأمانة » دون « التمكين » . ولذلك نجح ـ جيل صلاح الدين الذي أخرجوه ـ في ميدان الجهاد العسكري وتحرير المقدسات ، ولكنه لم ينجح في تطوير النظم والمؤسسات التي تضمن استمرارية الحضارة الإسلامية وفاعليتها ، فخلفهم خلف عادوا للموروثات الخاطئة في الإدارة والحكم ، والذي وحدّه جيل صلاح الدين ، عاد ـ جيل أبنائه ـ وقسموه ميراثًا بين أولئك الأبناء . وكذلك أصاب الخلل حركات الإصلاح نفسها ، التي ضربها الانشقاق المذهبي ، والآبائية ، وانتهت إلى موروثات الدروشة والطرق الصوفية .

هذه خطوط عريضة أولية في « فقه الرجوع إلى الإسلام » ، وإذا لم تراع هذه الخطوط ، فسوف يكون « رجوعًا » سطحيًا ، متشنجًا ، أو خنوعًا ينتهي إلى العصبية المذهبية ، والحزبية ، أو الدروشة الطرقية ، وسوف يقتصر « الرجوع » على مايُظن أنه « أشكال

---

(١) للتعرف على كيفية إخراج جيل صلاح الدين راجع كتاب ـ هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس ـ للمؤلف .

صالحة » بدل « الأعمال الصالحة » ، أو ما يظُن أنه « سنة الرسول » بينما هو « سنة الحُمس »[1] .

٤ ـ استبدال الأمة المتوفاة : ولكن ، قد تخطىء الجماعات « المقطعة » في الأرض استراتيجية « الرجوع إلى الإسلام » ، وإخراج الأمة المسلمة من جديد ، ثم يكون من نتائج هذا الخطأ أن لاتحسن فقه « الابتلاء بالحسنات والسيئات » ، و « الخبرات » الإيجابية والسلبية التي تمر بها في بيئات « التقطيع » ، وبالتالي لاتحسن إخراج الأمة المسلمة من جديد ، حتى تصل إلى حالة « الفناء » . والفناء نهاية مأساوية يشير إليها قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِم قُرُونًا ءَاخَرِينَ . مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ (المؤمنون : ٤١ ـ ٤٣) .

فـ « الغثاء » ، بقايا ونفايات بشرية خاوية ، تعيش على هامش مجرى الاجتماع الإنساني ، كدويلات وأقليات متناثرة ، وثقافات هامشية تراثية ـ آثارية . وليس فيها قابلية البعث من جديد ، والإسهام في حمل الرسالة ، فلا هي مستعدة للتضحية ، ولا قادرة على التحرر من رق الشهوات الفردية ، والولاءات العصبية ، وأبرز صفاتها هو ـ الوهن ـ أي حب الدنيا وكراهية الموت والتضحية ، حسب تعريف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهي تخاف من تكاليف الحرية ، وتجبن عن مجابهة الظلم ، في الداخل ، وصد الغزاة من الخارج ؛ بل إن هذا الجبن يصبح عند « الغثائيين » مرادفاً للحكمة والتعقل . ولذلك ترحل ـ الرسالة ـ لتزكية خامات بشرية جديدة مازالت تحتفظ بفطرتها المعافاة من « الوهن » . وحين تكمل تزكية هذه العناصر الجديدة ، تبدأ دورة أخرى في بناء أمة جديدة ، تتسلم إمامة الإرشاد في الأرض ، وتبدأ دورة الإصلاح من جديد بقوة ونشاط ،

---

(١) الحُمس : اسم أطلقته قريش على نفسها وعلى أحلافها في الجاهلية . ومعناه : أهل الحرم . وكان يحرم على الزوار الذين يفدون للحج والعمرة أن يأكلوا من طعامهم إلى جاءوا به إلا طعام الحمس ، ولا يطوفوا بالكعبة إلا في ثياب يشترونها من الحمس ، فإن لم يستطيعوا شراء ثياب الحمس أو استئجارها عليهم أن يطوفوا عراة ، وفي هذه الحالة يستر النساء عوراتهن بقطعة قماش خفيفة ثم يطفن وهن يردددن :

اليوم يبدو بعضه أو كله ومابدا منه فلا أحله

الطبرى ، التفسير ، جـ٨ ، ص ١٦٠ ـ (٦) .

و ـــــ ، ـــــ ، جـ٢ ، ص٢٩٢ ـ ٢٩٣ ، وـــ سيرة ابن هشام .

واليوم يخرج على المسلمين ـ حمس جدد ـ ليقولوا إن السنة هي أن يلبس المسلمون أثوابهم ، ويقتدوا بأشكالهم ويمارسوا عاداتهم .

يتطابقان مع مستوى « المثل الأعلى » الذي تطرحه المؤسسات التربوية ، التي أسهمت في تربية الأمة الجديدة . وإخراج هذه الأمة الجديدة لتحل محل الأمة الميتة هو مايشير إليه قوله تعالى :

﴿ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبكُم عَذَابًا أَلِيمًا وَيَستَبدِل قَومًا غَيرَكُم ﴾ (التوبة : ٣٩) .

ولعله من المناسب أن نقول : إن هذه السنن والقوانين في التعذيب والاستبدال هي التي وجهت تعاقب الأمم الإسلامية من العرب المسلمين ، والفرس المسلمين ، والسلاجقة ، والزنكيين ، والأيوبيين ، والمماليك ، ثم الأتراك العثمانيين . فقد رحلت الرسالة الإسلامية من الأمة السابقة إلى اللاحقة ، واستمرت في كل أمة من هذه الأمم ، مادامت تقوم بتكاليف الرسالة ، حتى إذا اثاقلت إلى الأرض ، استبدلها الله بالتي تليها .

الفصل الرابع عشر

توصيات

ويخلص البحث إلى التوصيات التالية :

التوصية الأولى : إيجاد مؤسسات تشمل المدارس والمعاهد والجامعات ومؤسسات البحث العلمي ، لتقوم بأسلمة التربية والعلوم من خلال النشاطات التالية :

١ ـ القيام بمراجعة ، أو « توبة » تربوية جريئة ، مستقلة من التأثيرات الأبائية والأجنبية ، هدفها تمحيص التراث المتحدر من الآباء ، أو تلك الوافدة من عند الغرباء ، بغية التعرف على ما كان أصيلاً يتفق مع مفهوم الأمة المسلمة في القرآن والسنة في الحالة الأولى ، وما كان متنافراً مع القرآن والسنة في الحالة الثانية ، وما كان ـ في الحالتين ـ يحمل في طياته عوامل الخطأ ، والضعف ، والجمود .

والقيام بهذه المراجعة ـ أو التوبة ـ يضع الأمة على الصراط المستقيم ، الذي يتوافق مع سنن الحياة وقوانينها ، ويتفق مع قوانين التغيير القرآنية ، التي تقرر أن الله لا يغير مابقوم من أزمات سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية ، إلا إذا غيروا ما بأنفسهم من محتويات فكرية ، وثقافية ، وقيم ، وعادات ، وتقاليد ، تتعلق بميادين الأزمات المذكورة .

٢ ـ ممارسة الاجتهاد الذي يؤدي إلى ظهور علوم سياسية وإدارية واقتصادية واجتماعية ، تبلور مفهوم الأمة المسلمة ، ومحتويات عناصرها في الإيمان ، والهجرة ، والجهاد ، والرسالة ، والإيواء ، والنصرة ، والولاية ، حسب ماتوجه إليه أصولها في القرآن والسنة ، وتتطلبه حاجات الأزمنة والأمكنة ، والتحديات في الداخل والخارج .

٣ ـ تحويل ثمار الاجتهاد المقترح ، إلى خطط ومناهج وطرق تربوية ، يستطيع (إنسان التربية الإسلامية) من خلالها أن يعيش مضامين العناصر المكونة للأمة المسلمة فكراً وعملا ، ويكون من ثمارها النهائية تنمية الولاء للأمة المسلمة وحدها ، والعمل على إخراجها من جديد ، والقضاء على الولاءات العصبية ، التي تتعارض مع هذا الولاء وتضعفه .

٤ ـ تقويم الاجتهادات النظرية ، والتطبيقات العملية الخاصة بمفهوم الأمة المسلمة ، تقويماً مستمراً في ضوء الحاجات المتجددة ، والتغيرات الحاصلة في الزمان والمكان .

والتوصية الثانية : تطوير المؤسسات اللازمة للقيام بمسؤولية تنفيذ المشروعات المقترحة في التوصية الأولى ، وتزويد هذه المؤسسات بأعلى المؤهلات ، وأدق الأجهزة والأدوات ، ومتابعة جهودها بالتقويم المستمر . ويراعى تنوع هذه المؤسسات إلى أقسام تتطابق مع مسؤوليات الأمة المسلمة ، كأن تكون كما يلي :

أ ـ مؤسسات تمارس الاجتهاد والنظر في آيات الوحي ، بغية بلورة نموذج « المثل الأعلى » الذي تتطلبه حاجات الزمان والمكان .

ب ـ مؤسسات تنظر في « الخبرات الاجتماعية والكونية » في العالم كله ، بما في ذلك دراسة الثقافات العالمية المختلفة ، وأنماط التفكير السائدة فيه ، لبلورة « وسائل » تحقيق المثل الأعلى .

ج ـ مؤسسات وظيفتها رسم الاستراتيجيات اللازمة للتفاعل مع المجتمعات العالمية في ضوء معطيات « المثل الأعلى » ، الذي تفرزه المؤسسات رقم (أ) ، ونتائج شهود « الخبرات الاجتماعية والكونية » التي تفرزها المؤسسات رقم (ب) .

والواقع أن ـ الأزمة الرئيسة في العمل الإسلامي ، وفي الحضارة الإسلامية ـ خلال التاريخ الإسلامي كله ، هي عدم تقدير دور ـ المؤسسات ـ وعدم إعطائها ماتستحقه من عناية ـ خاصة في ميدان السياسة والاقتصاد ـ وترك المشروعات والإدارات للجهود والمبادرات الفردية ، وتوقع قيام الفرد القائد بدور النبي المرسل ، المؤيد بوحي السماء ، ونصرته ، سواء على مستوى الدول أو الجماعات . لذلك كانت ـ ومازالت ـ حركات اليقظة ، ومشروعات الإصلاح ، حركات فردية موقوتة ، تعتمد على كفاءات الفرد القائد ، أو الفرد المصلح ، وعلى قدراته الشخصية خلال حياته . . وغياب الفرد عن مسرح الحياة ، يشكل نكسة حاسمة في اليقظات والمشروعات ، قد ترد الأمة إلى نقطة الصفر ، أو تحولها للسير في الإتجاه المعاكس . وهذا القول ينطبق على جميع حركات الإصلاح ، التي قادها مصلحون دينيون ، أو سياسيون في الماضي والحاضر .

والتوصية الثالثة : ضرورة تكامل « التعليم ومؤسساته مع التنظيم ومؤسساته » ، أو نقول : تكامل عمل المدارس والجامعات ، مع الأحزاب والمؤسسات والجماعات . فلقد دأبت الحركات الإسلامية العاملة للإصلاح والوحدة ـ منذ مطلع هذا القرن ـ على اعتماد الوعظ الجماهيري ، بدل التعليم المنظم ، تاركة « التعليم والتربية » للمدارس والمعاهد والجامعات التقليدية ، التي انحدرت من عصور الجمود والانحطاط ، أو تلك التي أنشأتها

البعثات التبشيرية ، أو تلك التي أنشأتها الحكومات الرسمية بتوجيه خبراء التعليم الأجانب . ولقد كان لهذه الظاهرة آثارها السلبية القاتلة ، إذ أن المؤسسات التربوية المشار إليها كانت ـ ومازالت ـ ترفد المجتمعات الإسلامية ، والحركات ، والأحزاب ، بخليط متنافر التفكير والثقافات ، كل يحمل معه بصمات المدرسة أو المعهد أو الجامعة التي تخرج منها . ولذلك ضمت الحركات الإسلامية أفراداً يؤمنون بمثل عليا مختلفة متنافرة ، بينما يقفون تحت شعارات وعموميات ضبابية غامضة ، دون أن يكون لديهم استراتيجيات صائبة للتعليم أو التنظيم .

ولعله من الموضوعية والرجوع إلى الحق أن أنبه ـ هنا ـ إلى ماورد في كتابي ـ **هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس** ـ في الصفحات ٢٨٨ ـ ٢٩٥ ، حول اعتبار الأحزاب والجماعات استراتيجية ضارة خاسرة . والواقع أنني بعد تحليل الظاهرة بعمق وشمول أكثر ، أقرر أن الأسباب العشرة التي دللت بها على ضرر الجماعات والأحزاب هي ـ في الحقيقة ـ أسباب لعدم التكامل بين المؤسسات التعليمية والفكرية ، التي تمثلها المدارس والجامعات ، والمؤسسات التنظيمية التي تمثلها الأحزاب والجماعات . ذلك أن ترك التعليم في أيد مؤسسات أجنبية ، ومحلية بنت فلسفاتها وأهدافها ، ونظمت مناهجها وتطبيقاتها ، حول قيم العصبيات القبلية ، والطائفية ، والأقليمية ، والأبائية ، أفرز أحزابًا وجماعات متأثرة بهذه القيم ، مما أشاع التنافر في علاقاتها ، وجعلها في ولاءاتها ، قبائل من لا قبيلة له ، أو طوائف من لا طائفة له .

والتوصية الرابعة : تنظيم علاقات « الأفراد المؤمنين » الذين تخرجهم مؤسسات التعليم ، وينتمون إلى مؤسسات التنظيم في شبكة علاقات اجتماعية ، يكون العامود الفقري فيها هو عناصر الأمة الستة ؛ أي عناصر : الإيمان ، والهجرة ، والجهاد والرسالة ، والإيواء ، والنصرة ، والولاية ، حسب التفصيلات التي مرت في هذا البحث .

ويراعى أن يتم بناء هذه الشبكة على مستويين اثنين : **المستوى المحلي** : الذي ينظم علاقات « الأمة الصغرى » ، أي أفراد الجماعة أو الحزب أو الأقلية الإسلامية . . ثم **المستوى العالمي** : الذي ينسق نشاطات الأشكال المحلية من الجماعات والأحزاب والأقليات ، في تنظيم عالمي فعال ، غايته النهائية « إخراج الأمة المسلمة الكبرى » في أرض ما حول الأقصى ، والمسجد الحرام ، التي أرادها الله قاعدة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله ، والتي خطط حدودها إبراهيم عليه السلام ، واكتملت وظيفتها في انطلاقة محمد صلى الله عليه وسلم ، وخلفائه ، كما مر في فصل سابق .

فإذا اكتمل إخراج هذه « الأمة الكبرى » ، أصبح فرضا على « الأمم المسلمة »

http://www.al-maktabeh.com

الصغرى الموقوتة ، من الأحزاب والجماعات والأقليات ، أن تهاجر هجرتها المادية إلى أرض « الأمة المسلمة الكبرى » ، لتتلاحم وتتحد متظافرة متوالية لاستئناف حمل رسالة الإسلام إلى العالم كله .

والتوصية الخامسة : بلورة مفهوم « رسالة إسلامية » عالمية ، يحل محل « الشيوعية » التي انهار معسكرها ، وأعاد الإنسان « المستضعف » إلى حالة اليتم واليأس والقنوط ، وفسح المجال أمام الإنسان « المترف » للعربدة في الأرض ، وتكرار قولة فرعون : أنا ربكم الأعلى ! أنا القوة العظمى «Super Power» التي لاتقهر !

ولتملأ الحركة الإسلامية الجديدة الفراغ الشيوعي ، على المستوى العالمي ، لابد أن تدرس نقاط القوة ونقاط الضعف في الحركة الشيوعية دراسة إسلامية علميه يتوفر فيها عنصرا الإحاطة والرسوخ ، ويكون هدفها الاستفادة من جوانب القوة ، وتجنب جوانب الضعف .

إن جانب القوة الذي جعل من ـ الشيوعية ـ قوة عظمى حوالي ـ نصف قرن ـ هو التمحور حول المظهر الاجتماعي للإصلاح ـ أولا ـ فهذا المظهر هو الجانب المقابل لـ « المظهر الاجتماعي للعبادة في الإسلام »[1] الذي أهمله المسلمون ، واكتفوا منذ قرون بالحديث عن الجانب الديني . . ثم التوسع ـ ثانيا ـ في تطبيق المظهر الاجتماعي ، ليشمل العالم كله ، دون التزام بجنس من الاجناس ، أو قومية من القوميات . فهذا المظهر هو المقابل لـ ـ الأخوة الإنسانية ـ الذي نسيته الحركة الإسلامية الحديثة ، وانحرفت لتدافع عن « قابلية الاستعمار » في العرب والباكستانيين والإيرانيين والمسلمين الأفارقة ، التي تغازل « الاستعمار » وتغريه ، وتوقظ غرائزه ، وتثير شهيته كلما أتعبته مغامرات الغزو والتسلط .

ولكن يجب الانتباه إلى ـ جوانب الضعف ـ في الشيوعية ، التي تمثل فروقا حاسمة بين الإسلام والشيوعية . وتتمثل هذه الجوانب في أمور ، منها :

الجانب الأول : هو النظر إلى « موقع الإنسان في سلم الوجود » . . فالمفهوم الماركسي لهذا الموقع ، هيأ لمقتل كبير من مقاتل الشيوعية نفسها ، حينما جعلت الإنسان في الموقع الأول في الوجود ، وأنكرت ـ الخالق ـ كرد فعل لوقوف الكنيسة إلى جانب معسكر « المترفين » ، وليس كنتيجة من نتائج البحث العلمي والنظر الموضوعي في الوجود .

وفي دراستنا لهذا الجانب ، لايجوز المسارعة إلى القول : بأن إنهيار المعسكر الشيوعي يعني فشل الشيوعية وانتصار الرأسمالية ، كما يشاع الآن ، بل لابد من فحص المكونات الرئيسة للشيوعية وهي : الماركسية ـ واللينينية ـ والستالينية ، وتحديد مقدار المسؤولية التي تقع على

---

(١) للوقوف على تفاصيل ـ المظهر الاجتماعي للعبادة ـ راجع كتاب ـ فلسفة التربية الإسلامية ـ للمؤلف .

عاتق كل عنصر من هذه العناصر الثلاثة ؛ ذلك أن الماركسية ـ من الناحية الاقتصادية ـ دعت إلى الإشتراكية ، ومن الناحية السياسية دعت إلى حكم العمال .

أما اللينينية ، فقد شابهت الماركسية في تبني الإشتراكية ، واختلفت عنها في الدعوة إلى حكم الحزب الشيوعي .

وأما الستالينية ، فقد شابهت الماركسية واللينينية في تبني الإشتراكية ، واختلفت عن الاثنتين في الدعوة ـ أو تبني ـ حكم الفرد الزعيم .

وهناك فرق شاسع في التطبيق الإشتراكي الذي يشرف عليه العمال ، أو ذاك الذي يشرف عليه الحزب ، أو ذاك الذي يشرف عليه الفرد الزعيم . فالحالة الأولى ، لم تطبق في تاريخ الشيوعية . . والحالة الثانية ، اسندت القيادة إلى أقلية تنتسب للعمال ، ولا تشاركهم عملهم ، ولا طبقتهم . . والحالة الثالثة ، اسندت القيادة إلى فرد واحد تربع على رأس الهرم البشري كله ليقول كذلك : أنا ربكم الأعلى !!

والفرضية المطروحة هنا هي : أن انهيار المعسكر الشيوعي أمام المعسكر الرأسمالي تتحدد في التطبيقات السياسية والإدارية أكثر من المفاهيم الاقتصادية .

ونقطة الضعف الثانية ، هي : مفهوم الشيوعية عن « طبيعة الإنسان » الذي نقلته عن « الداروينية الاجتماعية » ، والتي نقلها ـ دارون بطريقة غير مباشرة ـ عن الخطيئة الأصلية في المسيحية . فهذه الفكرة أصلت الشر في طبيعة الإنسان ، وبررت نظرية الصراع الطبقي ، التي طرحتها الماركسية ، ووضعت الإنسان في المركز الأول ، وليس ـ المركز الوسط ـ حينما تنكرت لوجود الخالق وتبنت الإلحاد ، فكان من ثمرة ذلك أن جعلت الإنسان « العامل » عرضة لقابلية مرض ـ الطغيان ـ . فعندما تراءى للحزب الشيوعي ـ اللينيني أنه استغنى ، طغى وانقلب إلى أقلية أرستقراطية أبشع من أرستقراطية المعسكر الرأسمالي . وحين تراءى للفرد الستاليني أنه استغنى ، انقلب إلى رأسمالي مركز ، فتأله ، وقال : أنا ربكم الأعلى ! وتنكر ـ من الناحية العملية ـ لقيم الماركسية ومبادئها مبرهنًا قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ، أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ « العلق : ٦ ـ ٧ » .

إذن ! المطلوب من الحركة الإسلامية الجديدة ، المرشحة لملء الفراغ العالمي الذي خلفه إنهيار الشيوعية ، أن تراعي الاختلافات الحاسمة ، التي تميز الإسلام عن الشيوعية ، والإيجابيات الفعالة التي مكنت للشيوعية مقدار نصف قريبًا تقريبًا . . أما عن الاختلافات الحاسمة فأبرزها :

ـ النظر إلى « هوية الإنسان وطبيعته » . ولقد استعرضنا مفهوم ـ الهوية ـ في فصل ـ الأفراد المؤمنين ـ . أما عن طبيعة الإنسان ، فلابد من الانطلاق من المبدأ الإسلامي الذي يقرر أن « الإنسان خيّر في الأصل » ، والشر طارىء عليه ، وليس العكس كما قررت الشيوعية والرأسمالية .

وأهمية هذا التصور ، أن الحركة الإسلامية الجديدة سوف لاتقف إلى جانب طرف ضد الطرف الآخر ، كما فعلت الماركسية ، ولن يكون هدفها قهر طرف من أجل هيمنة الطرف الآخر ، وإنما سوف تعمل على إنقاذ الطرفين من مضاعفات مرض الانقطاع عن الله والإسراف في حب الدنيا . فهذا المرض هو الذي أصاب « المترفين » بسرطان « الطغيان » حين أبطرتهم القوة والثروة ، وتحولوا إلى مترفين متسلطين ، فتخطوا حدود ـ الوسطية ـ التي تحقق العافية والتوازن في الاجتماع البشري ، وألحقوا الضرر بغيرهم حين سلبوهم حقوقهم في العيش الكريم والحرية ، وألحقوا الضرر بأنفسهم حين سلبوها الأمن ، ومحبة الله والناس من حولهم . كذلك أصاب المرض المذكور « المستضعفين » بسرطان « الهوان » حين أيأسهم فقدان القوة والثروة ، وتحولوا إلى كافرين بالخير والدين ، والأخلاق والإنسان .

وتبني الحركة الإسلامية الجديدة هذا التصور ، يجعل هدف ـ إخراج الأمة المسلمة ـ ان تكون « المرشد الأعظم Supreme Guide وليس القوة العظمى Super Power » . وهذا هو المنصب الذي ترمز إليه قصة ذي القرنين في سورة الكهف من القرآن الكريم ، فإذا توجهت ـ الأمة المسلمة ـ شرقًا ، ووجدت شعوبًا معرضة لهجمات همجية يأجوجية ومأجوجية ، لاتستغل ضعف هذه الشعوب ، ولاتجعل منها سوقًا دولية للسلاح . وإذا توجهت غربًا ، ووجدت شعوبًا جاهلة متخلفة ، لاتستغل تخلفها وجهلها لابتزاز ثرواتها ومصادر عيشها ، وإنما تدافع عن المعتدى عليه ، وتأخذ بيد الضال ، قائلة لكلا الطرفين إذا عرضوا عليها أجراً : « مامكني فيه ربي خير » !

وهذا النموذج للأمة المسلمة المنشودة ، هو الذي يحدد ـ صورة المثل الأعلى الجديد ـ الذي يجب أن تطرحه الحركة الإسلامية للعالم كله ، ليكون علاجاً حاسماً لمرض « الطغيان » و « الاستضعاف » ، ووقاية للبشرية من « النظام العالمي الجديد » ، الذي يعمل ـ المترفون ـ المنتصرون على إخراجه ، بعد سقوط المعسكر الشيوعي ، للانفراد بمصادر العيش ، وحرق أيتام « المستضعفين » في أتون الحروب الإقليمية المفتعلة ، بعد أن تخلى قادة المعسكر الشيوعي عنهم ، وأعلنوا الانضمام إلى نادي « المترفين » العالميين !!

وانتشار عقلية ـ الطغيان ـ التي تنسىٰ الله الخالق ، وتغفل عن سننه في التاريخ والاجتماع البشري ـ وتضع « الإنسان المترف » في المقام الأول في الوجود ، عقلية خطيرة مدمرة ، تحمل في تلافيفها مقتل صاحبها ؛ فقوة الله القيوم قائمة في التاريخ ، فاعلة مهيمنة في الاجتماع البشري ، وسوف نرىٰ عملها فلا تستعجلوه !! وعلى الحركة الإسلامية الجديدة أن تقنع العالم بالبينة ، وسلطان البرهان ، والعلم ، أن سنن الله لايعلو عليها « الإنسان المترف » الذي يطغى ، أن رآه استغنى ، فإن إلى ربنا الرجعى !!

والتوصية السادسة : أن الحركة الإسلامية الجديدة ، تحتاج أن تضع في قمة أساليبها : بناء « مؤسسات القراءة » ، والانطلاق من ـ القراءة ـ في كل عمل أو نشاط . .

والمقصود بالقراءة ، قراءة كل مايتعلق بالأمم التي تسكن قرية الكرة الأرضية ، ونشاطاتها ، وثقافاتها ، وأنماط تفكيرها . ولابد من توفير وسائل القراءة التي تبتكرها تكنولوجيا العصر ، وتيسر الإحاطة بكل لغات العصر ، وفلسفات العصر ، وشؤون العصر . ولابد من توفير « القراء » المتخصصين المتفرغين ، الذين يتوزعون ويتكاملون حسب موضوعات القراءة وميادينها ووسائلها ، لأن « القراءة » المطلوبة يجب أن « تحيط » بكل مايجري في قرية الكرة الأرضية ، و« ترسخ » في التفاصيل الدقيقة قبل أن تقدم على أي تخطيط أو تنفيذ . وهذا هو اللائق بالأمة التي تنهض للعمل باسم دين بدأ الوحي فيه بكلمة « اقرأ » ، ولم يبدأ بـ « جاهد » ، أو « صل » ، أو « حج » ، أو « زكِّ » أو -- أو -- لأن كل جهاد ، وصلاة ، وحج ، وزكاة ، أو عمل لاتسبقه قراءة راسخة محيطة بأهداف العمل وميادينه ، ومناهجه ، وطرقه ، ووسائله ، وأدواته ، وطبيعة عصره ، سوف يكون عملا فاشلا خاسراً .

إن آفة - المسلم التقليدي - أنه يناصر ويخاصم بدون قراءة ، وهو إن قرأ فقراءته سطحية ، لاتتصف بالإحاطة والرسوخ . يناصر الإسلام ولا يقرأه ، أو هو يقرأ شعارات عامة وملصقات ذهنية غائمة . ويخاصم الشيوعية أو الرأسمالية ، ولا يقرأ كتبها الأصلية ، وأصولها الفكرية ، إلا ماقرأه في الصحف أو سمعه من إذاعات المعسكرين اللذين كانا يتسابقان لقولبة الأذهان وتعبئة المشاعر ، وتشكيل الإتجاهات لصالحهما ، وضد بعضهما بعضاً ، ولذلك يقع المسلم التقليدي في أخطاء قاتلة وينتهي إلى إحباطات مدمرة .

والتوصية السابعة : أن الحركة الإسلامية الجديدة ، تحتاج إلى شجاعة ، ووعي ، لفك الارتباط القائم بين « العمل الإسلامي » ، و« أزمات العصبيات القبلية والإقليمية » المتتالية في « مزق » الأمة الإسلامية . أي هي بحاجة أن لاتضع العمل الإسلامي لمعالجة المضاعفات التي يتسبب بها « حران » العربي المعاصر ، والباكستاني المعاصر ، والإيراني المعاصر ، ونظائرهم وأقرانهم في العالم الإسلامي ، عن دخول عصر التكتلات العالمية التي تلغي الحدود الإقليمية ، وتطلق الولاءات العصبية ، وترتقي إلى دائرة الولاء لـ « الأفكار » الإسلامية العالمية ، وولاءاتها .

فسرطان المسلم التقليدي الذي سوف يقتله ، ويشطبه من الوجود ، هو هذا « الحران » العنيد الذي مارسه منذ عهد بعيد ، ومازال يمارسه ويرفض الانتقال إلى طور « الأمة العالمية » الدائرة في فلك « الأفكار الإسلامية » ، ويصر على البقاء في طور العصبيات الإقليمية ، ويتحايل على دائرة الانتماء الإسلامي بمنظمات صورية ، تكون بمثابة المقابر التي تدفن فيها مشكلات « مزق » الأمة الإسلامية المتوفاة !! الأمر الذي خرج به عن صراط الإيمان والإسلام ، وأركسه في تعرجات النفاق ، الذي بدأ صغيراً ثم تطور إلى نفاق أكبر ، أركسه في الدرك الأسفل من هوان الدنيا ، ويؤهله للدرك الأسفل من نار الآخرة .

http://www.al-maktabeh.com

ولا يقتصر هذا الحران العنيد ، ورفض الانتقال من « ثقافة العصبية القبلية » وتطبيقاتها على الأنظمة السياسية والإدارية القائمة في « مزق » الأمة الإسلامية المتوفاة !! بل أن الحركات الإسلامية القائمة لم « تتزكّ » من ثقافة العصبية القبلية ، وإنما بقيت غارقة في حمأتها حتى الأذن . فالمرشد العام للجماعة ، « أو المراقب العام » ، أو الأمين العام للجماعة ، أو الحزب ، يبقى مرشداً « راشداً » ، وأميناً « أمينا » مدى الحياة ، محاطا بـ « العصمة » التي تحيط بشيخ القبيلة ، ولا يطوله النقد الذي طال الخليفة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ، وحين يموت يرثه في منصب المرشد ، أو المراقب ، أو الأمين العام ، أو المجلس النيابي ، ولده والمجموعة المتعاونة معه ، لايجري اختيارها طبقا لمقاييس الدوران في فلك « أفكار » الجماعة ، أو الحزب ، وإنما طبقا للدوران في فلك « أشخاص » القربى والمصاهرة ، والشراكة التجارية ، والصداقات الشخصية ، أو طبقا لمستوى امتلاكهم لـ « الأشياء » الدنيوية ، أو طبقا للانتماء « الإقليمي » ، وأمثاله .

والدعوة ليس لها استراتيجية ولا خطط ولا مؤسسات ، وإنما هي ارتجال وردود فعل لما تطرحه مؤسسات الإعلام المحلية والعالمية ، واستجابات إشراطية منفعلة كاستجابات الحمية القبلية .

وأساليب الدعوة تقتصر على ـ الخطابة والموعظة غير الحسنة ـ القائمة على الانفعال والارتجال ، الجاهلة بالنفس البشرية ومفاتيحها . وليس هناك مؤسسات لإخراج من يدعو بـ« الحكمة » وإعداد الموازيين لمتطلبات العصر . وليس هناك مؤسسات لإعداد المفكرين المختصين بـ« الجدال الأحسن » الذين يخاطبون الفكر الإنساني كله بـ« أحسن » مما عنده . وليس هناك مؤسسات لـ« شهود » ما يجري في قرية الكرة الأرضية ، و « قراءته » قراءة راسخة محيطة تمهد لـ« حكمة » التخطيط والتنفيذ .

ليس هناك شيء من هذه المؤسسات والاستراتيجيات ، بل الأمر متروك للكر والفر الفكري ـ الخطابي ، وللجهود الفردية . فإذا أفرزت الصدفة مفكراً فرداً فظهر أمره وشاع ، استثمرت الجماعة أو الحزب أفكاره ومجهوداته ـ ما دامت توصف بالصواب ، وتحظى بالقبول ـ ، وإذا تناول النقد أفكار الفرد المذكور ، أو أصاب التطرف تطبيقاتها ، تبرأت الجماعة من المفكر وأفكاره ، وألقت المسؤولية عليه وحده .

والتوصية الأخيرة ؛ أن يتم التنسيق بين كافة المؤسسات المقترحة لتكوّن دائرة عمل فاعلة ـ متجددة بتجدد الحياة واستمرارها . ومثلما كان الطائر والسمكة هما النموذج الذي اهتدى به مصمموا الطائرة والسفينة ، فكذلك يجب أن يكون جسد الإنسان هو النموذج الذي يهتدي به تنسيق العمل الإسلامي ودائرة التنظيم المقترحة . فكما تحتل غدد الإفراز الموجهة ـ كالقلب والدماغ والرئتين والكلى والبنكرياس ـ أحصن المواقع في الجسد ،

وأخفاها حتى عن بصر صاحب الجسد نفسه ، وتقوم بوظائف بعث الحياة في الجسد ، وتوجيه أنشطته ، وتنقيته مما يؤذيه ، كذلك يجب أن يحل العلم الإسلامي ـ علماءه ومفكريه ، أو « أولو الأمر » فيه ـ أحصن المواقع وأخفاها حتى عن عناصر العمل الإسلامي نفسه ليقوموا في مواقعهم الحصينة ، بوظائف ثلاث : الأولى : تطوير ـ المثل الأعلى ـ اللازم لكل جيل من أجيال العاملين لإخراج الأمة المسلمة وعافيتها .

والثانية ؛ رسم الخطط والاستراتيجيات . . والثالثة ؛ التقويم والمراجعات والتزكية من المعوقات . . فالعمل الإسلامي لديه الخبرة الكافية ـ إن كان يعقل ـ عن سياسات « حكماء مترفي قرية الكرة الأرضية » إزاء الرؤوس المفكرة المسلمة ، وإبطال فاعلية العمل الإسلامي ، وإيقاف حركته أو إفساد مسيرته .

ويمكن أن نمثل لدائرة التنظيم المقترحة بالرسم التالي :

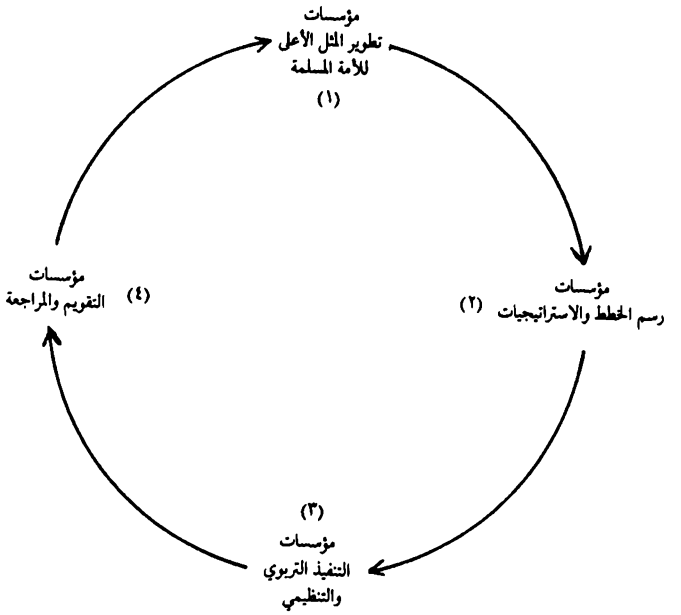

هذه بعض التوصيات التي لا تعدو أن تكون مثيرات ومنبهات للذين سوف يرشحهم الله لإخراج ـ الأمة المسلمة ـ من جديد ، فلعلها تساعدهم على أداء فرض الله في « العمل الجماعي » وتجسيد قوله صلى الله عليه وسلم « يد الله مع الجماعة » .

الفهـــــرس

الموضوع **الصفحة**

تقديم بقلم الأستاذ عمر عبيد حسنة ٧
مقدمة المؤلف ١٣
الباب الأول ـ الأمة المسلمة : مفهومها ونشأتها وأهميتها : ١٧
الفصل الأول : مفهوم الأمة المسلمة ١٧
الفصل الثاني : بدء ظاهرة الأمة المسلمة ٢٣
الفصل الثالث : أهمية إخراج الأمة المسلمة ٢٩

الباب الثاني ـ مكونات الأمة المسلمة : ٣٣
الفصل الرابع : العنصر الأول : الأفراد المؤمنون ٣٣
أولا : أهمية الأفراد المؤمنين كعنصر من عناصر الأمة : ٣٤
ثانيا : أهمية « الهوية » و « الجنسية » و « الثقافة » الإيمانية في العالم المعاصر ٣٨
الفصل الخامس : العنصر الثاني : الهجرة والمهجر ٤٥
١ ـ معنى الهجرة ٤٥
٢ ـ أهمية الهجرة ٤٨
٣ ـ دور التربية في بلورة عنصر الهجرة ٥٠
الفصل السادس : العنصر الثالث : الجهاد والرسالة ٥٢
١ ـ معنى الجهاد ٥٢
٢ ـ مظاهر الجهاد ٥٤
٣ ـ معنى الرسالة ٥٨
٤ ـ أهمية الرسالة في وجود الأمة ٥٩
٥ ـ دور التربية في تعزيز الرسالة ٦١

الفصل السابع : العنصر الرابع : الإيواء ٦٣
١ ـ معنى الإيواء ٦٣
٢ ـ مظاهر الإيواء ٦٤
٣ ـ أهمية الإيواء ٨٢
٤ ـ مسؤولية التربية إزاء عنصر الإيواء ٨٢
الفصل الثامن : العنصر الخامس : النصرة ٨٤
١ ـ معنى النصرة ٨٤
٢ ـ مظاهر النصرة ٨٥
الفصل التاسع : العنصر السادس : الولاية ١٠٣
١ ـ معنى الولاية ١٠٣
٢ ـ درجات الولاية الايمانية ١٠٥
٣ ـ درجات ولاية غير المؤمنين ١٠٦
٤ ـ التربية ورباط الولاية ١٠٩

الباب الثالث : صحة الأمة ومرضها وموتها : ١١١
الفصل العاشر : المرحلة الأولى : مرحلة صحة الأمة وعافيتها .
(مرحلة الدوران في فلك الأفكار) ١١٣
الفصل الحادي عشر : المرحلة الثانية : مرحلة مرض الأمة .
(مرحلة الدوران في فلك الأشخاص) ١١٨
الطور الأول : طور الولاء للقوم ١٢٠
الطور الثاني : طور الولاء للعشيرة أو الطائفة أو الاقليم ١٢٤
الطور الثالث : طور الولاء للأسرة ١٢٥
الطور الرابع : طور ولاء الفرد لنفسه ١٢٦
الفصل الثاني عشر : المرحلة الثالثة : مرحلة وفاة الأمة .
(مرحلة الدوران في فلك الأشياء) ١٢٩
الفصل الثالث عشر : مصير الأمة المتوفاة ١٤٤

الفصل الرابع عشر توصيـــــات ١٥١

وكلاء التوزيع

البلد	إسم الوكيل	رقم الهاتف	عنوانه
قطر	□ دار الثقافة	٤١٤١٨٢	ص . ب ٨١٥٠ الدوحة
الإمارات	□ مكتبة دار الأمان	٣٤٤٨٣٠	ص . ب ٤٦٩٥ أبو ظبي
	□ المكتبة الحديثة	٦٥٥٦٢٢	ص . ب ١٥٥٤٠ العين
	□ جمعية الإصلاح والتوجيه الاجتماعي	٦٦٥٦٥٤	ص . ب ٤٦٦٣ دبي
البحرين	□ مكتبة الآداب	٢٣١٠٦٢	ص . ب ٢٨٧ البحرين
السعودية	□ شركة تهامة للتوزيع	٦٦٩٥٠٠٠	جدة ص . ب ٩٤٠٩ ٢١٤١٣
		٤٠٥٤٤٤٠	الرياض
		٥٤٥٠٥٤٥	مكة
عُمان	□ مكتبة الثقافة الإسلامية	٢٩٢٩٣٤	ص . ب ١٨٦٨٢ ظفار - صلاله - سلطنة عمان
الكويت	□ مكتبة دار المنار الإسلامية	٢٦١٥٠٤٥	حولي شارع المثنى ص . ب ٤٣٠٩٩ رمز بريدي ٢٣٠٤٥
الأردن	□ مؤسسة الفريد للنشر والتوزيع	٦٠١٥٠١	عمان ص . ب ٩٦٠٦٥٤
اليمن	□ مكتبة الجيل الجديد	٧٨٠٤٠	صنعاء ص . ب ٥٤٤
السودان	□ دار التوزيع	٧٩٤٦٠	ص . ب ٣٥٨ الخرطوم
مصر	□ مؤسسة توزيع الأخبار	٧٤٨٨٤٤	ص . ب ٧ القاهرة
المغرب	□ الشركة العربية الافريقية للتوزيع « سيبرس »	٢٤٩٢٠٠	ص . ب 13008-70 زنقة سجلماسة - الدار البيضاء 5
انكلترا	□ دار الرعاية الإسلامية	2725170 2633071	MUSLIM WELFARE HOUSE 233, SEVEN SISTERS ROAD LONDON, N4, 2DA UNITED KINGDOM

كتاب الأمة

Al Ummah

مركز البحوث والمعلومات

هاتف	:	٤٦٦٢٢٢
تلكس	:	٥١١٥ شرعية دح
فاكس	:	٤١٢٦٧٠
برقيا	:	الأمة الدوحة
ص . ب	:	٨٩٣ الدوحة ـ قطر

ثمن النسخة

الأردن	٥٠٠ فلس
الإمارات	٥ دراهم
البحرين	٥٠٠ فلس
تونس	دينار واحد
السعودية	٥ ريالات
السودان	جنيه واحد
عُمان	٥٠٠ بيسة
قطر	٥ ريالات
الكويت	٥٠٠ فلس
مصر	جنيه واحد
المغرب	٨ دراهم
اليمن الشمالي	١٢ ريالاً

٥ الأمريكتان وأوربا وأستراليا وباقي دول آسيا وأفريقيا دولار ونصف أمريكي أو ما يعادله ..

al-maktabeh www. .com
مكتبة المهتدين
http://www.al-maktabeh.com

رقم الايداع بدار الكتب القطرية
٣٤٦ لسنة ١٩٩١